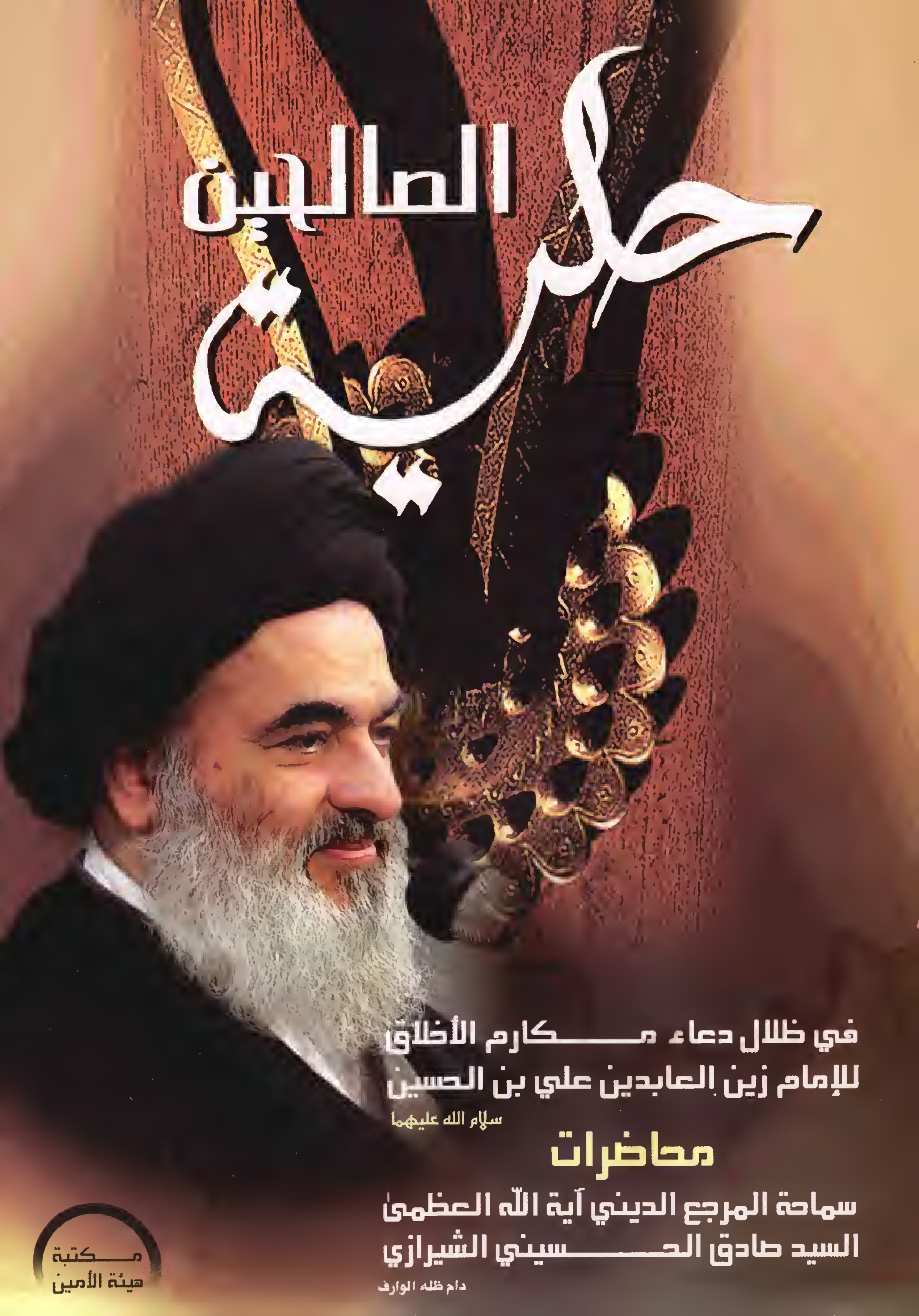
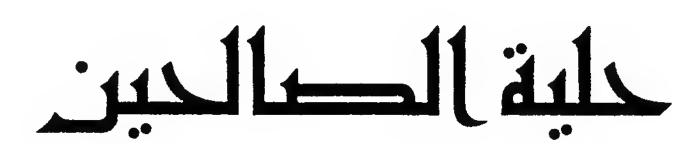

حلية الصالحين
في ظلال دعاء مكارم الأخلاق
للإمام زين العابدين علي بن الحسين
سلام الله عليهما
محاضرات
سماحة المرجع الديني آية الله العظمى
السيد صادق الحسيني الشيرازي
دام ظله الوارف
مكتبة
هيئة الأمين



في ظلال دعاء مكارم الأخلاق

للإمام زين العابدين علي بن الحسين سلام الله عليهما

محاضرات



مكتبة هيئة الأمين

دعاء مكارم الأخلاق ومرضيّ الأفعال

للإمام زين العابدين سلام الله عليه



اللّهُمّ صَلّ عَلَى مُحَمّدٍ وَآلِهِ، وَ بَلّغْ بِإِيمَانِي أَكْمَلَ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْ يَقِينِي أَفْضَلَ الْيَقِينِ، وَانْتَهِ بِنِيّتِي إِلَى أَحْسَنِ النّيّاتِ، وَبِعَمَلِي إِلَى أَحْسَنِ الأَعْمَالِ. اللّهُمّ وَفّرْ بِلُطْفِكَ نِيّتِي، وَصَحّحْ بِمَا عِنْدَكَ يَقِينِي، وَاسْتَصْلِحْ بِقُدْرَتِكَ مَا فَسَدَ مِنّي.

اللّهُمّ صَلّ عَلَى مُحَمّدٍ وَآلِهِ، وَاكْفِنِي مَا يَشْغَلُنِي الاهْتِمَامُ بِهِ، وَاسْتَعْمِلْنِي بِمَا تَسْأَلُنِي غَداً عَنْهُ، وَاسْتَفْرِغْ أَيّامِي فِيمَا خَلَقْتَنِي لَهُ، وَأَغْنِنِي وَأَوْسِعْ عَلَيّ فِي رِزْقِكَ، وَلا تَفْتِنّي بِالنّظَرِ، وَأَعِزّنِي وَلا تَبْتَلِيَنّي بِالْكِبْرِ، وَعَبّدْنِي لَكَ وَلا تُفْسِدْ عِبَادَتِي بِالْعُجْبِ، وَأَجْرِ لِلنّاسِ عَلَى يَدِيَ الْخَيْرَ وَلا تَمْحَقْهُ بِالْمَنّ، وَهَبْ لِي مَعَالِيَ الأَخْلَاقِ، وَاعْصِمْنِي مِنَ الْفَخْرِ.

اللّهُمّ صَلّ عَلَى مُحَمّدٍ وَآلِهِ، وَلا تَرْفَعْنِي فِي النّاسِ دَرَجَةً إِلاّ حَطَطْتَنِي عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَهَا، وَلا تُحْدِثْ لِي عِزّاً ظَاهِراً إِلاّ أَحْدَثْتَ لِي ذِلّةً بَاطِنَةً عِنْدَ نَفْسِي بِقَدَرِهَا.

اللّٰهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَمَتِّعْنِي بِهُدًى صَالِحٍ لا أَسْتَبْدِلُ بِهِ، وَطَرِيقَةِ حَقٍّ لا أَزِيغُ عَنْهَا، وَنِيَّةِ رُشْدٍ لا أَشُكُّ فِيهَا، وَعَمِّرْنِي مَا كَانَ عُمُرِي بِذْلَةً فِي طَاعَتِكَ، فَإِذَا كَانَ عُمُرِي مَرْتَعاً لِلشَّيْطَانِ فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَ مَقْتُكَ إِلَيَّ، أَوْ يَسْتَحْكِمَ غَضَبُكَ عَلَيَّ.

اللّٰهُمَّ لا تَدَعْ خَصْلَةً تُعَابُ مِنِّي إِلاَّ أَصْلَحْتَهَا، وَلا عَائِبَةً أُوَنَّبُ بِهَا إِلاَّ حَسَّنْتَهَا، وَلا أُكْرُومَةً فِيَّ نَاقِصَةً إِلاَّ أَتْمَمْتَهَا.

اللّٰهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَبْدِلْنِي مِنْ بِغْضَةِ أَهْلِ الشَّنَآنِ الْمَحَبَّةَ، وَمِنْ حَسَدِ أَهْلِ الْبَغْيِ الْمَوَدَّةَ، وَمِنْ ظِنَّةِ أَهْلِ الصَّلاحِ الثِّقَةَ، وَمِنْ عَدَاوَةِ الأَدْنَيْنَ الْوَلايَةَ، وَمِنْ عُقُوقِ ذَوِي الأَرْحَامِ الْمَبَرَّةَ، وَمِنْ خِذْلانِ الأَقْرَبِينَ النُّصْرَةَ، وَمِنْ حُبِّ الْمُدَارِينَ تَصْحِيحَ الْمِقَةِ، وَمِنْ رَدِّ الْمُلابِسِينَ كَرَمَ الْعِشْرَةِ، وَمِنْ مَرَارَةِ خَوْفِ الظَّالِمِينَ حَلاوَةَ الأَمَنَةِ.

اللّٰهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلْ لِي يَداً عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي، وَلِسَاناً عَلَى مَنْ خَاصَمَنِي، وَظَفَراً بِمَنْ عَانَدَنِي، وَهَبْ لِي مَكْراً عَلَى مَنْ كَايَدَنِي، وَقُدْرَةً عَلَى مَنِ اضْطَهَدَنِي، وَتَكْذِيباً لِمَنْ قَصَبَنِي، وَسَلامَةً مِمَّنْ تَوَعَّدَنِي، وَوَفِّقْنِي لِطَاعَةِ مَنْ سَدَّدَنِي، وَمُتَابَعَةِ مَنْ أَرْشَدَنِي.

اللّٰهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَسَدِّدْنِي لأَنْ أُعَارِضَ مَنْ غَشَّنِي بِالنُّصْحِ، وَأَجْزِيَ مَنْ هَجَرَنِي بِالْبِرِّ، وَأُثِيبَ مَنْ حَرَمَنِي بِالْبَذْلِ،

وَأُكَافِيَ مَنْ قَطَعَنِي بِالصِّلَةِ، وَأُخَالِفَ مَنِ اغْتَابَنِي إِلَى حُسْنِ الذِّكْرِ، وَأَنْ أَشْكُرَ الْحَسَنَةَ، وَأُغْضِيَ عَنِ السَّيِّئَةِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَحَلِّنِي بِحِلْيَةِ الصَّالِحِينَ، وَأَلْبِسْنِي زِينَةَ الْمُتَّقِينَ، فِي بَسْطِ الْعَدْلِ، وَكَظْمِ الغَيْظِ، وَإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ، وَضَمِّ أَهْلِ الْفُرْقَةِ، وَإِصْلاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَإِفْشَاءِ الْعَارِفَةِ، وَسَتْرِ الْعَائِبَةِ، وَلِينِ الْعَرِيكَةِ، وَخَفْضِ الْجَنَاحِ، وَحُسْنِ السِّيرَةِ، وَسُكُونِ الرِّيحِ، وَطِيبِ الْمُخَالَقَةِ، وَالسَّبْقِ إِلَى الْفَضِيلَةِ، وَإِيثَارِ التَّفَضُّلِ، وَتَرْكِ التَّعْيِيرِ، وَالإِفْضَالِ عَلَى غَيْرِ الْمُسْتَحِقِّ، وَالْقَوْلِ بِالْحَقِّ وَإِنْ عَزَّ، وَاسْتِقْلالِ الْخَيْرِ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، وَاسْتِكْثَارِ الشَّرِّ وَإِنْ قَلَّ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، وَأَكْمِلْ ذَلِكَ لِي بِدَوَامِ الطَّاعَةِ، وَلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، وَرَفْضِ أَهْلِ الْبِدَعِ، وَمُسْتَعْمِلِ الرَّأْيِ الْمُخْتَرَعِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلْ أَوْسَعَ رِزْقِكَ عَلَيَّ إِذَا كَبِرْتُ، وَأَقْوَى قُوَّتِكَ فِيَّ إِذَا نَصِبْتُ، وَ لا تَبْتَلِيَنِّي بِالْكَسَلِ عَنْ عِبَادَتِكَ، وَلا بِالْعَمَى عَنْ سَبِيلِكَ، وَلا بِالتَّعَرُّضِ لِخِلافِ مَحَبَّتِكَ، وَلا مُجَامَعَةِ مَنْ تَفَرَّقَ عَنْكَ، وَلا مُفَارَقَةِ مَنِ اجْتَمَعَ إِلَيْكَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَصُولُ بِكَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، وَأَسْأَلُكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ عِنْدَ الْمَسْكَنَةِ، وَلا تَفْتِنِّي بِالاسْتِعَانَةِ بِغَيْرِكَ إِذَا اضْطُرِرْتُ، وَلا بِالْخُضُوعِ لِسُؤَالِ غَيْرِكَ إِذَا افْتَقَرْتُ، وَلا بِالتَّضَرُّعِ إِلَى مَنْ دُونَكَ إِذَا رَهِبْتُ، فَأَسْتَحِقَّ بِذَلِكَ خِذْلانَكَ وَمَنْعَكَ

وَإِعْرَاضَكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي رُوعِي مِنَ التَّمَنِّي وَالتَّظَنِّي وَالْحَسَدِ ذِكْراً لِعَظَمَتِكَ، وَتَفَكُّراً فِي قُدْرَتِكَ، وَتَدْبِيراً عَلَى عَدُوِّكَ، وَمَا أَجْرَى عَلَى لِسَانِي مِنْ لَفْظَةِ فُحْشٍ أَوْ هُجْرٍ أَوْ شَتْمِ عِرْضٍ أَوْ شَهَادَةِ بَاطِلٍ أَوِ اغْتِيَابِ مُؤْمِنٍ غَائِبٍ أَوْ سَبِّ حَاضِرٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ نُطْقاً بِالْحَمْدِ لَكَ، وَإِغْرَاقاً فِي الثَّنَاءِ عَلَيْكَ، وَذَهَاباً فِي تَمْجِيدِكَ، وَشُكْراً لِنِعْمَتِكَ، وَاعْتِرَافاً بِإِحْسَانِكَ، وَإِحْصَاءً لِمِنَنِكَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَ لا أُظْلَمَنَّ وَأَنْتَ مُطِيقٌ لِلدَّفْعِ عَنِّي، وَلا أَظْلِمَنَّ وَأَنْتَ الْقَادِرُ عَلَى الْقَبْضِ مِنِّي، وَلا أَضِلَّنَّ وَقَدْ أَمْكَنَتْكَ هِدَايَتِي، وَلا أَفْتَقِرَنَّ وَمِنْ عِنْدِكَ وُسْعِي، وَلا أَطْغَيَنَّ وَمِنْ عِنْدِكَ وُجْدِي.

اللَّهُمَّ إِلَى مَغْفِرَتِكَ وَفَدْتُ، وَإِلَى عَفْوِكَ قَصَدْتُ، وَإِلَى تَجَاوُزِكَ اشْتَقْتُ، وَبِفَضْلِكَ وَثِقْتُ، وَلَيْسَ عِنْدِي مَا يُوجِبُ لِي مَغْفِرَتَكَ، وَلا فِي عَمَلِي مَا أَسْتَحِقُّ بِهِ عَفْوَكَ، وَمَا لِي بَعْدَ أَنْ حَكَمْتُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ فَضْلُكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَتَفَضَّلْ عَلَيَّ.

اللَّهُمَّ وَأَنْطِقْنِي بِالْهُدَى، وَأَلْهِمْنِي التَّقْوَى، وَوَفِّقْنِي لِلَّتِي هِيَ أَزْكَى، وَاسْتَعْمِلْنِي بِمَا هُوَ أَرْضَى. اللَّهُمَّ اسْلُكْ بِيَ الطَّرِيقَةَ الْمُثْلَى، وَاجْعَلْنِي عَلَى مِلَّتِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَ مَتِّعْنِي بِالاقْتِصَادِ، وَاجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِ السَّدَادِ، وَمِنْ أَدِلَّةِ الرَّشَادِ، وَمِنْ صَالِحِ الْعِبَادِ، وَارْزُقْنِي

فَوْزَ الْمَعَادِ، وَ سلامَةَ الْمِرْصَادِ.

اللَّهُمَّ خُذْ لِنَفْسِكَ مِنْ نَفْسِي مَا يُخَلِّصُهَا، وَأَبْقِ لِنَفْسِي مِنْ نَفْسِي مَا يُصْلِحُهَا، فَإِنَّ نَفْسِي هَالِكَةٌ أَوْ تَعْصِمَهَا.

اللَّهُمَّ أَنْتَ عُدَّتِي إِنْ حَزِنْتُ، وَأَنْتَ مُنْتَجَعِي إِنْ حُرِمْتُ، وَبِكَ اسْتِغَاثَتِي إِنْ كَرِثْتُ، وَعِنْدَكَ مِمَّا فَاتَ خَلَفٌ، وَلِمَا فَسَدَ صَلاحٌ، وَفِيمَا أَنْكَرْتَ تَغْيِيرٌ، فَامْنُنْ عَلَيَّ قَبْلَ الْبَلاءِ بِالْعَافِيَةِ، وَقَبْلَ الطَّلَبِ بِالْجِدَةِ، وَقَبْلَ الضَّلالِ بِالرَّشَادِ، وَاكْفِنِي مَئُونَةَ مَعَرَّةِ الْعِبَادِ، وَهَبْ لِي أَمْنَ يَوْمِ الْمَعَادِ، وَامْنَحْنِي حُسْنَ الإِرْشَادِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَ ادْرَأْ عَنِّي بِلُطْفِكَ، وَاغْذُنِي بِنِعْمَتِكَ، وَأَصْلِحْنِي بِكَرَمِكَ، وَدَاوِنِي بِصُنْعِكَ، وَأَظِلَّنِي فِي ذَرَاكَ، وَجَلِّلْنِي رِضَاكَ، وَوَفِّقْنِي إِذَا اشْتَكَلَتْ عَلَيَّ الأُمُورُ لأَهْدَاهَا، وَإِذَا تَشَابَهَتِ الأَعْمَالُ لأَزْكَاهَا، وَإِذَا تَنَاقَضَتِ الْمِلَلُ لأَرْضَاهَا.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَتَوِّجْنِي بِالْكِفَايَةِ، وَسُمْنِي حُسْنَ الْوِلايَةِ، وَهَبْ لِي صِدْقَ الْهِدَايَةِ، وَلا تَفْتِنِّي بِالسَّعَةِ، وَامْنَحْنِي حُسْنَ الدَّعَةِ، وَلا تَجْعَلْ عَيْشِي كَدّاً كَدّاً، وَلا تَرُدَّ دُعَائِي عَلَيَّ رَدّاً، فَإِنِّي لا أَجْعَلُ لَكَ ضِدّاً، وَلا أَدْعُو مَعَكَ نِدّاً.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَامْنَعْنِي مِنَ السَّرَفِ، وَحَصِّنْ رِزْقِي مِنَ التَّلَفِ، وَوَفِّرْ مَلَكَتِي بِالْبَرَكَةِ فِيهِ، وَأَصِبْ بِي سَبِيلَ الْهِدَايَةِ لِلْبِرِّ فِيمَا أُنْفِقُ مِنْهُ.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاكْفِنِي مَئُونَةَ الاكْتِسَابِ، وَارْزُقْنِي مِنْ غَيْرِ احْتِسَابٍ، فَلا أَشْتَغِلَ عَنْ عِبَادَتِكَ بِالطَّلَبِ، وَلا أَحْتَمِلَ إِصْرَ تَبِعَاتِ الْمَكْسَبِ. اللّهُمَّ فَأَطْلِبْنِي بِقُدْرَتِكَ مَا أَطْلُبُ، وَأَجِرْنِي بِعِزَّتِكَ مِمَّا أَرْهَبُ.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَصُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ، وَلا تَبْتَذِلْ جَاهِي بِالإِقْتَارِ فَأَسْتَرْزِقَ أَهْلَ رِزْقِكَ، وَأَسْتَعْطِيَ شِرَارَ خَلْقِكَ، فَأَفْتَتِنَ بِحَمْدِ مَنْ أَعْطَانِي، وأُبْتَلَى بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي، وَأَنْتَ مِنْ دُونِهِمْ وَلِيُّ الإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَارْزُقْنِي صِحَّةً فِي عِبَادَةٍ، وَفَرَاغاً فِي زَهَادَةٍ، وَعِلْماً فِي اسْتِعْمَالٍ، وَوَرَعاً فِي إِجْمَالٍ.

اللّهُمَّ اخْتِمْ بِعَفْوِكَ أَجَلِي، وَحَقِّقْ فِي رَجَاءِ رَحْمَتِكَ أَمَلِي، وَسَهِّلْ إِلَى بُلُوغِ رِضَاكَ سُبُلِي، وَحَسِّنْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِي عَمَلِي.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَنَبِّهْنِي لِذِكْرِكَ فِي أَوْقَاتِ الْغَفْلَةِ، وَاسْتَعْمِلْنِي بِطَاعَتِكَ فِي أَيَّامِ الْمُهْلَةِ، وَانْهَجْ لِي إِلَى مَحَبَّتِكَ سَبِيلاً سَهْلَةً، أَكْمِلْ لِي بِهَا خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

اللّهُمَّ وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، كَأَفْضَلِ مَا صَلَّيْتَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ قَبْلَهُ، وَأَنْتَ مُصَلٍّ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَهُ، وَآتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنِي بِرَحْمَتِكَ عَذَابَ النَّارِ[1].

---

(١) الصحيفة السجّادية: ٩٩ رقم ٢٠ في مكارم الأخلاق ومرضيّ الأفعال.

مقدّمة المؤسّسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيّدنا محمد وآله الطاهرين، واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

لقد تظافرت الروايات الشريفة في الدعوة لحضور مجالس العلماء للاستفادة من علومهم والاسترشاد بتعاليمهم الروحية والفكرية والخُلُقية؛ فعن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «مجالسة العلماء عبادة»[1]. وعن أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّه قال: «العقل ولادة، والعلم إفادة، ومجالسة العلماء زيادة»[2].

كما حثّت الروايات على تدوين العلم وتقييده بالكتابة، مثل قول النبي صلّى الله عليه وآله: «قيّدوا العلم» قيل: وما تقييده؟ قال: «كتابته»[3].

ومن بين تلك المجالس المليئة بالمعارف والعبر، مجالس سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيّد صادق الحسيني الشيرازي دام ظلّه، الذي طالما أتحف مستمعيه بالنكات الخفية والمعارف الدقيقة الكامنة في طيّ كلمات أهل البيت سلام الله عليهم وسيرتهم، فكانت مجالسه تُعَدُّ بحقّ منابع تربويّة كفيلة بأن ترشد المؤمنين إلى الاقتداء بأهل البيت عليهم السلام وتحثّهم في السير على نهجهم، عقيدةً وفكراً، وأدباً وخُلُقاً.

فمن منطلق العمل بالأحاديث الشريفة الداعية إلى الاستفادة من مجالس العلماء، وحرصاً على نشر ما حملته تلك المحاضرات من المفاهيم الإسلامية

---

(١) بحار الأنوار: ١ / ٢٠٤ ح٢٤ باب٤، مذاكرة العلم ومجالسة العلماء.

(٢) كنز الفوائد: ١٣ الفصل الأوّل، مختصر الكلام في أنّ للحوادث أولاً.

(٣) مستدرك سفينة البحار: ٩ / ٢٨ باب فضل كتابة الحديث وروايته.

الأصيلة، باشر قسم التحرير في مؤسّسة الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله بعون الله تعالى وتوفيقه بتدوينها ثمّ إخراجها بعد تنقيحها وتتبع مداليلها الروائية والتاريخية عبر مظانّها، فكانت (نفحات الهداية) المجموعة الأولى التي قدّمناها للقرّاء الكرام، والتي ضمّت طائفة قيّمة من أحاديث سماحته التربوية في مناسبات مختلفة.

ونستتبع في هذا الكتاب ما أفاض به سماحته من الإرشادات التربوية والخلقية في ضوء دعاء «مكارم الأخلاق ومرضيّ الأفعال»[1] للإمام زين العابدين علي بن الحسين سلام الله عليهما حيث تناول سماحته (خلال الفترة من ١٠ ذي القعدة ١٤٢٠هـ حتى ٢٧ رمضان ١٤٢٢ هـ) بعض فقرات هذا الدعاء الشريف بالشرح والتحليل متوخّياً بذلك استلهام الدروس والعبر منها، وذلك من خلال محاضرات الأخلاق التي كان يلقيها يوم الأربعاء من كلّ أسبوع.

وفي هذه المناسبة تجدّد المؤسّسة شكرها لكلّ الإخوة العاملين في قسم التحرير في موقع سماحة السيّد المرجع دام ظلّه، الذين ساهموا في إعداد وإخراج هذا الكتاب، سائلين الله العليّ القدير أن يسدّدنا وإياهم ويوفّقنا لتقديم المزيد لكلّ ما يحبّه ويرضاه، وصلى الله على سيّدنا ونبيّنا محمد وآله الطيّبين الطاهرين.

مؤسّسة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الثقافية

---

(١) وهو أحد أدعية الصحيفة السجّادية التي ينتهي سندها إلى الإمام زين العابدين سلام الله عليه، والتي تحتوي على أكثر من خمسين دعاءً منها هذا الدعاء. لقد تضمّنت هذه الصحيفة من الكنوز ما بلغت من العظمة حتى عُبّر عنها بأخت القرآن، وإنجيل أهل البيت سلام الله عليهم، وزبور آل محمد صلّى الله عليه وآله.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلى محمَّدٍ وَآلِهِ، وَبلِّغ بإيماني أكمَلَ الإيمانِ، وَاجْعَلْ يَقيني أفْضَلَ اليَقينِ، وَانتَهِ بِنِيَّتي إلى أحْسَنِ النِيَّاتِ، وَبِعَمَلي إلى أحْسَنِ الأعْمَالِ. اللّهُمَّ وَفِّرْ بِلُطْفِكَ نِيَّتي، وَصَحِّحْ بِما عِنْدَكَ يَقيني، وَاسْتَصْلِحْ بِقُدْرَتِكَ مَا فَسَدَ مِنّي.

- ☑ الصلاة على محمد و آله
- ☑ الدعاء والاستعانة بالله
- ☑ أكمل الإيمان
- ☑ أحسن الأعمال
- ☑ توفّر النيّة
- ☑ تصحيح اليقين
- ☑ استصلاح الفساد

الصلاة على محمّد وآله

يفتتح إمامنا زين العابدين سلام الله عليه دعاءه بالصلاة على محمد وآلـه، بل يجعلها مفتاحاً لكلّ فقرة من فقراته ـ كما ترى ـ وذلك للمأثور عنهم صلوات الله وسلامه عليهم أنّ الصلاة على محمد وآله تعتبر من الأسـباب الرئيـسية لاستجابة الدعاء، وقد ورد ذلك في روايات متـواترة عـن مختلـف فـرق المسلمين؛ فقد روي عن النبي صلّى الله عليه وآله أنّـه قـال: «كلّ دعـاء محجـوب عن الله حتى يصلّى على محمّد وأهل بيته».[1]

وهذه حقيقة تكوينية واقعية وإن كانت أسرارها خفيّـة بالنـسبة لنـا، كما في بعض الأمور الواقعية في هذا الكون والتي نؤمن بها؛ لإدراكنا لها، وإن كنّا لا نحسّها بالحواسّ، كالجاذبية مثلاً.

لقد ربط الله سبحانه وتعالى بين إجابة الدعاء وبين الصلاة على النبي وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) نقله جمهرة من علماء العامّة، منهم السيوطي في الجامع الصغير: ١ / ٦٥٦ ح ٤٢٦٦، والمتقي الهندي في كنز العمال: ٢ / ٧٨ ح ٣٢١٥ وغيرهما.

والمظهِر لذلك ومقام إثباته الروايات المصرّحة بذلك[١] والتي تكشف

---

(١) وردت في فضل الصلوات على محمد وآله روايات كثيرة، فقد روي عن الإمام الباقر سلام الله عليه أنّه قال: **ما من شيء يُعبَد الله به يوم الجمعة أحبّ إليّ من الصلاة على محمّد وآل محمّد.** (الحدائق الناضرة: ١٠/ ١٩٨).

وعن الإمام الصادق سلام الله عليه أنّه قال: **إذا كان ليلة الجمعة نزل من السماء ملائكة بعدد الذرّ في أيديهم أقلام من الذهب وقراطيس الفضة لا يكتبون إلى ليلة السبت إلا الصلاة على محمد وعلى آل محمد، فأكثروا منها. ثمّ قال: إنّ من السنّة أن تصلّي على محمّد وعلى أهل بيته في كلّ جمعة ألف مرّة وفي سائر الأيّام مئة مرّة.** (تذكرة الفقهاء: ٤/ ١٠٣).

وعنه سلام الله عليه أيضاً: **أفضل ما يوضع في الميزان يوم القيامة الصلاة على محمد وعلى أهل بيته.** (قرب الإسناد: ١٤ ح٤٥).

وعن الإمام الرضا سلام الله عليه أنّه قال: **من لم يقدر على ما يكفّر به ذنوبه فليكثر من الصلاة على محمد وآله فإنّها تهدم الذنوب هدماً.** (الحدائق الناضرة: ٨/ ٤٧١).

كما ورد استحباب الصلوات على محمد وآله في أوّل الدعاء ووسطه وآخره؛ فعن الإمام الصادق سلام الله عليه أنّه قال: **من كانت له إلى الله عزّ وجلّ حاجة فليبدأ بالصلاة على محمد وآله ثمّ يسأل حاجته ثمّ يختم بالصلاة على محمد وآل محمد، فإنّ الله عزّ وجلّ أكرم من أن يقبل الطرفين ويدع الوسط إذ كانت الصلاة على محمد وآله لا تحجب عنه.** (الوسائل: ٧/ ٩٥ ح١١ الباب ٣٦، استحباب الصلاة على محمد وآله في أوّل الدعاء ووسطه وآخره).

ومع أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قد بيّن بنفسه الشريفة كيفية الصلاة عليه، وذلك بُعيد نزول قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا صَلّوا عَلَيهِ وَسَلِّمُوا تَسلِيماً﴾** (الأحزاب: ٥٦) حين سأله المسلمون: يا رسول الله قد علّمتنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ فقال: **قولوا اللهمّ صلّ على محمد وآل محمد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد** (ذكره العامّة في صحاحهم ومسانيدهم كافّة، فراجع).

كما أكّد صلى الله عليه وآله عليهم بعد ذلك بعدم بترها، أي الاكتفاء بالصلاة عليه منفرداً دون ذكر الآل؛ قال صلى الله عليه وآله: **لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء.** فقالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال: **تقولون اللهم صلّ على محمد وتسكتون، بل قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد.** (ذكره ابن حجر في صواعقه: ١٤٦ في الآيات النازلة في أهل البيت سلام الله عليهم الآية الثانية، والقندوزي في ينابيعه: ١/ ٣٧ رقم١٤ على ما رواه السمهودي في جواهر العقدين: ٢/ ١٥٥، والشعراني في كشف الغمة: ١/ ٢١٩، وغيرهم فراجع). =

أنّ من أسباب إجابة الله تعالى للدعاء أن يُفتتح بالصلاة على محمد وآله، كما في الحديث المتقدّم.

إذاً فهذا تعليم وإرشاد لنا من الإمام عليه السلام، وهو في الوقت نفسه وقبل أن يكون تعليماً، عمل من الإمام بالواقع الذي يعلمه ويعرفه.

= وقال صلّى الله عليه وآله: **من صلّى صلاةً ولم يصلّ فيها عليّ وعلى أهل بيتي لم تقبل منه**. (ذكره الدارقطني في علله: ٦/ ١٩٧ ح١٠٦٦ وسننه أيضاً: ١/ ٣٥٥ ح٦ وابن حجر في الدراية في تخريج أحاديث الهداية: ١/ ١٥٨ ح١٨٩، وابن الجوزي في التحقيق في أحاديث الخلاف: ١/ ٤٠٢ الحديث الثالث، والزيلعي في نصب الراية: ١/ ٤٢٧، والشوكاني في نيل الأوطار: ٢/ ٣٢٢ باب ما جاء في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وغيرهم).

وحذّرهم صلى الله عليه وآله من احتجاب دعاء العبد عن الله تعالى ما لم يصلّ فيه على محمّد وأهل بيته. (راجع ما ذكره السيوطي في الجامع الصغير: ١/ ٦٥٦، ح٤٢٦٦، والمناوي في شرحه فيض القدير: ٣/ ٧٢٥، ح٤٢٦٦، والمتقي الهندي في كنز العمال: ٢/ ٧٨، ح ٣٢١٥ والقاضي عياض في الشفاء بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وآله: ٢/ ٦٥ والهيثمي في مجمع الزوائد: ١٠/ ١٦٠ وغيرهم فراجع).

رغم هذا كلّه إلا أنّك تجد قسماً من المسلمين وللأسف الشديد لا يؤدّون الصلاة على النبي وآله هكذا كاملةً تامّة، كما أرشدهم لها صلى الله عليه وآله، ويصرّون على مخالفة أمره، فيؤدّونها بتراء، في حين يروون عنه صلى الله عليه وآله حديث النهي عن الصلاة البتراء فيقولون: قال صلى الله عليه وسلّم (!): **لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء**.

فليتدبّروا قول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّها الّذينَ آمَنوا لِمَ تَقُولُون ما لا تَفْعَلُون * كَبُرَ مقْتاً عِندَ اللّهِ أن تَقُولوا ما لا تَفْعَلُون﴾** (الصف: ٢ ـ ٣).

«المؤسّسة»

الدعاء والاستعانة بالله

بعد أن افتتح الإمام دعاءه بالصلاة على محمد وآله، انتقل عليه السلام إلى مقام سؤال حوائجه من الله تعالى مبتدئاً بهذه الكلمات الأربع: **(بلّغ بإيماني أكمل الإيمان)** أي أنا لا أستطيع الصعود والبلوغ بإيماني إلى أكمل الإيمان من دون عونك وتسديدك يا ربّ، وأنت الكفيل بذلك فأعنّي.

الإنسان بحاجة إلى تسديد الله دوماً

مهما بلغ الإنسان من المراتب العالية ـ سواء الدينية أو الدنيوية ـ فهو بحاجة إلى عون الله تعالى وتسديده.

حتى الذين توفّرت فيهم ملكة العدالة بأعلى درجاتها وأصدق معانيها، واجتنبوا في مقام العمل كلّ المحرّمات، وأتوا بكلّ الواجبات، وكان عندهم فوق ذلك كلّه ورع كامل، ليسوا بقادرين على النهوض والارتقاء من دون أن يعينهم الله تعالى على ذلك ويأخذ بأيديهم؛ لأنّ الشهوات المختلفة من شأنها أن تحول ـ ولو شيئاً ـ دون ذلك.

إنّ الإنسان محاطٌ بالشهوات شاء ذلك أم أبى، والتفت أم تغافل. فقد يتأمّل الإنسان فيلتفت إلى مختلف شهواته، وقد يغفل فلا يلتفت.

إنّ الله سبحانه وتعالى أودع فينا الشهوات لكي يختبرنا ويَميز الخبيث من الطيّب.

قد ينجح المرء في كبح بعض شهواته، كالمرتاضين الذين يحقّقون ذلك ببعض الممارسات، ولكن ماذا يفعل الإنسان حيال الشهوات التي لا تعدّ ولا تحصى؟ وإن استطاع الإنسان أن يخفّف من غلواء بعضها بالترويض والتمرين فإنّ هذا وحده لا يكون كفيلاً بكبح بعضها الآخر الذي يمكن أن يثقله ويشدّه إلى الأرض؛ وإليك مثالاً واحداً على تنوّع الشهوات وشدة ابتلاء الإنسان بها:

يقول بعض الفقهاء: إنّ الرياء قد يكون بترك الرياء!! مثلاً: قد يطيل شخص ركوعه وسجوده ويُحسن القراءة ويتظاهر بالخشوع بسبب وجود شخص آخر ملتفت إليه. فهذا هو الرياء المتعارف.

وقد يعمد إلى خلاف ذلك ـ إذا علم أنّ الملتفت إليه إنسان ذكيّ يعرِف من حاله فيما لو أطال وحسّن من ظاهر صلاته أنّها ليست صلاته العادية وأنّه يرائي فيها ـ فيأتي بصلاة عاديّة لكي لا يقول عنه الناظر إنّه مراء. وهذا هو المقصود من قولهم: إنّ الرياء قد يكون في ترك الرياء، أي في ترك التظاهر بالخشوع وما أشبه.

هكذا هو الحال في الشهوات فهي تحيط بنا من كلّ صوب وجانب. ولعلّ أكثر الناس يفهمون هذه الأمور جيداً وإن لم يستطيعوا التعبير عنها بشكل جيد.

إنّ مثَلنا في هذا الطريق مثَل الإنسان البدين أو الشخص الذي

يحمل أثقالاً كثيرة، فهو لا يستطيع تسلّق الجبال أو القفز والوثوب بسهولة، وربّما هوى وسط الطريق.

مهما كان الإنسان ذكياً وواعياً ونشطاً، مستوعباً لأطرافه وما يحيط به، غير أنّه لا يستطيع أن يصنع شيئاً مع ما عليه من ثقل الشهوات ـ وهو ثقل واقعي غالباً ما يحول دون الإنسان ورقيّه ـ ما لم يُعنْه الله تعالى ويأخذ بيده، وهذا بحاجة إلى الدعاء؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ﴾[١]. والإمام السجّاد عليه السلام يرشدنا في هذا الدعاء ويعلّمنا أن نطلب من الله تعالى أن يأخذ بأيدينا ليبلغ بنا أكمل الإيمان.

لزوم العمل إلى جنب الدعاء

قد يجري الإنسان ألفاظ الدعاء على لسانه فقط، فيكون دعاؤه سطحياً. وقد ينطلق الدعاء من أعماقه، وهذا أفضل من الأول بلاشكّ، ولكنّه أيضاً لا يكفي، بل لا بدّ أن يكون إلى جانب الدعاء والخشوع سعي من قبل الإنسان نفسه لتحصيل ما يطلب من الله مستفيداً مما أعدّه الله سبحانه وتعالى للعباد، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر.[٢]

الأدب في الدعاء

ثمّ إنّ هاهنا نكتة مهمة تتطلّب المزيد من الالتفات، وهي أن يهتمّ

(١) الفرقان: ٧٧ .

(٢) الدعوات: ١٩ ح١١.

الإنسان بجمال العبارة وصياغتها وصبّها في وعاء جميل؛ فإنّ الإمام لم يغفل عن هذا الجانب حتى حين يدعو الله سبحانه وتعالى، بل ثمّة نكات لغوية نجدها في كلمات الإمام سلام الله عليه ذات آفاق فوق الإدراك المتعارف، ولكنّا نشير إلى نكتة واحدة فيها وهي البلاغة والبراعة في استعمال الألفاظ؛ فالإمام لم يقل مثلاً: «وبلّغ بإيماني أكمل الإيمان وبيقيني إلى أكمل اليقين وبنيتي إلى أكمل النيات وبعملي إلى أكمل الأعمال» بل أبدل الفعل في كلّ جملة كما أبدل صيغة التفضيل فيها، فاستعمل سلام الله عليه من الأفعال: (اجعل، انته)، ومن صيغ التفضيل: (أفضل، وأحسن) ولم يقتصر على «بلّغ» و «أكمل» في باقي الجمل.

صحيح أنّ هناك واقعيّة وراء هذه التعابير والألفاظ، ولكن في التغيير تجميل للعبارة أيضاً، والجمال في كلّ أمر محمود، كما روي عن الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّه قال: «**إنّ الله جميل يحبّ الجمال**»[1].

إنّ الإمام في حالة دعاء وتضرّع ومناجاة مع الله تعالى. إنّه في حالة سؤال وطلب من الربّ الجليل، وليس في مقام الحديث مع الناس، ومع ذلك نراه لم يغفل هذا الجانب، بل أولاه الأهمية أيضاً، فهو يغيّر التعبير ويقلّل من التكرار لملاحظة تستوجب ذلك، فلم يكرّر مثلاً كلمة «بلغ» أو «الكمال» بل استعمل المترادفات مع ملاحظة الفروق الدقيقة بينها؛ الأمر الذي يدلّ على أنّ المطلوب من الإنسان الداعي أن يصبّ دعاءه في قوالب جميلة حينما يسأل الله تعالى.

---

(١) الكافي: ٦ / ٤٣٨ ، باب التجمل وإظهار النعمة.

العلاقة بين الإيمان واليقين والنية والعمل

ثمّة نقطة أخرى تجدر الإشارة إليها قبل التعرّض إلى جمل هذه الفقرة والترابط فيما بينها، وهي أنّه ليس كلّ من كان قريباً من النور يمكن أن يستفيد منه، ما لم يكن أهلاً للاستفادة، كما هو الحال في القريب من البحر الفرات فإمّا أن ينهل من درره وعطاياه ويرتوي من عذب مائه أو يغرق فيه ويكون من الهالكين.

وهكذا هو الحال فيمن كانوا قريبين من أهل البيت سلام الله عليهم والذين عاشوا في عصرهم، حيث قُيّض لكثير منهم أن غنم وفاز في الدارين، حتى جاء في بعضهم المدح والدعاء عن المعصوم بينما تاه البعض الآخر في ضلالته وتردّى في غوايته رغم أنّه كان قريباً من المعصوم أو معاصراً له.

ونحن اليوم عندما نقرأ أدعيتهم عليهم السلام ونستلهم العبر من أقوالهم، فهذا يعني أنّنا قريبون منهم، وإن كنّا لا نرى أشخاصهم ونعيش في غير عصرهم، أمّا من لم يطّلع على أدعيتهم ولم ينهل من معين علومهم، فليس بمستوى أن يوفّق إلى الخير لأنه لم يتعرّف عليهم ولم يعرف قدرهم وعظمتهم التي يقصر البيان عن وصفها.

ففي هذه الفقرة من دعاء مكارم الأخلاق وحدها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ يكمن مفتاح كلّ خير؛ فالإمام يطلب من الله تعالى من الإيمان أكمله، ومن اليقين أفضله، ومن النيّات والأعمال أحسنها، ولاشكّ أنّ هذه الخصال صنعت عظماء كأبي ذر وسلمان وحبيب بن مظاهر والشيخ المفيد والسيّد بحر العلوم والمقدّس الأردبيلي وأمثالهم.

بعد هذه المقدّمة نقول:

لعلّ هذا الترتيب الوارد في هذه الفقرة من دعاء الإمام عليه السلام (الإيمان، اليقين، النيّة الحسنة ثمّ العمل الحسن) يبيّن نوعاً من التسبيب الخارجي الواقعي. فبنسبة درجات الإيمان يكون المجال مفتوحاً أمام النسبة المناسبة من اليقين، وبنسبة درجات اليقين يكون المجال مفتوحاً أمام النسبة المناسبة من النيّة الحسنة، وبنسبة درجات النيّة الحسنة يكون المجال مفتوحاً للنسبة المناسبة من العمل الحسن.

ومن دون اكتمال هذه الحلقات الأربع لا يتحقّق التكامل. فالإيمان وحده غير كاف بل لابدّ له من اليقين، واليقين وحده غير مجد من دون النيّة الحسنة، والنيّة الحسنة لا معنى لها إن لم تترجم إلى عملٍ حسن. فهذه العناصر الأربعة تكمل بعضها بعضاً ويدعو بعضها لبعض. فالإيمان يدعو إلى اليقين، واليقين يدعو إلى النيّة الحسنة، والنيّة الحسنة تدعو إلى العمل الحسن. ولكن حيث إنّ هناك جواذب ومؤثّرات ضخمة وقويّة تثقل من حركة الإنسان نحو التكامل وتبطئه، اقتضى الأمر أن يُعمل الإنسان كلّ قدراته وطاقاته من أجل أن يجمع بين هذه العناصر كلّها.

ومن هنا يمكن أن نفهم موقف مسلم بن عقيل رضوان الله عليه وعدم إقدامه عندما عُرض عليه أن يفتك بابن زياد، مبيّناً ذلك بقوله: لحديث حدّثنيه الناس عن النبي صلى الله عليه وآله: أنّ «**الإيمان قيّد الفتك**»[1].

وعلى النقيض من ذلك ما حكاه الكتاب العزيز عن بعض الكافرين

---

(١) راجع مقاتل الطالبيين: ٦٥.

الذين لم يردعهم يقينهم عن الجحود والإنكار للحقّ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾[1]، وهو ما يعني أنّ يقين بعض الكافرين في أمر مّا قد يفوق يقين بعض المؤمنين، ولكنّهم يجحدونه، فلا يعملون به، ومن ثمّ فلا قيمة ليقينهم هذا.

ولا ينصرف لذهن أحد منكم أنّ اليقين المشار إليه في الآية الكريمة إنّما هو مجاز. بل هي كلمة مستعملة في معناها الحقيقي، ولكنّه يقين أبتر لا يتبعه نيّة ولا عمل، ولذلك يؤول إلى الجحود والكفر.

إنّ العلاقة بين العناصر الواردة في هذه الفقرة من الدعاء تشبه ما يصطلح عليه أهل العلم بالعلاقة بين أجزاء المركب الارتباطي[2]؛ أي بعضها مرتبط ببعض. فإذا فُقد جزء منها فُقد الكلّ، وإذا عرض لبعضها مانع فكأنّما عرض للكلّ. فإذا وجدت في النفس نيّة صدّقتها الجوارح، ويكون التصديق هذا متناسباً مع النيّة قوّة وضعفاً.

ولتقريب المطلب أذكر هذا المثال:

أتذكر مولّدة الكهرباء القديمة في مدينة سامراء ـ وفّقنا الله جميعاً لزيارة مشاهد الأئمة سلام الله عليهم فيها وفي غيرها ـ وكيف أنّها كانت ضعيفة، فكان الزوّار الذين يفدون إلى سامراء لا يشاهدون حتى المنارة أثناء الليل، وكانوا يقولون عن المصابيح التي تعمل على هذه المولّدة إنّها لا تُري إلا نفسها!!

---

(١) النمل: ١٤.

(٢) ما لا يمكن التفكيك بين أجزائه في الامتثال. مثاله: الصلاة؛ خلافاً لأجزاء المركّب غير الارتباطي كالحقوق المختلفة في ذمّة الشخص، فسقوط بعضها بالأداء يبرئ ذمّته في المورد.

فكلّما كانت المولّدة قوية كانت الإضاءة الصادرة منها مثلها، أمّا إذا كانت ضعيفة فلا يمكن أن نتوقّع منها إلا النور الضعيف الذي لا يكاد يبين ما حوله.

وهكذا الحال بالنسبة لانعكاس الإيمان والحالات النفسية للإنسان على أعماله وتصرّفاته. فذو النفس الكريمة لا تبخل يده، ومن كان شجاع النفس لا يصفرّ وجهه، وصاحب اليقين لا تحطّم المشكلات أعصابه، ومن كانت نيّـته خالصة لله لا يعير لمدح الناس أو ذمّهم أدنى أهمّية.

ولئن خفيت عنّا بعض الآثار فإنّها لا تخفى على الله تعالى فإنّه يعلم ما في نفوسنا، كما يعلم كلٌّ منّا ما في نفسه؛ ﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[1].

(١) القيامة: ١٤ و١٥.

أكمل الإيمان

إنّ الإمام سلام الله عليه لم يستعمل كلمة «أبلغ» بل قال: «بلِّغ». ومن الواضح أنّ هذه الصيغة يستفاد منها معنى التدرّج الذي يدلّ على أنّ التغيّر لا يحصل دفعة واحدة ـ وإن كانت المراتب تختلف من شخص لآخر ـ بل الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«الخير عادة»**[1].

روي عن الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّه قال: **«إذا صعدت روح المؤمن إلى السماء تعجّبت الملائكة وقالت: عجباً كيف نجا من دار فسد فيها خيارنا؟!»**[2].

وهذا معناه أنّ المؤمن عملة نادرة. فالفرد كلّما حاول أن يصبح إنساناً جيّداً واجهته صعوبات كثيرة تحاول أن تثنيه، وربما أثنته. وليس ذلك لضعف في عطاء الله تعالى، بل لتقصير من جانب الإنسان نفسه؛ فإنّ شهواته قد تبلغ من الكثرة والقوّة ما تتطلّب جهداً إضافياً للسيطرة عليها. ونيلُ المعنويات والتغلّب على الشهوات يتطلّبان دائماً قوّة أكثر

---

(١) عدّة الداعي: ١٩٣.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ١٣٦ الفصل الحادي عشر من الباب الأوّل.

وعزماً أكبر مما هو مطلوب في سبيل نيل الشهوات، ولذلك ترى الناس عادة ما يبلغون المقصود في تحقيق شهواتهم أكثر مما يبلغون في كسب المعنويات.

فكما أنّه لا خلاف في صعوبة الالتزام بالمعنويات، فكذلك لا خلاف في أنّه كلّما أراد الإنسان أن يحتلّ مساحة أوسع من المعنويات كلّفه ذلك جهداً أكبر، حاله في ذلك حال من يريد الحصول على مساحة أوسع في المادّيات؛ فإنّ ذلك يتطّلب منه بذلاً أكثر. فمثلاً: تكون كلفة شراء بيت سعته ألف متر، أكثر مما هو مطلوب لبيت مساحته مئة متر فقط.

وإذا عرفنا أنّ الشهوات المحيطة بالإنسان كثيرة جدّاً، أدركنا مدى صعوبة صراعه مع المغريات التي يمكن أن تجذبه لتحول دون ارتقائه سلّم المعنويات التي من خلالها يروم الوصول إلى أكمل الإيمان. ولهذا نرى المؤمنين في تفاوت بدرجات الإيمان كما جاء في قوله تعالى:﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللّهِ﴾[1].

رُوي عن أبي عمرو الزبيري أنّه قال: قلت للإمام الصادق عليه السلام: إنّ للإيمان درجات ومنازل يتفاضل المؤمنون فيها عند الله؟ قال: «نعم»[2].

إنّه لفوز عظيم أن يبلّغ الله تعالى بإيماننا أكمل الإيمان ولو في آخر ساعة من العمر، فنكون ممن حباهم الله تعالى بحسن العاقبة.

وفيما يلي نذكر نماذج من الذين سعوا للإيمان الكامل:

---

(١) آل عمران: ١٦٣.

(٢) راجع الكافي: ٢ / ٤٠ ح١ باب السبق إلى الإيمان.

• صهر الأمير ـ الميرداماد ـ

يُنقل أنّ بنت الأمير ـ في إحدى مدن إيران ـ كانت عائدة إلى بيتها في وقت متأخّر من ليلة شاتية، إذ صادفت في طريقها مدرسة دينية، ففكّرت أن تلجأ إليها حتى الصباح، طلباً للأمان، ولم يكن في المدرسة في تلك الليلة إلا طالب علم أعزب ينام في إحدى الغرف وحيداً فريداً. فلما طرقت الباب فوجئ الطالب بشابّة تطلب اللجوء في المبيت عنده حتى الصباح[1]؛ فأدخلها الطالب حينئذ حجرته على وجل! ونامت آمنة مطمئنة حتى الصباح، ثمّ غادرت إلى بيت أبيها الأمير.

عندما سألها أبوها الأمير عن مكان مبيتها ليلة أمس حكت له القصّة. فشكّ الأمير وأرسل خلف طالب العلم ليستوضح الأمر، فتبيّن له بعد ذلك أنّ هذا الطالب منعه تقواه من أن يتكلّم معها فضلاً عن أن يدنو منها أو غير ذلك!

وعندما أراد الأمير أن يشكر الطالب اكتشف أنّ إحدى أصابعه قد أُحرقت حديثاً، فسأله عن السبب فقال: تعلم أنّي شابّ وأعزب، واتّفق أن نامت في غرفتي ابنتك وهي امرأة شابّة ولم يكن معنا أحد غيرنا، فأخذ الشيطان يوسوس لي، فخفت أن أفشل في مقاومته، فكانت في غرفتي شعلة نفطية، فبدأتُ أقرّب إصبعي من النار كلّما وسوس لي الشيطان ـ وقديماً قيل: والجرح يُسكنه الذي هو آلم ـ فصرتُ أسكّن ألم الشهوة بألم الاحتراق، وبقيت هكذا إلى الصباح حتى نجّاني الله من

(١) الأمر الذي يظهر مدى اطمئنانها إليه لكونه طالباً في مدرسة دينية، وهذا يكشف عن عظم مسؤولية علماء وطلبة العلوم الدينية، لأنّ الناس يضعون فيهم كامل ثقتهم ولا يحتملون صدور الخطيئة منهم.

الوقوع في فخّ الشيطان وما توسوس به النفس الأمّارة بالسوء.

وعندما سمعت الفتاة ذلك قالت: هو كذلك، لأنّي كنت أشمّ رائحة شواء، ولم أكن أعلم أنّ هذا المسكين إنّما كان يشوي إصبعه!

وقيل: إنّ الأمير زوّجها إياه بعد ذلك لما رأى من جلَده وتقواه.

وهذا الشابّ هو أحد علمائنا الأعلام الذي عرف فيما بعد بـ «ميرداماد» أي صهر الأمير.

• الشيخ الأنصاري والشيخ خنفر رحمهما الله

كان الشيخ الأنصاري رحمه الله[١] طالب علم ثمّ أصبح مدرّساً فمرجعاً عامّاً للتقليد يرجع إليه الملايين من المسلمين وتجبى إليه الأموال الكثيرة، وعندما مات لم تزد تركته على سبعة عشر توماناً مع أنّه كان يعيل زوجة وأطفالاً وكذلك أمّه التي كانت تعيش معه، كما كان يأتيه الضيوف من كلّ مكان.

وكان يعاصر الشيخ الأنصاري عالم جليل القدر يدعى الشيخ محسن خنفر، وكان رحمه الله أكبر سنّاً منه وإن كان دونه في المنزلة العلمية.

مرض (الشيخ خنفر) أخريات أيّام حياته مرضاً ألزمه داره، فأُخبر الشيخ الأنصاري بذلك؛ فتألّم ودعا له، ولما أعوز الشيخ خنفر بعض

---

(١) هو الشيخ مرتضى بن الشيخ محمد أمين بن الشيخ مرتضى بن الشيخ شمس الدين التستري، الدزفولي، الأنصاري (١٢١٤ - ١٢٨١ هـ). يرجع نسبه الى الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري. فقيه، أصولي . وُلد بدزفول، وتوفّي بالنجف الأشرف في ١٨ جمادى الثانية. من آثاره: كتاب في أصول الفقه ويعرف بالرسائل، كتاب في المتاجرة ويعرف بالمكاسب، كتاب في الطهارة، كتاب في الصلاة، كتاب في النكاح، إلى غير ذلك.

المال أرسل له الشيخ الأنصاري كيساً من الذهب ـ وكانت عمدة الأموال يومئذ الذهب والفضّة، وكانت تجبى في أكياس ـ لكي يأخذ حاجته منه.

وفعلاً فإنّ الشيخ خنفر لم يكن ليأخذ أكثر من دينار وثلاثة أرباع الدينار ـ أي مثقالاً من الذهب وثلاثة أرباع المثقال ـ ثمّ أرجع الباقي وقال: أبلغوا شكري للشيخ مرتضى وأخبروه أنّني أخذت كفايتي!

وعندما توفّي الشيخ خنفر بعد مدّة وجيزة تبيّن أنّ ما أخذه كان فعلاً بمقدار حاجته لما تبقّى من حياته[1].

فإذا كانت كلّ تلك الأموال الضخمة ترد على الشيخ الأنصاري ولكنّه لم يترك أكثر من سبعة عشر توماناً، وأنّ الشيخ خنفر قد اكتفى بما يسدّ عوزه، أفلا يعني هذا أنّهما رحمهما الله تعالى قد ارتقيا درجات رفيعة في سلّم أكمل الإيمان؟

لاشكّ أنّ هذا يتطلّب عملاً كبيراً يسبقه عزم أكيد وتوكّل على الله، لأنّ المغريات والشهوات ليست بالقليلة، ومنها شهوة المال والاكتناز، والرئاسة والحكم، والتفوّق والغرور، والجهل والتظاهر بالعلم[2] و...

إذاً فلنتوجّه إلى الله تعالى ونطلب منه أن يبلّغ بإيماننا أكمل الإيمان،

---

(١) هذه القصّة موجودة في «أعيان الشيعة» وفي «أعلام الشيعة»، وتعود إلى أيام الشيخ الأنصاري رحمه الله أي لما قبل زهاء مئة وأربعين سنة.

(٢) قد يحتّم على الإنسان أحياناً أن يُظهر علمه ولا يجوز له السكوت؛ عملاً بتكليفه الشرعي، خصوصاً إذا ما استشرت البدع في الناس وطغى الباطل ومحق الدين؛ فقد روي عن الصادقين عليهما السلام أنّهما قالا: **إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يظهر علمه، فإن لم يفعل سُلب نور الإيمان** (وسائل الشيعة: ١٦/ ٢٧١، ح٩) ولا كلام في هذا، ولكن ما أكثر الحالات التي ليس فيها وجوب ولكن الفرد لا يستطيع أن يملك نفسه عن التحدّث رغبةً في إظهار ما يملك من معلومات؟!

وأن نتعظ بالعلماء الأتقياء؛ فإنّهم لم يبلغوا تلك المرتبة الرفيعة دفعة واحدة، بل ـ على القاعدة ـ هُم أيضاً طلبوا أن يبلّغ الله بإيمانهم إلى الكمال، فأعانهم الله تعالى وأخذ بأيديهم، بعد أن استوفوا شروط ذلك في الورع والتقوى والاجتهاد، فهو سبحانه «باسط اليدين بالعطية»[١].

فإذا كان الله لا يمنعنا عطاءه، وخلقنا ليرحمنا[٢] لا ليمنعنا، فلماذا لا نسعى ونهتمّ قليلاً ثمّ نضاعف سعينا لكي يشملنا فيض الله تعالى ونكون من الذين بلّغ بإيمانهم أكمل الإيمان؟ وأوّل شروط الإيمان الكامل هو الالتزام بالواجبات والكفّ عن المحرّمات.

تعلّم علوم أهل البيت عليهم السلام من شروط الإيمان الكامل

• روي عن أبي الصلت[٣] أنّه قال: سمعت أبا الحسن علي بن موسى

---

(١) انظر مصباح الكفعمي: ٦٤٧ فصل ٤٦.

أقول: إنّ هذه الكلمات قد عبّرت عن كرم الله تعالى بما لم أره في غيرها من الكلمات. فإن اليد تمثّل رمزاً لإظهار جملة من مصاديق القدرة عند الإنسان، ففيها مثلاً تتجلّى قدرته في المنع والإعطاء، والبطش والكفّ وغير ذلك، والأدعية والخطابات الدينية لمّا كانت موجّهة للبشر فهي تراعي وتحاكي حالاتهم وأفهامهم؛ فكأنّ المعنى ـ في عبارة: يا باسط اليدين بالعطية ـ أن كلّ قدرة الله تعالى هي في الإعطاء، المراد منه غايته لا مبدأه وكما قيل عن المعاني في المقام: «خذ الغايات واترك المبادي».

(٢) قال تعالى: ﴿إلاّ من رحم ربّك ولذلك خلقهم﴾ أي ليرحمهم.

(٣) أبو الصلت، عبد السلام بن صالح الهروي ـ نسبة إلى هراة من مدن أفغانستان ـ خادم الإمام الرضا سلام الله عليه ومن الرواة الثقات، وثّقه عامة رجاليي الشيعة وبعض رجاليّي العامّة، منهم: عمر بن شاهين في كتابه تاريخ أسماء الثقات: ١٥٦ رقم ٨٧٦ وما رواه البغدادي في تاريخه من توثيق يحيى بن معين لأبي الصلت. تاريخ بغداد: ١١/ ٥٠، ضمن ترجمة الهروي، كذلك في تهذيب الكمال: ١٨/ ٧٣ رقم ٣٤٢١ في ترجمته.

الرضا عليه السلام يقول: «رحم الله عبداً أحيى أمرنا». فقلت له: كيف يحيي أمركم؟ قال عليه السلام: «يتعلّم علومنا ويعلّمها الناس»[1].

وإذا كان علماء اللغة والأدب يقولون: إنّ الجمع المضاف يفيد العموم، كان معنى العبارة: «يتعلم كلّ علومنا». وهذا الكلام موجّه بالدرجة الأولى لنا نحن طلاب العلم.

فكلّ من تتوفّر فيه شروط الاستطاعة يكون عليه لزاماً أن يتعلّم علوم أهل البيت سلام الله عليهم ليعلّمها الناس فيهتدوا بهديهم سلام الله عليهم.

● ينقل الشيخ شريف العلماء[2] في بعض دروسه مناقشات السيّد مهدي بحر العلوم رحمه الله مع بعض علماء اليهود والنصارى وكيفية إفحامه لهم. فإذا لم يكن عند السيّد بحر العلوم من علوم أهل البيت سلام الله عليهم فهل كان يتمكّن أن يناقش علماء اليهود والنصارى ويفحمهم.

فلنقتد بأهل البيت سلام الله عليهم ولنقتف آثارهم، ولنعمل بالواجبات ومن أهمّها تعلّم علومهم سلام الله عليهم وتعليمها للناس؛ عسى الله تعالى أن يأخذ بأيدينا إلى أكمل الإيمان ببركة محمد وآل محمد صلوات الله وسلامه عليهم.

---

(١) عيون أخبار الرضا: ٢٧٥/٢ ح٦٩ باب٢٨.

(٢) هو الشيخ محمد شريف المازندراني المتوفى سنة ١٢٤٥ هـ . أستاذ الشيخ الأنصاري، وقد أدرك السيد مهدي بحر العلوم رضوان الله عليه. كان يحضر درسه أكثر من ألف طالب. جواهر الكلام: ١ / ٩.



أحسن الأعمال

قال الإمام عليه السلام: «وَبَلِّغْ بإيماني أكمَلَ الإيمانِ، وَاجْعَلْ يَقيني أفْضَلَ اليَقينِ، وَانْتَهِ بِنِيَّتي إلى أحْسَنِ النِّيَّاتِ، وَبِعَمَلي إلى أحْسَنِ الأعْمَالِ».

لقد تحدّثنا في ما تقدّم عن أكمل الإيمان، وكان من المفروض أن يجري الحديث الآن عن أفضل اليقين وأحسن النيات ـ كما يقتضيه السياق ـ ولكن بما أنّنا سنتعرّض لموضوع النيّة واليقين عند قول الإمام في الجملة التالية: «اللّهُمَّ وَفِّرْ بِلُطْفِكَ نِيَّتي، وَصَحِّحْ بِما عِنْدَكَ يقيني، وَاسْتَصْلِحْ بقُدْرَتِكَ ما فسدَ مِنّي». لذا سنتناول الآن قوله سلام الله عليه: «وبعملي إلى أحْسَنِ الأعْمال»؛ لنرى ماذا يقصد الإمام ويعني بـ «أحسن الأعمال» التي ينبغي للمؤمن أن يطلبها من الله تعالى وأن يجعلها غاية عمله؟

من لباب النصائح

روى الحسين بن أبي العلا قال: خرجنا إلى مكّة نيف وعشرون رجلاً، فكنت أذبح لهم في كلّ منزل شاة، فلما أردت أن أدخل على أبي عبد الله عليه السلام قال لي: «يا حسين وتذلّ المؤمنين؟!» قلت: أعوذ بالله من

ذلك.

فقال عليه السلام: «بلغني أنّك كنت تذبح لهم في كلّ منزل شاة؟!»

قلت: ما أردت إلا الله.

فقال: «أما كنت ترى أنّ فيهم من يحبّ أن يفعل فعالك فلا يبلغ مقدرته ذلك فتتقاصر إليه نفسه».

قلت: أستغفر الله ولا أعود[١].

وهذا العمل كما هو واضح لا إشكال فيه ولا شبهة، ولولا بقية الرواية لقلنا إنّه من أفضل الأعمال وأحسنها. فما أفضل إطعام المؤمنين وهم في طريق الحجّ إلى بيت الله الحرام؟! إذا كان الإطعام في حدّ ذاته عملاً مستحبّاً فكيف بإطعام المؤمنين؟ وكيف إذا كانوا في طاعة الله تعالى؟

إنّ الحسين بن أبي العلاء لم يكن إنساناً عادياً بل كان قريباً من نور الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، وكان يريد بعمله وجه الله تعالى، كما يظهر من جوابه للإمام سلام الله عليه. وعدمُ إنكار الإمام لصنيعه والاكتفاء بعتابه يدلّ على صدق نيّته[٢].

لقد أراد الإمام من هذه النصيحة أن يلفت نظر الحسين بن أبي

---

(١) المحاسن: ٢ / ٣٥٩، ح ٨٠.

الرواية صحيحة إن اعتبرنا الحسين بن أبي العلاء ثقة، كما ليس بالبعيد، وإن كان محلّ كلام بين علماء الرجال، ولكنّه بلا شك من خيرة أصحاب الإمامين الباقر والصادق سلام الله عليهما.

(٢) من المعروف عن الأئمّة سلام الله عليهم أنّهم لا يذكرون النصائح الحسّاسة لعامّة الناس أو إلى الذين لا يتحمّلونها، الأمر الذي يفرض علينا ـ نحن الشيعة وأهل العلم خاصّة ـ أن ننتبه أكثر من غيرنا ونتأمّل في كلمات المعصومين سلام الله عليهم.

العلاء إلى ما ينبغي له وهو أن يتحرّى «أحسن الأعمال» وأن يعلم أنّ بلوغه لذلك يتطلّب وعياً دقيقاً وعوناً من الله تعالى.

فمع أنّ الإطعام الذي قام به كان عملاً حسناً، خاصّة وأنّه كان لله تعالى، ولكنّه في الوقت نفسه لم يكن أحسن الأعمال؛ كما وضّحه الإمام بقوله: «أما كنت ترى أنّ فيهم من يحبّ أن يفعل فعلك فلا يبلغ مقدرته ذلك فتتقاصر إليه نفسه». فربما كان في هؤلاء الذين تطعمهم من يحبّ أن يفعل الشيء ذاته، أي يقوم هو بإطعام المجموع ولو مرّة واحدة، كما تقوم أنت بذلك، لمكان الفعل ومحبوبيّته، ولكن لم تكن لديه القدرة المالية على ذلك، فيحسّ حينئذ بالضعف أو الضعة أو شيء من الذلّ.

لا شكّ أنّ ما كان من فعل الحسين بن أبي العلاء لم يكن من الإذلال المقصود، وإلا ردعه الإمام ونهاه. ثمّ إنّ الإمام ههنا ليس في مقام النهي عن منكرما بقدر ما هو بصدد الإرشاد إلى أحسن الأعمال، فكان الأولى بالمنفق هنا أن يلتفت إلى هذه النكتة الدقيقة التي أشار إليها الإمام ويعالجها بطريقة ذكية كأن لا يُظهر أنّ الإطعام كلّه منه.

وهذا يعدّ من لباب النصائح، وقل من يتحمّلها إلا من أوتي حظّاً من العلم والأخلاق. ولذلك نلاحظ أنّ الحسين بن أبي العلاء أدرك مقصود الإمام فوراً وقال: «أستغفر الله ولا أعود» أي سوف أكفّ عن الإطعام بنحو يشعر الآخرين بشيء من القصور أو الإذلال، وما أشبه.

حقّاً لولا أهل البيت سلام الله عليهم لما عُبد الله حقّ عبادته، كما روي عن الإمام الصادق سلام الله عليه: «لولانا ما عُبد الله»[١].

(١) الكافي: ١ / ١٩٣ ح ٦.

فلنتوقّف قليلاً ونحاسب أنفسنا قبل أن نحاسَب[1] فقد روي عن الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام قوله: «ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كلّ يوم؛ فإن عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيّئاً استغفر الله منه وتاب إليه»[2] ولنعتبر بقصص المسترشدين؛ ومنها القصة التالية:

توبة أحد كتّاب بني أميّة

عَنْ عَبْد اللَّه بْن حَمَّاد عَنْ عَليٍّ بْنِ أَبِي حَمْزَةَ قَالَ: كَانَ لي صَديقٌ منْ كُتَّاب بَني أُمَيَّةَ فَقَالَ لي: اسْتَأْذن لي على أَبي عَبْد اللَّه عليه السلام. فَاسْتَأْذَنْتُ لَهُ عَلَيْه، فَأَذنَ لَهُ. فَلَمَّا أَنْ دخل سَلَّمَ وَجَلَسَ ثُمَّ قَالَ: جُعلْتُ فداكَ إنِّي كُنْتُ في ديوان هؤلاء القَوم فَأَصَبْتُ منْ دُنياهُمْ مَالاً كَثيراً وَأَغْمَضْتُ في مَطَالبه فَقَالَ أَبو عَبْد الله سلام الله عليه : «لولا أنّ بني أميَّة وَجَدوا مَنْ يَكْتُبُ لَهُمْ وَيَجبي لَهُمُ الْفَيْءَ وَيُقَاتلُ عَنْهُمْ وَيَشْهَدُ جَمَاعَتَهُمْ لما سَلبونا حَقَّنا، وَلو تَرَكَهُمُ النَّاسُ وَمَا في أيْديهمْ ما وجدوا شَيْئاً إلا ما وقَعَ في أيْديهمْ».

قَالَ: فقَالَ الْفَتَى: جُعلتُ فداكَ فهل لي مَخْرَجٌ منْه؟ قَالَ: «إن قُلْتُ لك تفْعلُ؟» قَالَ: أَفْعَلُ. قَالَ لَهُ: «فَاخْرُجْ منْ جميع مَا اكْتَسَبْتَ في ديوانهمْ؛ فَمَنْ عَرَفْتَ منهُمْ رَدَدْتَ عَليه مالَهُ، وَمَنْ لَمْ تَعْرفْ تَصَدَّقْتَ به، وَأَنَا أَضْمَنُ لَكَ عَلَى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ الجنَّةَ».

قَالَ: فَأَطْرَقَ الْفَتَى رَأْسَهُ طَويلاً ثُمَّ قَالَ له: قَدْ فَعَلْتُ جُعلتُ فداكَ.

---

(١) كما في الحديث: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا. انظر وسائل الشيعة: ١٦/ ٩٩ ح ٩.

(٢) الكافي: ٢ / ٤٥٣ ح ٢.

قَالَ ابْنُ أَبي حَمْزَةَ: فَرَجَعَ الْفَتَى مَعَنا إلى الْكُوفَة فَمَا تَرَكَ شَيْئاً عَلَى وَجْه الأَرْض إلا خَرَجَ منْهُ حَتَّى ثيابه الَّتي كَانَتْ عَلَى بَدَنه.

قَالَ: فَقَسَمْتُ لَهُ قسْمَةً وَاشْتَرَيْنَا لَهُ ثيَاباً وَبَعَثْنَا إلَيْه بنَفَقَة. قَالَ: فَمَا أَتَى عَلَيْه إلا أَشْهُرٌ قَلائلُ حَتَّى مَرضَ، فَكُنَّا نَعُودُهُ...[1].

ومعنى قول الرجل «وأغمضت في مطالبه» أي لم أتحرّ أصله أمن حلال أم حرام.

وهذا الإغماض هو أحد مصاديق الزلل التي يمكن أن يتعرّض لها كلّ إنسان، وقد يكون في العلم أيضاً كما لو احتال المدرّس ولم يعط الدرس حقّه أو لم يتثبّت فيما يلقيه على الطلبة فيتحدّث بشيء لا يعرفه أو لا يتقنه، وهكذا الحال بالنسبة للطالب إن لم يَستوفِ المباحثة حقّها، وكذا غيره.

وهذا الفتى عندما قال له الإمام: «تخرج من كلّ مالك» أدرك أنّ هذه الكلمة حقيقة وليست مجازاً، ولذلك «أطرق رأسه طويلاً ثمّ قال: قد فعلت». وعندما رجع إلى الكوفة خرج من كلّ أمواله حتى الثياب التي كانت عليه! ولذلك اشترى له أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ثياباً وأعطوها له مع بعض المال لكي يعيش، ثمّ مات بعد ذلك بفترة قصيرة!

والغريب أنّ الذي جاء بالرجل إلى الإمام الصادق سلام الله عليه وصار سبباً لتوبته هو علي بن أبي حمزة البطائني، وهو من أصحاب الإمام الصادق والإمام موسى بن جعفر سلام الله عليهما ومن وكلائهما ولكنّه انحرف بعد ذلك وكان أحد الثلاثة الذين أبدعوا مذهب الوقف!

---

(١) مدينة المعاجز: ٥ / ٣٠٧ ح ٦٥.

فيجدر مراجعة كتب السير؛ ففيها دواعي الاعتبار بحال أمثال هذين الرجلين، فذاك الذي كان عاملاً لبني أميّة كيف اهتدى، وهذا الذي كان من أصحاب الأئمة كيف انحرف!

إذاً علينا أن نلتفت إلى ما نعمل وأن لا يكون عملنا مصلحاً من جانب ومفسداً من جانب آخر، وعلينا أن نطرد الوساوس لأنّها من الشيطان، فلا نترك العمل الذي بدأناه بل نصلحه ونتقنه، وأن نستلهم في هذا الطريق كلّ الدروس والعبر ونستفيد من النصائح والحكم التي وصلتنا عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل البيت سلام الله عليهم.

وهذا الأمر بحاجة إلى قليل من الالتفات والتأمّل، فلا ندَع العمل ولا نندفع وراءه دون وعي، بل نكون ـ كما أرادنا الله تعالى ـ أمّة وسطاً.

وعلينا في كلّ حال أن لا نغفل عن حبائل الشيطان، الذي أجراه الله تعالى فينا مجرى الدم في العروق[1]، فلنكن منه ومن حبائله على حذر.

ما المقصود بأحسن الأعمال؟

لقد وُجّه هذا السؤال إلى الإمام زين العابدين عليه السلام كما وُجّه إلى سائر الأئمة المعصومين سلام الله عليهم فأجاب كلّ إمام بما يتناسب وظرف السؤال وطبيعته، ولربما أجاب أحدهم صلوات الله عليهم بأكثر من إجابة حسب الموقف والمناسبة التي تقتضيه. فمثلاً هناك روايات تقول: إنّ الصلاة أحسن الأعمال، وأخرى تقول: إنّ صلة الرحم أحسن الأعمال[2]. إذاً ما

(١) انظر عوالي اللآلي: ١/ ٢٧٣ ح٩٧.

(٢) روي أنّ رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أخبرني ما أفضل الأعمال؟ فقال: =

المقصود حقّاً بأحسن الأعمال؟ سيّما وأنّ كلمة «أعمال» وردت بصيغة الجمع المحلّى بالألف واللام وهي صيغة تفيد العموم، فيكون المقصود منها «كلّ الأعمال».

يَجمع الفقهاء عادةً بين روايات كهذه إمّا على المعنى الإضافي أي النسبي، أو على اعتبار درجات الحسن والتفاضل؛ لأنّ الأئمة سلام الله عليهم كانوا يجيبون أحياناً بمقتضى حال الشخص السائل، أي على نحو ما يصطلح عليه العلماء بالقضية الخارجية[1].

توضيح ذلك: الإجابات المختلفة عن أحسن الأعمال ـ في كلمات المعصومين سلام الله عليهم ـ إمّا أن تحمل على درجات الأفضلية المطلقة، وإمّا أن تحمل على الأفضلية النسبية، أي إنّ العمل الفلاني أحسن عمل بالنسبة لكذا موقف أو لفلان من الناس، والعمل الآخر أحسن بالنسبة لشخص آخر أو موقف آخر. وما أكثر الموارد المشابهة لذلك في الكتب الفقهية والتي عولجت بأحد هذين النحوين.

= **الإيمان بالله**. (فقه الرضا: ٣٧٦). وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: **أفضل الأعمال الصلاة لأوّل وقتها**. (جامع المقاصد: ٢ / ٢٥). وروي أيضاً: **أفضل الأعمال الحبّ في الله والبغض في الله**. (مشكاة الأنوار: ٢٢٢).

وأيضاً: أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس. مسكّن الفؤاد: ٤٧.

وروي عن الإمام الحسين بن علي عليهما السلام أنّه قال: صحّ عندي قول النبي صلى الله عليه وآله: **أفضل الأعمال بعد الصلاة إدخال السرور في قلب المؤمن بما لا إثم فيه**. (بحار الأنوار: ٤٤/ ١٩٤). وروي أيضاً: **أفضل الأعمال الصلاة على محمد وآله، وسقي الماء، وحبّ علي بن أبي طالب عليه السلام**. (مستدرك سفينة البحار: ٤ / ٢١).

(١) وهي عبارة عن ثبوت وصف أو حكم على شخص خاصّ بحيث لا يتعدّى ذلك الوصف إلى غيره وإن كان مماثلاً له في الأوصاف؛ إذ المناط فيها هو أن يكون الحكم وارداً على الأشخاص لا على العنوان الثابت في القضية الحقيقية.

العمل بالسنّة أحسن الأعمال

ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه قال: «إنّ أفضل الأعمال عند الله ما عُمل بالسنّة وإن قلّ»[١]، والمقصود بالسنّة هنا معناها الأعمّ وتشمل الفريضة، لأنّ السنّة قد تطلق ويراد بها معناها الأخصّ وهي ما يقابل الفريضة كما في كثير من المستحبّات، وقد تطلق ويراد بها المعنى الأعمّ فتشمل الفريضة. وهذا بحث علميّ استدلالي وله شواهد كثيرة.

فيكون معنى الحديث: إنّ على كلّ إنسان أن يعرف ما هي مسؤوليته الشرعية فيعمل بها، لأنّها هي أحسن الأعمال بالنسبة إليه.

فأفضل الأعمال بالنسبة لصاحب العيال شحيح المال هو الاكتساب الحلال للحصول على المال والإنفاق على من تجب عليه نفقتهم. وأفضل الأعمال لمن يرى العالَم منغمساً في الضلالة أن يبادر لتعلّم علوم أهل البيت سلام الله عليهم ويعلّمها الناس، كما في صحيحة عبد السلام بن صالح الهروي المذكورة سابقاً[٢].

وأفضل الأعمال للذي بينه وبين رحمه قطيعة أن يصلهم ويُحسن إليهم، ولا تكون صلاة الليل ـ مثلاً ـ أحسن الأعمال بالنسبة إليه؛ وهو قاطع لرحمه، وإن كانت حسنة في نفسها.

عندما يقال إنّ أفضل الأعمال صلة الرحم، فمعناه أنّ على الشخص الذي بينه وبين رحمه قطيعة أن يبادر لصلتها قبل القيام بأيّ عمل آخر، لأنّها أفضل عمل يطلبه الله تعالى منه، فهي أحسن من صلاة الليل ومن

---

(١) الكافي: ١ / ٧٠ ح٧.

(٢) راجع ص٣٠ -٣١ من الكتاب (موضوع: أكمل الإيمان).

الدراسة ومن قراءة القرآن ـ من باب الأولوية ـ وهذا معنى: «**أفضل الأعمال ما عُمل بالسنّة**».

فهذا الحديث المرويّ عن الإمام السجّاد سلام الله عليه يعدّ قرينة ودليلاً على أنّ التباين في الروايات المتعددة عن المعصومين سلام الله عليهم في تبيين أحسن الأعمال إنّما لأجل إختلاف القضايا الخارجيّة، وليس تبايناً حقيقيّاً.

وفيما نحن فيه ـ حيث يعلّمنا الإمام السجّاد سلام الله عليه أن نسأل الله تعالى ونطلب منه أن ينتهي بعملنا إلى أحسن الأعمال ـ يجب علينا أن نبحث في التزاماتنا التي ينبغي فعلها سواء كانت واجبة أو مستحبّة لمعرفة الأولوية فيها، لنضمن بعد ذاك الوصول الى أحسن الأعمال ونسعى إلى تحقيقها. فمن يحبّ شيئاً ويطلبه من الله تعالى لابدّ أن يسعى إليه، كما أنّ من يطلب معيشة أفضل يسعى نحوها؛ فمن عرف ـ مثلاً ـ أنّ الأجرة في مكان ما دينار وفي مكان آخر ديناران، لا يتردّد في الذهاب إلى المكان الثاني مادام يبحث عن أحسن مستوىً للدخل.

نماذج عملية

• لما دخل مسلم بن عقيل رضوان الله تعالى عليه الكوفة سكن في دار سالم بن المسيب فبايعه اثنا عشر ألف رجل. فلما دخل ابن زياد الكوفة انتقل مسلم من دار سالم إلى دار هاني في جوف الليل ودخل في أمانه، وكان يبايعه الناس حتى بايعه خمسة وعشرون ألف رجل.

فعزم على الخروج، فقال له هاني: لا تعجل. وكان شريك بن الأعور الهمداني جاء من البصرة مع عبيد الله بن زياد فمرض فنزل دار

هاني أيّاماً، ثمّ قال لمسلم: إنّ عبيد الله يعودني وإنّي مطاوله الحديث فاخرج إليه بسيفك فاقتله، وعلامتك أن أقول اسقوني ماء، ونهاه هاني عن ذلك فلما دخل عبيد الله على شريك وسأله عن وجعه وطال سؤاله ورأى أنّ أحداً لا يخرج فخشي أن يفوته فأخذ يقول:

ما الانتظار بسلمى أن تحيّوها حيّوا سليمى وحيّوا من يحييها

فتوهّم ابن زياد وخرج.

فلمّا خرج ابن زياد دخل مسلم والسيف في كفّه. فقال له شريك: ما منعك من قتله؟ قال: خصلتان أمّا إحداهما فكراهية هاني أن يُقتل في داره، وأمّا الأخرى فحديث حدّثنيه الناس عن النبي صلّى الله عليه وآله: «إنّ **الإيمان قيد الفتك، فلا يفتك مؤمن**»[1].

حقّاً ما أعظم هذه الكلمات الثلاث؟! أجل إنّها ثلاث كلمات فقط، ولكن الدنيا تزول في يوم ما، وتبقى هذه الكلمات خالدة.

فكما أنّ الإنسان المقيّد بالسلسلة لا يستطيع التصرّف بحريّة لأنّها تقيّده وتمنعه من الحركة فكذلك الإسلام يمنع الإنسان المؤمن من الفتك، فإذا فتك فذلك يعني أنّه قد تحرّر من الإسلام ولم يعد متقيّداً به.

وبهذا يكون مسلم رضوان الله عليه قد اتّخذ الموقف الأمثل الذي ينبغي له، أي عمل بما تقتضيه السنّة، فكان موقفه هذا أحسن الأعمال.

صحيح أنّ مسلماً قد فوّت فرصة سياسية ذهبية لقلب المعادلة لصالحه وصالح الإمام الحسين عليه السلام من الناحية المادّية والدنيوية -

---

(١) راجع مقاتل الطالبيين: ٦٤.

وإن لم تكن كذلك حسب المفهوم الإسلامي، لأنّ سياسة الغدر بعيدة عن روح الإسلام ـ إلاّ أنّه رضوان الله عليه لم يفوّت ما هو أعظم منها في الدارين؛ فتمسّك بما حفظه عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

فالغلبة المادّية من خلال الغدر والفتك ليس فيها بقاء لروح الإسلام الذي هو فوق المادّيات وتوابعها، وما عمله مسلم بن عقيل رضوان الله تعالى عليه كان عملاً بالسنّة وهو أحسن الأعمال.

• كما أنّ هناك رواية صحيحة السند، عن الحسن بن محبوب يقول: عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِنَا عَنْ أَبِي الصَّبَّاحِ الْكِنَانِيِّ قَالَ: قُلْتُ لأبي عَبْدِ الله عليه السلام: إنّ لنا جاراً من هَمْدَانَ يُقَالُ لَهُ الْجَعْدُ بْنُ عَبْدِ الله وهُوَ يَجْلِسُ إِلَيْنَا فَنَذْكُرُ عَلِيّاً أَمِيرَ الْمُؤْمنين عليه السلام وفَضْلَهُ فَيَقَعُ فيه، أَفَتَأْذَنُ لي فيه؟ قَال: فَقَال: «يَا أَبَا الصَّبَّاحِ أَوَ كُنْتَ فَاعِلاً؟» فَقُلْتُ: إي والله لَئِنْ أَذِنْتَ لي فيه لأرصُدَنَّهُ، فَإِذَا صَارَ فِيهَا اقْتَحَمْتُ عَلَيْه بِسَيْفِي فَخَبَطْتُهُ حَتَّى أَقْتُلَهُ. قَالَ: فَقَال: «يَا أَبَا الصَّبَّاحِ هَذَا الْفَتْكُ، وقَدْ نَهَى رَسُولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله عَنِ الْفَتْك، يَا أَبَا الصَّبَّاحِ إِنَّ الإسلامَ قَيَّدَ الْفَتْكَ»[1].

فالقتال والدفاع عن النفس والمبارزة في الميدان أمور مفهومة من قبل الإسلام، أمّا الغدر فلا يجوز أبداً. أجل إنّ الحرب خدعة والخدعة جائزة في الحرب، ولكن الغدر غير الخدعة. فالخدعة تصحّ والحرب قائمة، أمّا أن تقتل رجلاً جاء لزيارتك أو حضر مجلسك فهذا ليس من شيم الإسلام.

---

(١) تهذيب الأحكام: ١٠/ ٢١٤ ح ٥٠.

ويمكن تصوّر الخدعة أثناء الحرب كخلق أجواء خاصّة في صفوف العدوّ بالصراخ وغيره، كما حدث في حرب الجمل، عندما صاح الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه بأعلى صوته والحرب محتدمة: «**يا محمد بن أبي بكر، انظر إذا عرقب الجمل فأدرك أختك فوارها**»[1]، وكانت عائشة تقود الجيش المعادي؛ فتصوّروا أنّ عائشة إمّا سقطت وإمّا أوشكت على السقوط، فتفرّقوا عنها وانهزم الجيش. فهذه تسمّى خدعة، أمّا الغدر فهو أن تعطي الأمان لخصمك ثمّ تفتك به، وهذا ما لا يقرّه الإسلام.

صحيح أنّ ابن زياد كان من أشرّ الناس على أهل البيت سلام الله عليهم، ولكنه لم يأت إلى بيت هاني بصفته محارباً بل جاء عائداً؛ ولذلك لم يبادر مسلم لقتله غيلة، وهاهنا تكمن عظمة مسلم التي يقف حتى التاريخ إجلالاً لها.

• نقل أحد تلاميذ السيّد الوالد[2] رحمه الله قال: ذهبت يوماً إلى السيّد قبل الدرس، وقلت له: عندي سؤال مهم، وأرجو منكم أن تجيبوا عليه.

قال السيّد: تفضل، إسأل.

قلت: سيّدي، إذا علمتَ أنك ستفارق الدنيا بعد ساعة أو يوم، فماذا أنت فاعل خلال هذه المدّة القصيرة الباقية من عمرك؟

فأجابني السيّد على الفور ودون أدنى تأمّل ـ أي على خلاف عادته التي عُرف بها في أوساط المحيطين به، وهي أنّه لا يجيب على أيّ سؤال بسرعة بل كان يتأمّل ولو قليلاً ثمّ يجيب؛ الأمر الذي يكشف عن

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢ / ١٨٢، باب وقعة الجمل.

(٢) آية الله العظمى السيد مهدي الحسيني الشيرازي قدّس سرّه.

أنّه كان قد فكّر سابقاً في هذا الأمر، ولذلك كان جوابه حاضراً عنده ـ قائلاً: أعمل هذا الذي أنا مشغول به الآن - وكان جالساً يطالع كتاب «الجواهر» متهيّئاً لإلقاء الدرس ـ وكان الوقت قبيل وقت إلقاء درسه كما قلنا.

فقد يكون هذا هو أفضل الأعمال بالنسبة إلى مرجع تقليد، أعني مطالعة الأحكام الشرعية والتوفّر عليها ليتسنّى له الإجابة على أسئلة الناس واستفتاءاتهم، فضلاً عن تدريس الطلبة وتعليمهم، فهذه من الواجبات المهمّة، فيكون ما أجاب به رحمه الله هو العمل بالسنّة ـ أي العمل بالمسؤولية ـ وهو أفضل الأعمال كما يقول الإمام زين العابدين سلام الله عليه.

• كان محمد بن مسعود العياشي[1] أحد علماء العامّة، ألّف كتباً عديدة تأييداً لمذهبه، وكان الشيعة يومذاك أقلّية من ناحية العدد، ولكن كان هناك شباب من علماء الشيعة الذين لم يذكرهم التاريخ ـ والذين سيُكشف عنهم حتماً وعن دورهم في يوم القيامة- استطاعوا أن يغيّروا فكر العياشي ويحوّلوه عن مذهبه ويجعلوه شيعياً من أتباع أهل البيت سلام الله عليهم، حتى ذكر أصحاب السير والتراجم أنّ مسعود العياشي (الأب) كان من التجّار الكبار وورث منه ابنه محمّد هذا ثلاثمئة ألف دينار ـ أي أكثر من طنّ من الذهب ـ أنفقها كلّها في سبيل العلم ونشر مذهب أهل البيت سلام الله عليهم.

---

(١) محمد بن مسعود العياشي من علماء الطائفة المعروفين، عاش في بغداد وتوفّي عام ٣٢٠ هـ وكان ممن عاصر الشيخ الكليني فيكون بذلك من المعاصرين لفترة الغيبة الصغرى حتى قريب انصرامها عام ٣٢٩ هـ حيث بدأت الغيبة الكبرى.

لاشكّ أنّ الشخص الذي كان وراء تغيير عقيدة العيّاشي قد عمل بأحسن الأعمال حين استطاع أن يغيّر عالماً ويهديه، مع أنّ العالم لايتغيّر بسهولة، فليس هو كالإنسان العادي يتغيّر في جلسة أوجلستين، مضافاً إلى أنّ تغيير العالِم يعني تغيير العالَم، لأنّ العالِم اذا صلح، صلح العالَم. أفلا يكون تغيير العيّاشي وأمثاله من أفضل الأعمال؟!

● كان المرحوم السيّد البروجردي[١] رحمه الله، يدرّس الأصول في مسجد «عشق علي»[٢] عصراً ، وفي أحد الأيّام وبينما السيّد يلقي الدرس من على المنبر وجّه أحد التلاميذ الحاضرين إشكالاً على الموضوع الذي كان يطرحه السيّد. فأجاب السيّد على الإشكال، ولكن التلميذ استشكل مرّة أخرى، وأجاب السيّد أيضاً، ولكنه احتدّ هذه المرّة في كلامه بعض الشيء، فسكت التلميذ.

يقول السيّد الخونساري: كنت قد أتممت صلاة المغرب في اليوم نفسه ولم أصلّ العشاء بعد عندما جاءني خادم السيّد البروجردي وقال لي: «يطلب منك السيّد أن تحضر عنده الآن». أسرعت الى السيّد فرأيت التأثّر بادياً عليه وكان واقفاً عند باب مكتبته متعجّلاً قدومي؛ فقال لي: لقد صدرت حدّة في كلامي مع ذلك التلميذ الذي استشكل عليّ اليوم وأريد منك أن تأخذني إليه قبل أن أصلّي المغرب والعشاء لأعتذر منه،

---

(١) تزعّم الحوزة العلمية فى مدينة قم المقدّسة بعد رحيل مؤسّسها المرحوم الشيخ عبدالكريم الحائري، ولعلّ العشرات بل المئات من الأفاضل الموجودين الآن في قم حضروا درسه أو التقوه، وهذه القصّة التي وقعت إبان مرجعيته العامّة للشيعة مدوّنة في تاريخه، ونُقلت عنه كثيراً، ومن الذين نقلوها مراراً السيد مصطفى الخونساري رحمه الله، الذي كان ملازماً له.

(٢) أحد المساجد المعروفة في قم المقدّسة.

فلم يكن ما قد صدر منّي تجاهه صحيحاً.

يقول السيّد الخونساري: قلت للسيد: ان الشيخ (التلميذ) يؤمّ جماعة المصلّين في المسجد الفلاني ثمّ يذكر بعد ذلك بعض المسائل الشرعية للناس ويجيب على أسئلتهم، فهناك أمامنا زهاء ساعتين ريثما يذهب الشيخ إلى بيته، فلأذهب الليلة وحدي إلى بيته وأخبره بالأمر وأُرتّب معه موعداً لزيارته غداً، لكي نذهب سويّة إلى منزله.

وهكذا حدَث، فلقد أخبرت الشيخ بالأمر ليلاً ، وفي الصباح الباكر ذهبت إلى حرم السيّدة المعصومة عليها السلام كما جرت عادتي على ذلك، ثمّ رجعت الى البيت وإذا بي أرى السيّد البروجردي مستقلاً عربته، مستعداً أمام بيتي ينتظرني، وكان رحمه الله كبير السنّ لايستطيع المشي بسهولة، فركبت معه العربة وانطلقنا إلى بيت الشيخ الذي ما إن سمع طرق الباب حتى أسرع إلى فتحه ورحّب بالسيّد كثيراً. كيف لا وقد كان طالباً بين يديه والسيّد يومذاك كان مرجعاً عامّاً للشيعة، وكان الشيخ من مقلّديه.

يقول السيّد الخونساري: عندما دخل السيّد أمسك بيد الشيخ وهمّ بتقبيلها لولا أنّ الشيخ سحب يده بقوّة ممتنعاً!!

قال السيّد البروجردي: اعذرني على شدّتي في الكلام معك أمس، فما كان ينبغي لي أن أفعل ذلك!

فقال له الشيخ: أنت سيّدنا ومولانا ومرجع المسلمين وأنا أحدهم، وتوجّهك هذا إليّ يعدّ فضلاً منك عليّ.

ولكن السيّد البروجردي كرّر قوله بطلب العفو والصفح.

وهنا نسأل: اذا صدر من الإنسان شيء لم يكن ـ أو شعر أنّه لم يكن

ـ في محلّه، ألا يجدر به العمل بما وافق السنّة؟ فإن عمل به فهو أحسن الأعمال وإلا فلا. ولو لم يكن السيّد البروجردي رحمه الله ممتلئاً بعلوم أهل البيت سلام الله عليهم لما وُفق لهذا التوفيق ببلوغ أحسن الأعمال؛ الأمر الذي يجعلنا ندرك مدى أهميّة الحديث المتقدّم المرويّ عن الإمام الرضا سلام الله عليه والذي يقول فيه: «**يتعلّم علومنا ويعلّمها الناس**».

أحسن الأعمال في ليلة عرفة ويومها والعيدين

للإمام الحسين سلام الله عليه دعاء في يوم عرفة[1] كما هناك دعاء للإمام السجّاد وآخر للإمام الصادق سلام الله عليهما، ومن وُفّق لقراءة هذه الأدعية الثلاثة بتدبّر فقد نال خيراً كثيراً؛ لأنّها كنوز عظيمة في الحقيقة. وقد ذكر المرحوم الشيخ عباس القمّي ـ صاحب كتاب مفاتيح الجنان ـ من هذه الأدعية الثلاثة دعاء الإمام الحسين سلام الله عليه، أمّا الأدعية الأخرى فقد وردت في كتب الزيارات والأدعية الأخرى.

وعمدة الأعمال في يوم عرفة وليلتها ويوم العيد وليلته ـ سواء كان عيد الأضحى أو عيد الفطر ـ هي أن يتعلّم المرء فيها علوم أهل البيت سلام الله عليهم ويعلّمها الناس، ومن جملة علومهم تلك الأدعية التي أشرنا إليها آنفاً، كما يستحبّ في ليلة عرفة ويوم العيد أيضاً أن يضمّ إلى تلك الأدعية ـ كما جاء في بعض الروايات ـ قراءة زيارة الإمام الحسين سلام الله عليه لما فيها من علوم آل البيت عليهم السلام ولغناها بمعارف التوحيد والنبوّة والعدل والإمامة والمعاد، علاوة على بيانها صفات الله الثبوتية والسلبية،

---

(١) كان هذا استدراكاً من سماحته بمناسبة أنّ حديث سماحته هذا كان قد صادف ليلة عرفة.

وما يجوز إطلاقه على الله وما لا يجوز. فهذه الأدعية والزيارات المرويّة عن أهل البيت سلام الله عليهم هي أوسع باب وأقوم طريق لمعرفة الله تعالى والاهتداء إلى أصول دينه الحنيف.

لذا ينبغي لنا أن نتعلّم هذه الأدعية والزيارات لكي نفهم عبرها أصول الدين وأحكامه، ولا نكتفي بالقراءة فقط. فمن عكف على تعلّمها وتدبّر في آفاقها لابدّ وأن تتغيّر حالته نحو الأفضل ويسمو في آفاق العلم والمعرفة.

فهناك بعض الناس قد يصاب بآفة التكبّر والغرور لمجرد أنّه تعلم كلمتين أو درس مرحلتين أوطالع كتابين أو حفظ بعض المصطلحات، في حين ترى مرجعاً بمستوى السيّد البروجردي رحمه الله مثلاً لايهدأ له بال قبل أن يذهب ويعتذر من تلميذه لمجرد أنّه احتدّ معه في الكلام، ويرى أنّ هذا الاعتذار أوجب الأعمال عليه وأحسنها، حتى أنّه فوّت على نفسه فضيلة أداء الصلاة في أوّل وقتها[1] وعدّ وقت طلب العذر مقدّماً عليها.

وهذا الاستعداد ـ للاعتذار ـ عند السيّد البروجردي مع مكانته العلمية والاجتماعية، لم يأت اعتباطاً بل هو نتيجة تربية وخلفية ضخمة أوجدت

(١) لأنّ أداء الصلاة في أوّل وقتها مستحبّ وليس واجباً، ووقت الصلاة موّسع لايحاسب على فواتها إن أدركه الأجل خلال الوقت، أما تقديم الاعتذار والاستحلال من العباد فهو واجب فوريّ يحاسَب المرء على تركه إن لم يؤدّه وأدركه الموت. فلو مات الإنسان في أول الوقت ولم يصلّ الفريضة التي حلّ وقتها لايقال له لم لَم تؤدّها؟ لأنّ الله سبحانه قد وسّع من وقت الصلاة، ولم يحصر وقت أدائها في أوّل الوقت، بل جعل لها الفضيلة في أدائها، ولايحاسَب المكلف على الصلاة إلا إذا تركها عامداً حتى فات وقتها إلى غيرها، أما حقّ الناس، فإن مات عنه، حوسب عليه.

فيه هذه الحالة؛ فهل نحن مستعدّون إن اقتنعنا بصدور خطأ منّا في حقّ شخص ما أن نعمل الشيء نفسه الذي عمله السيّد البروجردي مع أنّنا لم نبلغ مكانته؟ أسأل الله تعالى أن يجعلنا كذلك وأن يوفّقنا ببركة أهل البيت سلام الله عليهم للتحلّي بأحسن الأعمال.

توفّر النيّة

مهما أوتي الإنسان من الإحاطة في البلاغة والدراية إلا أنّه يبقى على سواحل بحار معاني كلمات أهـل البيـت سلام الله علـيهم لأنّهـم أرومـة اللغـة وسادات الأدب والبلاغة؛ ومن الأمثلة على ذلك كلمـات الإمـام الـسجّاد سلام الله عليه في هذا الدعاء.

ما يبدو لنا في هذا المجال أنّ الإمام السجّاد عليه السلام يمـزج المعـاني هنا بعضها ببعض ويُشرب بعـض الألفـاظ بمعـاني ألفـاظ أخـرى؛ هـذا الإشراب الأدبي للفظ بمعنى لفظٍ آخر يجعله قالباً وقابلاً للمعنيين معاً.

تستعمل مفردة «وفر» في اللغة تارة متعدية وأخرى لازمة، وكلٌّ بلحاظ يختلف عن الآخر. تقول: (وفُرَ المالُ) أي كثر واتّسع، وتقول (وفِّر الشيء) أي كمّله واجعله وافراً. كما يستعمل التوفير بمعنى الصيانة والحِفظ أيضاً.

وقد استعمل الإمام هذه الكلمة بشأن النيّة لأنّ ما يطلبه الإمام من الله تعالى هو المراتب العالية من الشيء وليس أصل الشيء كما في طلبنا نحن. فإنّ الإمام يطلب هنا توفير النيّة بمعنى الوصول بها إلى الكمال

وثبوتها، لا بمعنى إيجادها في نفسه.

إنّ الثبات على النيّة أصعب شيء على النفس لأنّها متذبذبة بالنسبة إلى النيّة ذبذبة غريبة، ومثاله التذبذب الذي يحصل لنا في الصلاة. فربما تبدلت نيّة بعضنا في الصلاة الواحدة أكثر من عشرين مرة! فقد يبدأ الشخص صلاته بنيّة تنسجم وقول أمير المؤمنين سلام الله عليه: «**إلهي ما عبدتُك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك ولكن وجدتُك أهلاً للعبادة فعبدتك**»[١]، فيبدأ تكبيرته بهذه النيّة، ولكن بمجرّد أن يُتمّ التكبير تهجم على ذهنه الأفكار، فإذا كان خطيباً مثلاً فكّر في المجلس الذي ينتظره، وإذا كان تاجراً فكّر في تجارته وهكذا. فهل هذا هو المراد من التكبير؟! هل كبّر الخطيب ليبدأ الإعداد لمجلسه مثلاً؟ إنّ الإعداد للمجلس أمر حسن ولا بأس به، ولكن ليس أثناء الصلاة.

إنّ مسألة الثبات على النيّة تعتبر بحدّ ذاتها مسألة صعبة جداً. فإنّ الإنسان مهما أوتي من توفيق وإخلاص حتى لو استمرّ عليه سبعين سنة فإنّه لا يؤمَن من تزلزل النيّة في نفسه، لأنّ الإنسان ـ كما هو معلوم ـ مكبّل ومشدود بغرائز وأهواء مختلفة. وقد ورد في كثير من الآيات الكريمة والأحاديث القدسية والروايات الشريفة أنّ جمهرة عظيمة وكبيرة من الناس يدخلون جهنم ـ والعياذ بالله ـ لعدم ثبات نياتهم؛ قال تعالى: ﴿**مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَء وَلاَ إِلَى هَؤُلاَء**﴾[٢].

ولذلك يطلب الإمام من الله تعالى إكمال النيّة وإبعاد النقص فيها،

---

(١) منازل الآخرة: ٣١.

(٢) النساء: ١٤٣.

ويطلب كذلك صيانتها، فهي معرّضة للتأثيرات المختلفة، الأمر الذي يجدر بنا بعد انعقاد نوايانا في نفوسنا أن نطلب من الله تعالى توفيرها وصيانتها من أخطار الشيطان والشهوات وتأثيراتها المختلفة.

ولذلك فإنّ الإمام لم يقل: «وفِّر نيّتي» بل قال: «وفّر بلطفك نيّتي». فهذه الباء هي باء السببية، أي ليتدخّل لطفك يا إلهي في توفّر نيتي، وإلاّ فإنّي غير مستحقّ لولا لطفك ورحمتك. فما هو المراد من اللطف هنا؟

إنّ كلّ كلمة من كلمات هذا الدعاء يعدّ كتاباً حقّاً، ولو عرضتَ هذا الدعاء وحده على شخص لا يعرف أهل البيت وكان أديباً وعارفاً بالمعاني ومنصفاً مع نفسه لغيّر نظرته وتحوّل إلى أهل البيت عليهم السلام!

اللطيف: صفة من صفات الله تعالى وأسمائه، وفي اللغة له عدّة معان، ومن تلك المعاني: الرفيق أي صاحب الرفق. ومن معاني اللطف: التوفيق والعصمة[1]. وغير مستبعد أن يريد الإمام كلا المعنيَين.

فكأنّ الداعي يقول: يا إلهي أنت رفيق بعبادك (ترفق بهم) فبرفقك يا إلهي وفّر نيتي، ويا الهي أنت الموفّق والعاصم لعبادك توفّق وتعصم وِفْقَ مشيئتك، فبتوفيقك يا إلهي اعصِم نيّتي.

لقد أودع الله تعالى في الإنسان من الطاقات ما هي كفيلة بتصحيح مساره، لكنّه ـ الإنسان ـ كثيراً ما يضعف عن صيانة نيّته وحفظها عن الزيغ والتذبذب، فتراه يعجز عن الصعود والارتقاء بها إلى درجات الكمال العليا؛ ولذا يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «اللهم وفّر بلطفك نيّتي». أي يا إلهي خذ بيدي واصعد بنيّتي، فلا أستطيع الارتقاء من دون عونك.

---

(١) انظر لسان العرب: ٩/ ٣١٦، مادة لطف.

النيّة إطار العمل ومانحة لونه

والنيّة إطار العمل، فالعمل لا لون له، مثل الماء الصافي الذي لم تخالطه أجزاء ترابية أو شوائب أخرى. فلو كان الماء صافياً جداً وصُبّ في إناء زجاجي شفّاف، حينها لا يتمكّن الإنسان أن يبصر حدّ الماء من بعيد بسهولة، خصوصاً إذا كان ساكناً لا تموّج فيه، وذلك لأنّ الماء في الأصل لا لون فيه وإنّما يكتسب لون الإناء الذي يوضع فيه أو لون الشيء الذي يمتزج معه، أو غير ذلك.

فالعمل كالماء بصفائه، وإنّ النيّة هي ذلك الشيء الذي يمنحه لونه.

فمثلاً زيد يدرّس، ولكن المهمّ هو الهدف الذي يدرّس من أجله فإن كان إلهياً قلنا إنّ عمله إلهي، وإلا كان له لون آخر. وهكذا الحال مع كلّ عمل سواء كان تدريساً أو دراسة أو خطابة أو تأليفاً أو بناء مسجد أو أيّ عمل آخر.

● مثال آخر: شخص شتمك، ولكنّك حلمت عليه، فالحلم شيء صعب وجميل في نفس الوقت، ولكن الأصعب من الحلم تأطيره بنية إلهية. أمّا إذا كان الدافع لاستعمالك الحلم أن تقوّي مكانتك بين الأصدقاء أو يقال عنك حليم، أو تعلن للناس من خلاله أنك قويّ الإرادة، فهذا يختلف عمّن يحلم لعلمه أنّ الله يحبّ الحلم ويدعو إليه، ولكلٍّ حساب.

لا عمل إلا بنيّة

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**لا قول إلا بعمل، ولا**

قول ولا عمل إلا بنيّة، ولا قول ولا عمل ولا نيّة إلا بإصابة السنّة»[١].

وهناك أحاديث كثيرة بهذا المضمون، ذكر بعضها الحرّ العاملي رحمه الله في كتابه[٢].

و «لا» هنا نافية للجنس؛ لأنّ اسمها مبنيّ على الفتح، وهي تختلف في أدائها ومدلولها عن «لا» المشبّهة بـ «ليس» في كون النافية للجنس تنفي جنس الشيء وهو العمل في المقام، وهذا معناه أنّ العمل واللاعمل سيّان إن لم يكن العمل مصحوباً بنيّة حسنة، وليس المقصود نفي الحقيقة والواقع الخارجي بل نفي الاعتبار. فمن واصل الدراسة لمدّة عشرين أو ثلاثين سنة حتى بلغ مرحلة الاجتهاد، إنّما يعبّر عن وجود همّة صاحبُها رجل مثابر، إذاً فكيف لا يعدّ كلّ ما بذله من جهد عملاً؟! وهكذا من بذل إطعاماً أو ألقى خطاباً استوجب مدح الناس وإعجابهم، كيف يقال عمّا صدر عنه أنّه لم يكن عملاً؟ لا شكّ أنّ المقصود هو نفي الاعتبار وليس الحقيقة. وتوضيحه بمثال:

لو أنّ شخصاً ألّف كتاباً ضخماً وأتعب نفسه في تأليفه ثمّ قدّمه لعالم والتمسه أن يكتب له تقريظاً، ولكن العالم اكتشف بعد مطالعته الكِتاب أنّه لا قيمة له من الناحية العلمية والموضوعية واعتذر لصاحبه عن كتابة التقريظ قائلاً: إنّ هذا ليس بكتاب أصلاً! فماذا يُفهم؟ هل نفى الواقع المادّي الملموس للكتاب ككتاب مؤلَّف من أوراق كتبت عليها عبارات وخطوط، أم نفى توفّر الكتاب على الشروط التي يستحقّ بها أن

(١) الكافي: ١/ ٧٠، ح٩، كتاب فضل العلم.

(٢) وسائل الشيعة: ١/ ٣٣ ـ ٥٤، أبواب مقدّمة العبادات من كتاب الطهارة.

يسمّى كتاباً كما ينبغي.

إذاً ما كتبه الكاتب في المثال هو كتاب، وفي الوقت نفسه ليس بكتاب. هو كتاب خارجاً وحقيقة، ولكنّه ليس كتاباً اعتباراً، أي وفق الشروط التي يعتبرها أهل الفنّ.

إذا اتّضح هذا المثال نقول: هكذا يجب أن نفهم مراد الأحاديث الشريفة التي تقول إنّه لا عمل إلا بنيّة.

والخوف كلّ الخوف أن يأتي اليوم الذي ينتشر فيه هذا اللاعمل. فلكلّ فرد منّا مئات الملايين من الأعمال في حياته، لأنّ العمل ليس منبراً أو تأليفاً أو تدريساً أو بناء حسينية فحسب، بل كلّ نظرة وكلّ نفحة، وكلّ تأمّل وتفكّر وكلّ لمسة وهمسة ولمزة وخلسة، وكلّ استماع ونجوى وتعبير، ولابدّ أن تحصى هذه الأعمال كلّها عند الله تعالى وتنشر يوم القيامة، ليكشف عن عدد هائل من اللاعمل بعدد مصاديق الأعمال المجرّدة عن النيّة الحسنة.

ولا عمل ولا نيّة إلا بإصابة السنّة

وهذا تتمّة الحديث[1]، وإن لم يكن مورد بحثنا الآن، ولكن لا بأس بإشارة إليه لأهمّيته. ولعل أقرب مثال يوضّح هذا المعنى قد تجسّد في أولئك الذين عادوا الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه وشهروا سيوفهم في وجهه بنيّة التقرّب إلى الله تعالى!

فكيف يُتصوّر قبول عمل من شهر سيفه في وجه الإمام علي عليه السلام

---

(١) المتقدم آنفاً.

وهو ميزان الأعمال يوم القيامة[١]؟! أي بمودّة علي عليهم السلام توزن أعمال العباد ليعرف ثقلها، ويتحقّق قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۞ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾[٢].

أيعقل أن يجعل اللهُ تعالى علياً عليه السلام ميزاناً ومعياراً لأعمال الخلائق وفيصلاً بين الحقّ والباطل، يدور الحقّ معه حيثما دار[٣]، ثمّ يرضى بمحاربته وإشهار السيف بوجهه؟!

ورغم ذلك نرى قوماً كان هذا فعلهم. ولذلك يذكر المؤرّخون أنّه عندما طُعن أحد الخوارج يوم النهروان، مشى في الرمح وهو شاهر سيفه إلى أن وصل إلى طاعنه فضربه فقتله وهو يقرأ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ ـ طه: ٨٤ ـ[٤]. فهذا عنده نيّة وعمل ولكن عمله ونيّته لم يصيبا السنّة، فيكون عمله بذلك من مصاديق اللاعمل.

النيّة قبل العمل وحينه وبعده

يظهر من مضمون الأحاديث والروايات أنّ النيّة تؤثّر في العمل سواء كانت قبل العمل أو حينه أو بعده لا فرق، سوى أنّ فسادها بعد العمل يفسده دون أن يبطله. والفقهاء رضوان الله عليهم قد فصّلوا الأمر وقالوا: إنّ النيّة

---

(١) إشارة لما جاء في زيارة أميرالمؤمنين سلام الله عليه حين يقف الزائر على باب السلام فيقول: السلام ... على ميزان الأعمال، انظر المزار: ١٨٤.

(٢) القارعة: ٦ – ٨ .

(٣) قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: علي مع الحق والحق مع علي، يدور معه حيثما دار، شرح نهج البلاغة: ١٨ / ٧٢.

(٤) شرح النهج: ٢/ ٢٨٢.

إذا كانت فاسدة حين العمل ـ أي كان العمل لغير الله كما لو كان رياءً مثلاً ـ فهذه النية الفاسدة تفسد العمل وتبطله، ولكنّها إن فسدت بعد العمل فهي لا تبطل العمل بل تفسده فقط. و لا يتناقض هذا الفهم مع مفهوم الروايات المتقدّمة فضلاً عن منطوقها بل هو فهم يفرّق بين البطلان الذي يعني لزوم إعادة العمل وبين الإفساد الذي يعني عدم القبول.

فلو أنّ شخصاً صدر منه الرياء أثناء الصلاة، فلا شكّ حينئذ بفساد الصلاة وبطلانها في الحالتين، الأمر الذي يستوجب الإعادة في الوقت، والقضاء خارج الوقت إن فاته.

ولكن لو فرضنا أنّ الشخص لم تكن هذه نيّته ولكنّه بعد أن أتمّ الصلاة حدّثته نفسه بالرياء والتظاهر، وعمل بذلك، فتحدّث لغيره عن صلاته وخشوعه فيها، فهنا يقول الفقهاء إنّ الصلاة وإن فسدت فهي لا تبطل، ويعنون بذلك عدم بطلانها الظاهري، وهذا المعنى مساوق لعدم وجوب الإعادة أو القضاء.

أمّا الروايات التي تقول باشتراط حسن النيّة حتى بعد العمل فهي ناظرة إلى القبول، ولذلك فإنّ هذه الصلاة تساوق العدم من حيث الأجر والقبول وإن لم تستلزم الإعادة في الدنيا لسقوط التكليف بالفراغ منها قبل حصول الخلل في النيّة. أمّا الخلل الحاصل حين العمل فهو مخلّ بالركنين الصحّة والقبول معاً، ولذلك عُدّ من رائى أثناء صلاته كمن صلّى بلا وضوء أو مستدبرَ القبلة أو مع النجاسة غير المعفوّ عنها وما أشبه، ومن ثمّ فتجب عليه الإعادة، والقضاء إن لم يُعد في الوقت، بل تجب على ورثته قضاؤها إن لم يقضها، على التفصيل المذكور في

الكتب الفقهية.

مثال من واقع الحياة

واشتراط النيّة وصحّتها في قبول العمل من الأمور التي جرت عليها سيرة العقلاء في حياتهم العملية، والأمثلة ليست عزيزة في هذا المجال، فكثيرة هي الأمور التي قد يُتعب الإنسان نفسه عليها، ثمّ يفرّط بها ويتلفها بسهولة وربّما باندفاع لأنّه يرى أنّها كانت عديمة الفائدة، وإن شكلت كمّاً ضخماً في الواقع الخارجي.

نقل لي أحد العلماء رحمه الله قال: لقد ألّفت مجموعة من الكتب خلال عشرين سنة ثمّ بدا لي بعد ذلك أنّي غير راغب فيها – من الناحية الدينية طبعاً وليس السياسية – ولا أريد بقاءها عندي، ففكّرت بطريقة للتخلّص منها، لأنّني لا أستطيع إحراقها بسبب وجود أسماء الله تعالى وآيات قرآنية وروايات للمعصومين فيها، يقول: ففكّرت أن أعطيها لشخص لكي يرميها في النهر ولكنّي خشيت أن لا يرميها في الماء أو أن يبقي منها ما قد يدركه أحد ويستخرجه، فرأيت أنّ أفضل طريقة هي أن أدفنها في حفرة أحتفرها في داخل بيتي، فاستأجرت حفّاراً ليحفر لي بئراً في موضع من البيت، وبعد أن حفر مقداراً أعطيته أجرته وطلبت منه أن ينصرف. وعندما خرج من البيت أسرعت بوضع الكتب في الحفرة وفتحت عليها الماء ثمّ أهلت التراب حتى اختفت ثمّ سوّيت ما عليها!

هكذا يفعل الله مع أعمالنا الباطلة، يقول تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾[1]. حقّاً ما آلمه من عذاب، ذلك

---

(١) الفرقان: ٢٣ .

عذاب اليوم الآخر الذي يهون عنده كلّ أنواع العذاب في دار الدنيا، لأنّ الإنسان المؤمن سيرتاح بالموت من عذاب الدنيا وهمومها، ولكن لا راحة من العذاب الأخروي لسواه، سيّان النفسي منه والجسدي.

إنّ المفتاح بيد الإنسان وإن لم يخلُ الأمر من صعوبة ولكنّه ممكن، غايته أنّه يتطلّب إرادة وتوكّلاً على الله تعالى. والنيّة تؤطّر العمل في كلّ حال. فهي تؤطّر الخطابة والتدريس والبذل والإطعام، وهي تؤطّر عمل المرجع والمؤلّف والمبلّغ وإمام الجماعة والقاضي، كما تؤطّر العمل في سائر المجالات.

الخلود بسبب النيّة

يقول العلاّمة المجلسي: ومن هذا يظهر سرّ أنّ أهل الجنّة يخلدون فيها بنيّاتهم، لأنّ النيّة الحسنة تستلزم طينة طيّبة، وصفات حسنة، وملكات جميلة تستحقّ الخلود بذلك؛ إذ لم يكن مانع العمل من قبله فهو بتلك الحالة مهيّأ للأعمال الحسنة والأفعال الجميلة، والكافر مهيّأ لضدّ ذلك، وبتلك الصفات الخبيثة المستلزمة لتلك النيّة الرديئة استحقّ الخلود في النار[1].

توضيحه: إنّ المؤمن الثابت على الإيمان مهما مدّ الله في عمره أقام على الطاعة فهذه نيّته، والعاصي المصرّ على العصيان مهما عاش في الدنيا استمرّ على عصيانه، وهذا عزمه.

---

(١) بحار الأنوار: ٦٧/ ١٩٨، باب ٥٣- النيّة و شرائطها و مراتبها.

أمثلة على النيّة الحسنة

• للشيخ عباس القمّي رحمه الله كتب عديدة منها «مفاتيح الجنان»[1] وله كتاب عميق المحتوى كتبه باللغة الفارسية وتمّت ترجمته مؤخّراً إلى اللغة العربية، أسماه «منازل الآخرة» وهو ـ حقّاً ـ يعبّر عن محتواه.

كان أبوه (محمد رضا) رجلاً عادياً، ومن الكسبة الأخيار، فكان ملتزماً بالحضور في مسجد الإمام الحسن العسكري سلام الله عليه المعروف في مدينة قم المقدّسة، حيث كان هناك خطيب قد تأثّر بخطابه وبوعظه وإرشاده؛ فقد كان خطيباً جيّداً، وفي نفس الوقت كان من الذين يخدمون أهل البيت سلام الله عليهم عن هذا الطريق.

أمّا الشيخ عباس القمّي فلم تكن حرفته الأصلية الخطابة بل كان مؤلفاً محققاً، ولكنّه مع ذلك كان يصعد المنبر أحياناً، وكان المرحوم الشيخ عبد الكريم الحائري (زعيم الحوزة العلمية) يدعوه لارتقاء المنبر في مدينة قم، كما كان السيّد حسين القمّي رحمه الله يدعوه أحياناً ليصعد المنبر في بيته في مدينة مشهد المقدّسة. وكان غالباً ما يأخذ معه كتاباً بيده ويقرأ منه، لأنّه كان يخشى الزيادة والنقيصة ويتورّع في ذلك.

كان محمد رضا يسأل ابنه «الشيخ عبّاس» مراراً: لماذا لا تزيد من معلوماتك وتصعد المنبر مثل الخطيب الفلاني الذي أحضرُ مجلسه في مسجد الإمام العسكري سلام الله عليه، فهو خطيب جيّد يحضر منبره جمهور

---

(١) ابحثوا عن كتب الأدعية المؤلّفة عبر مئات السنين، ربّما تجدونها بالمئات. وإنّني رأيت العشرات منها ما بين مطبوع ومخطوط، ولكنّ الملاحظ أنّ كتاب «مفاتيح الجنان» هو الوحيد الذي أصبح معروفاً لدرجة ربّما لا يعلم كثير من سواد الشيعة بوجود كتاب في الأدعية غيره!

كثير وهو يقرأ من كتاب معه يحوي مواعظ وحكماً وحكايات مؤثّرة؟

وكان الكتاب الذي يطالع فيه ذلك الخطيب هو كتاب «منازل الآخرة» للشيخ عبّاس القمّي، ولكن الشيخ مع ذلك لم يخبر أباه أبداً أنّ هذا الخطيب إنّما يقرأ من كتاب «منازل الآخرة» وأنّه من تأليفي.

وهذه الحالة تكشف عن الإخلاص في النيّة.

• للشيخ ابن فهد الحلّي رحمه الله تأليفات كثيرة منها كتاب «عدّة الداعي» كنت سابقاً قد سمعت عن الكتاب ورأيت بعض ما نُقل عنه، ولكنّي لم أكن قد رأيت الكتاب نفسه. وعندما حصلت عليه، بعد أن جاءني به شخص في أوّل الليل، أخذت في قراءته وسهرت بذلك الليل كلّه تقريباً، فشعرت بتأثير مطالبه عليّ مع أنّي كنت قد سمعت بمعظمها، حتى إنّه يمكنني القول أنّي لم أجد شيئاً جديداً سوى جملة واحدة لا تزيد على سطر واحد.

وكعادة طلاب العلوم الدينية الذين يبحثون دائماً عن جذور الأشياء وأسبابها، فكّرت عند نفسي عن السبب الذي يكمن وراء كلّ هذا التأثير الذي وجدته من وراء هذا الكتاب ـ رغم أنّ معظم مطالبه لم تكن جديدة لي ـ فلم أصل إلاّ إلى أمر واحد فقط وهو أنّ المؤلّف كتب كتابه هذا بنيّة خالصة!

لقد كان الشيخ ابن فهد الحلّي رحمه الله من الفقهاء الأتقياء وصاحب كرامات وقد نُقلت عنه أشياء نادرة وأمور مبتكرة ولعلّها فريدة.

ولقد كانت نيّته موفّرة وخالصة لدرجة أنّ عمله في كتابه هذا على وجه الخصوص، يؤثّر في النفوس رغم مرور مئات السنين عليه!

• لما أظفر الله تعالى أمير المؤمنين سلام الله عليه: بأصحاب الجمل قال له

بعض أصحابه: وددت أنّ أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك. فقال سلام الله عليه: «أ هوى أخيك معنا؟» قال: نعم. قال: «فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا، أقوامٌ في أصلاب الرجال وأرحام النساء سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان»[1].

لابدّ من النيّة والتوكّل معا

إنّ النيّة هي الأساس في العمل، وهي إطار العمل كما أسلفنا، والاختيار يبقى بيد الإنسان، ولكن بما أنّه مكبّل ومشدود إلى الأرض فهو بحاجة إلى تأييد ربّاني. نضرب لذلك مثلاً:

إنّ الذين يتسلّقون الجبال يمسكون بحبل أحد طرفيه مثبّت في أعلى الجبل، فالمتسلّق منهم وإن تراه يصعد بعزيمته وجهده وفكره وأعصابه إلاّ أنّه مع ذلك لابدّ له من وجود ذلك الحبل لأنّ أدنى زلّة منه قد تودي بحياته أو تهشّم عظامه، إذا ما هوى. فلا العزيمة وحدها كافية دون الحبل ولا الحبل وحده كاف دون العزيمة، لأنّ من لا عزيمة وقوّة له لا يستطيع التسلّق وإن كان هناك حبل، كما أنّ الإرادة والعزيمة غير كافيتين دون الحبل لأنّ الطريق صعب ومحفوف بالمخاطر، وأنّ أدنى غفلة أو زلّة تنتهي بصاحبها إلى التحطّم والهلاك.

وهكذا الحال بالنسبة للنيّة ونجاحها، فإنّها تتطلب إرادة وعزيمة وتصميماً من العبد، وتوكّلاً منه على الله تعالى إلى جانب ذلك. فإنّ التوكّل وحده دون إرادة واختيار من العبد لا يكفي، كما أنّ اعتماد العبد

---

(١) بحار الأنوار: ٣٢/ ٣٤٥.

على إرادته وحدها دون مدد من الله هو أيضاً غير مضمون النتائج.

وتلك الوسيلة التي تعين العبد على تسلّق درجات المعرفة والكمال والفلاح، هي النيّة والتوكّل على الله تعالى.

• كان أبو حمزة الثمالي[1] شخصية عظيمة، ويكفي أنّ واحدة من حسناته روايته الدعاء المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي، الذي كان يدعو به الإمام زين العابدين سلام الله عليه في أسحار شهر رمضان المبارك.

روي أنّ سبطه حسيناً روى عن أبيه، عن أبي حمزة أنّه قال: «والله إنّي لعلى ظهر بعيري بالبقيع إذ جاءني رسولٌ فقال: أجب يا أبا حمزة! فجئت وأبو عبدالله عليه السلام جالس، فقال: «إنّي لأستريح إذا رأيتك»[2].

هذه كلمة عظيمة جدّاً، فالإمام الصادق سلام الله عليه كان له أصحاب كثيرون، فلماذا كان يستريح لأبي حمزة بالخصوص؟ هل كان سلام الله عليه يستريح لشكله أو منطقه أو لسانه أو ماله أم كان يستريح لإخلاصه؟

---

(١) أدرك أبو حمزة (واسمه ثابت بن دينار) أربعة من الأئمة المعصومين سلام الله عليهم، فقد عاصر الإمام زين العابدين والإمام الباقر والإمام الصادق والإمام الكاظم سلام الله عليهم، وهناك خلاف في كونه أدرك الإمام الحسن والإمام الحسين سلام الله عليهما. والمتيقّن أنّه أدرك أربعة من ذرية الحسين سلام الله عليه (أعني السجّاد والباقر والصادق والكاظم سلام الله عليهم). وهناك قول بأنّه أدرك الإمام الرضا سلام الله عليه أيضاً، لأنّ هناك روايات تقول بأنّه كان أيّام الإمام زين العابدين سلام الله عليه شاباً وأيّام الإمام الكاظم سلام الله عليه شيخاً كبيراً.

وكان لأبي حمزة الثمالي أولاد من خيرة أصحاب الأئمة؛ فكانوا خيرة الأولاد ومن خيرة آباء، وهم محمد وعلي وهما ثقتان، وكان عنده ابن يسمّى حسيناً، وسبط بهذا الاسم أيضاً، ولكن اختلف علماء الرجال هل حسين هذا هو ابنه أو سبطه أم هما اثنان؛ قال العلامة المجلسي وجماعة إنّهما شخصان أحدهما ابنه والآخر ابن بنته، وكلاهما ثقتان.

(٢) رجال الكشي: ٣٣، ح ٦١.

لاشكّ أنّ إخلاص أبي حمزة هو الذي رفعه إلى هذه الدرجة العظيمة، وأنّ الإمام كان يستريح لخلوص نيّته.

لنعمل على توفير النيّة

فلنتجاوز هذه العقبة الكؤود ـ عقبة التذبذب في النية ـ ولنؤطّر أعمالنا بنيّة خالصة مادمنا على الطريق، نؤمن بالله واليوم الآخر، ونؤدّي سائر الفروض والواجبات، وندرس وندرّس العلوم الدينية ونعظ الناس ويؤلّف بعضنا الكتب لهدايتهم أو لبيان معالم الدين، لأنّنا ـ مع الأسف ـ نرى أنّ بعض الناس بعيدون حتى عن أوليات الدين الحنيف، لذا يلزم أن نبذل جهداً متميّزاً في الوصول إلى أحسن النيّات. غاية الأمر أنّه يحتاج إلى تركيز وتصميم وتوسّل بالله تعالى واستشفاع بأهل البيت سلام الله عليهم. فإنّ العمل الخالص هو الذي لا تريد أن يمدحك عليه أحد ـ كما أشار إليه الأئمّة المعصومون سلام الله عليهم[1] ـ وإن كان هذا أمراً صعب المنال ولكنّه ممكن.

بعد ساعات أو أيّام أو شهور أو سنين ـ كلٌّ حسب أجله ـ سننتقل إلى الدار الآخرة، حينها نتأسف لعدم استثمار حياتنا وأعمارنا في العمل بإخلاص، وأنّ عمدة همّنا كان منصبّاً في التظاهر بأعمالنا وذواتنا.

صحيح أنّه ينبغي في بعض الموارد ـ أو يستحبّ بل قد يجب ـ أن يُظهر الإنسان نفسه، ومثاله: أن تكتب اسمك على الكتاب الذي تؤلّفه

---

(١) روي عن أميرالمؤمنين سلام الله عليه أنّه قال: إتّق الله في نفسك ونازع الشيطان قيادك واصرف الى الآخرة وجهك، واجعل لله جدّك. (غرر الحكم ودررالكلم: ٢٦٩ رقم ٥٨٤٠).

لِيُعرف أنّه لك فيؤخذ بما فيه إن كنتَ ممن يوثق بكلامه[1]. ولكن ليكن كتابة اسمك من أجل التوثيق لا لكي تري نفسك وتظهر ذاتك لأجل التفاخر وما أشبه.

وهذا الأمر يتطلّب انتباهاً مستمراً وتوكّلاً على الله تعالى، فربّ غفلة أدّت إلى سقوط مميت! كالذين يقودون سيّاراتهم في طرق ذات منعطفات ومزالق خطيرة تتطلب منهم انتباهاً ويقظة وحذراً لكي لا تؤدّي بهم الغفلة إلى خسارة أعمارهم أو البقاء معوقين طيلة حياتهم!

---

(١) فلو لم يكن الشيخ الطوسي أو الشيخ المفيد أو المحقق الحلّي مثلاً يذكرون أسماءهم على مؤلّفاتهم وكتبهم فتُعرف أنّها لهم لما اعتُمِد عليها ولا حصل الاطمئنان بها والرجوع إليها.

تصحيح اليقين

إنّ أعلى درجات العلم عند الإنسان هو اليقين. فقد يسير الإنسان على طريق ما بهدف الوصول إلى غايته، وفي الوقت نفسه يكون شاكّاً في سلامة هذا الطريق ومدى صوابه، ومع ذلك يصل إلى مرامه ومقصوده إن استعمل الاحتياط. وقد يسير الإنسان على الظنّ، فيكون احتمال نجاحه أكبر. ولكن مهما قوي الظنّ فإنّه لا يبلغ مرحلة اليقين، لأنّ اليقين أعلى مرتبة في العلم يمكن أن يبلغها الإنسان.

بيد أنّه حتى اليقين كثيراً ما ينكشف أنّه كان خلاف الواقع، فهناك حالات كثيرة من اليقين يتبيّن أنّ الإنسان كان مخطئاً فيها.

وهذا الانكشاف قد يكون بعد آن وقد يكون بعد مرور أشهر، وقد لا يتحقّق إلا بعد مرور سنوات - وهناك أمثلة كثيرة على هذا الأمر[1] -

---

(١) كما لو تزوّج شخص بامرأة بعد البحث والسؤال ثمّ تبيّن له أنّ الواقع يخالف ما قيل له؛ أو تلميذ يثق بأستاذ ثمّ يتبين له بعد ذلك أنّه لم يكن لائقاً، أو العكس، أو شخص يتعب نفسه سنين طويلة في جمع ثروة كبيرة، ثمّ يبدو له أن يحوّلها إلى عملة قويّة ـ كالدولار مثلاً ـ =

وأحياناً قد لا ينكشف زيف يقين مّا إلا في الآخرة والعياذ بالله، وهذه هي الطامّة الكبرى.

اليقين بالله أفضل اليقين

روي عن الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّه قال: «إنّ قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»[1].

فهناك من يعبد الله تعالى عبادة العبيد، حيث يدفعه خوفه من النار للامتثال، فلا يكذب ولا يظلم ولا يرتكب ما حرّم الله تعالى؛ خوفاً من نار جهنّم، ويقوم بالطاعات والواجبات للسبب نفسه، فهو يصلّي ويصوم ويتصدّق على الفقراء لتحاشي الوقوع في العذاب. وهذه مرتبة من اليقين أيضاً وإن كان سببها الخوف، ولكنّها مقبولة على كلّ حال، والالتزام بهذا الحدّ لا بأس به، وما أسعد الناس لو التزموا بهذا الحدّ وبهذا المقدار. ولكن إذا ما قورنت هذه الحالة وهذا المقدار بمن يعبد الله لأنّه أهل

= ويتبيّن له بعد فترة أنّ تلك العملة التي استلمها كانت مزوّرة، أو سجّلت في السوق هبوطاً مريعاً بحيث ذهبت بأرباح سنين طويلة من التعب والعناء في التجارة والكسب.

أعرف شخصين كانا صديقين لسنوات طويلة وكان كلّ منهما يثق بالآخر تمام الثقة، ولكنّهما اختلفا بعد ذلك عندما كبر سنّهما حتى انتهى بهما الأمر إلى أن اشتكى كلّ منهما على الآخر واستمرّا على الشكوى وصرفا الأموال ولم يتصالحا أو يصلا إلى نتيجة إلى أن ماتا. قال لي أحدهما مندهشاً ذات مرّة: إنّني أعرف فلاناً (يعني صاحبه) منذ أربعين سنة وكنت أثق به كثيراً، فكيف تصرّف معي هكذا؟! وكان يتساءل: هل كانت ثقتي به كلّ هذه المدّة في غير محلّها؟

(١) بحار الأنوار: ٦٧ / ١٩٦ ، باب النيّة وشرائطها ومراتبها.

للعبادة فإنّها ستبدو ناقصة أو كالأعور في مقابل من له عينان صحيحتان. فالأعور لا يمثّل الحالة الفضلى ولكنّه أحسن من الأعمى على كلّ حال، ولا مناقشة في الأمثال.

وهناك من يعبد الله تعالى طلباً لثوابه وطمعاً في الجنّة التي حشوها البركة[١].

[وأكبر النعم في الجنّة رضوان الله تعالى؛ يقول تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[٢] بمعنى أنّ علْم أهل الجنّة بأنّ الله راض عنهم يعدّ من أكبر النعم. لتوضيحٍ أكثر نقرّب الموضوع بمثال:

لو أنّك كنت تحترم شخصاً ما ولنفرض أباك وكان يكرمك ويعطيك المال بل يُعطيك من وقته واهتمامه، ولكنك لا تعلم هل هو راض عنك حقّاً، فإنّك إذ ذاك لا تشعر بالقيمة الحقيقيّة لما يقدّمه لك، ولكن إذا كنت تعلم بأنّه راض عنك فسيكون رضاه أهمّ شيء وأكبر مكسب عندك. والأب مثال في المقام وإلا فقد يكون من تحبّ صديقاً عزيزاً أو غيره.

وهكذا الحال في شعور المؤمن باللذة في الجنّة، فإنّ أكبر مكافاة له هي شعوره برضى الربّ تعالى عنه].

ولكن تبقى هذه الحالة (العبادة طمعاً في الجنّة) أيضاً عبادة تجّار

---

(١) كما في الدعاء: «اللهم اجعلني من أهل الجنّة التي حشوها البركة» (وسائل الشيعة: ٧ / ٣٩٨. الدعاء بعد صلاة النافلة في يوم الجمعة). و«حشوها البركة» أي ملؤها وكلّ ما في داخلها بركة، فما من شيء فيها إلا وهو مبارك، والبركة تعني النعمة الدائمة ولا توجد نعمة دائمة في الدنيا لأنّها لا محالة تنتهي بموت الإنسان مهما طال به العمر. أمّا الجنّة فنعيمها دائم.

(٢) التوبة: ٧٢ .

ـ كما عبّر عنها الإمام عليه السلام ـ وهي أدنى مرتبة من عبادة الأحرار التي لا تنبع من خوف ولا طمع بل من يقين بأنّ الله تعالى يستحقّ العبادة.

روي عن أمير المؤمنين سلام الله عليه قوله: «**إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك**»[١].

ولتوضيح المطلب نذكر مثالاً: إذا كان لمرجع دينٍ خادمٌ وصديقٌ ومقلّد، أما الخادم فتراه يُجدّ في عمله مخافة أن يُطرد ويُبدل بآخر إن لم يؤدّ مهمّته على الوجه المطلوب لأنّ الهدف الذي كان يتوخّى منه لم يتحقّق. فهو يعمل بجد ولا يتخلّف عن الحضور في الأوقات المطلوبة للخدمة مخافة الطرد أو الاستغناء عنه.

أمّا الصديق فتراه يحاول أن يحبّب أو يقرّب نفسه للمرجع أيضاً، ولكن بدافع مختلف عن الأوّل، لأنّه لا يبتغي مالاً من وراء ظهوره بالمظهر اللائق الذي يجعل المرجع يرتاح إليه. بيد أنّه هو أيضاً ربما يكون يبحث عن منفعة وإن لم تكن المنفعة مادّية بصورة مباشرة، كما لو كان يحاول أن يكسب ثقة المرجع أكثر فأكثر ليكون من مقرّبيه؛ لينال حظوة أو مكانة اجتماعية، ومن ثمّ يكون مؤثّراً في المجتمع، أو ذا كلمة مسموعة قد يستطيع من خلالها أن يحصل على فوائد مادّية أو فئوية.

بينما المقلِّد لم يقلّد المرجع خوفاً ولا طمعاً بأيّ نفع مادّي أو اجتماعي وإنّما قلّده لأنّه رآه أهلاً لذلك. فإذا قال المرجع إنّ الصلاة كذا قال سمعاً وطاعة، وإذا قال الخمس كذا نفّذ مقالته بلا تردّد.

فطاعة المقلّد لأقوال المرجع والامتثال لأوامره نابعة من نظرته

---

(١) منازل الآخرة: ٣١.

للمرجع في أنّه ممن يجب تنفيذ أقواله وامتثال أوامره فهو مرجعه المتخصص في الشؤون الشرعية، وليس خوفاً من طرده كالخادم أو الأجير ولا طمعاً في كسب الدنيا من ورائه كبعض الأصدقاء.

هكذا هو حال الأئمة عليهم السلام في علاقتهم بالله، فهم لا يعبدونه سبحانه خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنّته وإنّما رأوه أهلاً للعبادة فعبدوه.

اليقين باعث على الطمأنينة

الإنسان الذي يؤمن بالغيب وعنده يقين بأنّ المقادير كلّها بيد الله تعالى، ينعم براحة بال دائمة وطمأنينة واستقرار؛ لأنّه يعتقد بأنّ كلّ ما يصيبه إنّما هو بقضاء من الله وقدره؛ قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إلاّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا﴾[1]. ولكن هذا لا يعني أن لا يعمل الإنسان بالشروط والأسباب الطبيعية التي أمره الله تعالى بها، مبرّراً فشله بعد ذلك بأنّه مكتوب عليه من الله سبحانه.

فلو أنّ طالباً تقاعس عن الدراسة ولم يصبح متعلماً رغم مرور السنين، فهذا لا يمكنه القول إنّ الله عزّ وجلّ كتب عليه الجهل والتخلّف. فإنّ الله تعالى كتب أنّ طريق الرقي العلمي هو الجد والاجتهاد، ولابدّ من سلوكه للوصول إلى الهدف، ولا شكّ أنّ من لا يسلك الطريق لا يصل إلى الغاية. والشيء نفسه يصدق على كلّ مجالات الحياة الفردية والاجتماعية، فكما أنّ الله تعالى سنّ قوانين

(١) التوبة: ٥١. وروي عن الامام زين العابدين سلام الله عليه أنّه قال: الرضا بمكروه القضاء من أعلى درجات اليقين. التمحيص: ٦٠ ح١٣١.

تـشريعية مثـل ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[1] وغيـر ذلـك مـن الفـروض والواجبات أو النواهي والمحرّمـات مثـل ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾[2] وغيرها، فكذلك هنالك لله عـزّ وجـلّ سـنن تكوينيـة يستتبع التخلّف عنها شقاءً لازماً، مثل ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[3].

إذاً على الإنسان أن يعمل بالأسباب الظاهرية، فإن لم يوفَّق مع ذلك يستسلم إلى تقدير الله ويردّد قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾.

من يصحّح اليقين غير الله عزّ وجلّ؟

الظاهر من عبارات الإمام السجّاد سلام الله عليه فـي هـذه الجملـة والتـي قبلها أنّه عندما طلب توفير النيّة ذكر السبب الذي يـتمّ بـه توفّرهـا وهـو لطف الله تعـالى فقـال: «اللهم وفّر بلطفك نيّتي»، ولكنّـه عنـدما طلـب تصحيح اليقين - وهو أهمّ ما يبني عليه الإنسان العاقـل حياتـه - أوكـل الأمر في تعيين السبب والوسيلة إلى الله تعالى نفسه، فلم يقل بلطفـك أو أيّ صفة من صفاتك يا إلهي بل قال: «بما عندك» أي بالصفة التي تراهـا أنت يا إلهي؛ ولا يُتوهّم أنّ الإمام لم يذكر السبب ههنا من جهة أنّه قد لا يكون بمستوى أفهامنا ـ فإنّه سلام الله عليه ليس بصدد التفسير والبيان، بل هو في حالة سؤال من الله تعالى ـ ولكن ليثبّت حقيقة ويكشفها لنا وهي: أنّ موضوع تصحيح اليقين مشكل جـدّاً، لأنّ الإنـسان إذا كانـت نيّتـه غيـر

(١) البقرة: ١٨٣ .

(٢) المائدة: ٣ .

(٣) آل عمران: ٣١ .

صالحة فهو يعلم بذلك، ولكن أنّى له أن يعلم أنّ يقينه غير صحيح وهو على يقين؟!

ولفظة «ما» الموصولة - كما نعلم - تستعمل للعاقل وغير العاقل، للمفرد والمثنّى والجمع، والمذكر والمؤنّث على السواء، فهي أعمّ لفظة.

هل يستطيع أن يصحّح اليقينَ الخاطئ غير الله تعالى؟ إنّ الإنسان في شدةّ قوّته هو في منتهى الضعف، فكيف في ضعفه؟ ولذلك يعلّمنا الإمام صلوات الله عليه أن نتوسّل في مثل هذه الحالات إلى الله تعالى، فنقول: «**اللهم صحّح بما عندك يقيني**»، فكان اختياره سلام الله عليه لكلمة «بما عندك» في غاية الدقّة والروعة.

أي: يا إلهي أنا لا أعرف أسلوب تصحيح اليقين، فأنت الذي تصحّح لي ـ بما عندك ـ يقيني، لأنّ المرء عندما يكون متيقّناً بشيء فمعناه أنّه متيقّن بصحّته فكيف يصحّحه؟ أجل، إنّ الله سبحانه قادر على أن يبدّل يقين الإنسان إن كان زائفاً إلى اليقين الصحيح.

فرُبَّ شخص اعتمد على صديق له ووثق به ثقة مطلقة، فأودعه أسراره وكشف له عن أموره خاصّها وعامّها، ثمّ تبيّن له بعد ذلك أنّه كان يتجسّس عليه وينقل أخباره إلى أعدائه! والعكس بالعكس[1].

---

(١) أعرف شخصين كانا صديقين حميمين توفّي أحدهما والآخر أخبرني بما كان منه من إساءة الظنّ بالأوّل في حياته بسبب بعض القرائن وصرّح له بذلك أيضاً، لأنّه كان يزعم أنّه متيقّن من الأمر، وبعد موته انكشف له أنّ ظنه كان خاطئاً وأنّ صديقه كان بريئاً! فتألّم كثيراً لذلك، ولقد رأيته يبكي بحرقة، وعندما سألته عن السبب؟ قال لي: أنا لا أبكي لموته ولكن لما صارحته به من فقدان ثقتي به، مع أنّ الأمر كان خلاف الواقع. فمثل هذا الشخص يبقى معذّباً إذا كان صاحب وجدان وضمير حيّ.

فمن ذا الذي يصحّح يقين الإنسان والحال هذه؟ لا شكّ لا أحد غير الله عزّ وجلّ، ولا طريق لذلك إلا الدعاء! قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾[1].

إنّ الإنسان الذي لا يدعو الله تعالى لا يستحقّ العناية الإلهية، ومن لا يستحقّ العناية فليس من الحكمة أن يُعطاها. إنّ الطفل مهما كان عزيزاً عند أبويه فإنّهما لا يعطيانه صكّاً نقدياً كبيراً ليلعب به مع الصبية في الطرقات، لأنّه غير مدرك لقيمته، وقد يباغته شخص ويسرقه منه. فإذا كان الأبوان حكيمين فإنّهما لا يعطيانه الصك مهما بكى وألحّ، إذ ليس من الحكمة إعطاؤه. وهكذا الإنسان غير المستحقّ لعناية الله تعالى، ليس من الحكمة أن يعطاها.

ولذلك نرى الأئمّة صلوات الله عليهم اجمعين يتضرّعون إلى الله عزّ وجلّ في دعائهم، تضرّعاً لا يبلغه سواهم، وهم الذين خلقهم الله تعالى في الذروة وطهّرهم من كلّ رجس، والروايات في هذا المجال كثيرة وما وصلنا لا يشكّل إلا نزراً يسيراً لأنّ أكثر عبادتهم عليهم السلام كانت في الخفاء، وهذا هو شأن من يعبد الله عزّ وجلّ حقّ عبادته لمّا وجده أهلاً للعبادة.

فحال الأئمّة المعصومين سلام الله عليهم مع المولى تعالى شأنه؛ هو أنّهم رأوه أهلاً للعبادة، فبالغوا في عبادته ودعائه والتضرّع إليه، وما ظهر لنا في هذا المجال عنهم صلوات الله عليهم لا يمثّل إلا القليل النادر مما لم يظهر أو لم يُنقل.

---

(١) الفرقان: ٧٧.

استصلاح الفساد

يقول الإمام سلام الله عليه بعد ذلك: **واستصلح بقدرتك ما فسد منّي.**

الاستفعال في اللغة وُضع في الأصل لطلب وقوع الفعل، ولكنّه قد يأتي بمعنى الإفعال، كما في قول الإمام «استصلح» فهو بمعنى «أصلح» وكما في دعاء التوبة المرويّ عنه عليه السلام: «**يا من استصلح فاسدهم بالتوبة**»[1].

الإصلاح بحاجة إلى قدرة الله تعالى

في هذا الدعاء يطلب الإمام سلام الله عليه من الله تعالى أن يتدارك أمر الإصلاح بقدرته. وهذا الطلب يوحي أنّ هذا المجال (أي إصلاح ما فسد من الإنسان) صعب جداً، بحيث يتطلّب تدخّل القدرة الإلهية.

الإنسان معرّض للفساد فقد يقع فيه وقد لا يقع، والكلام هنا عن

---

(١) الصحيفة السجّادية، دعاء ١٣ في التوبة.

فعلية الفساد ووقوعه، لأنّ الإمام يقول: «ما فسد منّي» لا ما يقتضي أن يفسد، وليس كلّ فاسد يمكن إصلاحه بسهولة، علماً أنّ كلمة «ما» الموصولة في قوله سلام الله عليه: (ما فسد منّي) تفيد العموم والسعة والشمول، فتشمل ما فسد من أمور الدنيا والآخرة، ومن البدن والنفس، وكذا في المسائل المالية والنفسية والاجتماعية وغيرها.

ولا يخفى أنّ الإمام هنا بصدد تعليمنا وإرشادنا[1]، فمعنى قوله سلام الله عليه هو: إنّ الإنسان لا يقوى على إصلاح ما فسد منه دون الاعتماد على قدرة الله تعالى وتوفيقه، فكلّ منا يمكنه أن يكون من خيار الناس، كما يمكن أن يكون من شرارهم ـ والعياذ بالله ـ فهؤلاء الأشرار الموجودون في المجتمع والذين بقوا كذلك حتى آخر عمرهم كانوا أناساً أيضاً، ولكنّهم لم يريدوا الصلاح، ولا استعانوا بقدرة الله تعالى لإصلاح ما فسد منهم، فاستمرّوا على ما هم عليه.

إنّ إصلاح الفاسد بحاجة إلى الدعاء، ولذلك يقول الإمام سلام الله عليه: «واستصلح بقدرتك ما فسد منّي».

---

(١) أي وضع نفسه مكان السائل ليبيّن فداحة الأمر لنا.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلى محمَّدٍ وَآلِهِ، وَاكْفِني مَا يَشْغَلُني الاِهْتِمَامُ بِه، وَاسْتَعْمِلْني بِمَا تَسْأَلُني غَداً عَنْه، وَاسْتَفْرِغْ أيّامي فِيما خَلَقْتَني لَه.

☑ ما يشغل الإنسان

☑ العمل للآخرة

☑ التفرّغ لعبادة الله تعالى

ما يُشغل الإنسان

هناك أمور ومسؤوليات تقع على عاتق الإنسان، منها ما هو كفائيّ ومنها ما هو عينيّ ـ وهو مرادنا في البحث ـ . فالعينيّ هو الأمر الذي لا يسقط عن الإنسان بإتيان الغير له كالصلاة والصوم والحجّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بعض أقسامه، والزكاة والخمس. لكن من العيني ما يكون الغرض منه التحقّق، فلو قام به شخصٌ سقط عمّن وجب عليه.

مثلاً: شخصٌ قدم من بلاد نائية إلى الحوزة العلمية من أجل تلقّي الدراسة، وبينا هو منغمس في الدراسة ومترقّب للامتحانات إذ يأتيه الخبر أنّ أباه قد ابتلي بمرض ما وأنّه بحاجة ماسّة إلى دواء يجب أن يبحث عنه مهما كلّف الأمر ويوصله إليه بأسرع ما يمكن، فهذا واجب عينيّ ولكن لا يشترط أن يقوم به المكلّف نفسه، بل يجوز أن يقوم به غيره نيابة عنه.

ههنا لا شكّ أنّ هذا الأمر سيشغل بال هذا الطالب واهتمامه، لأنّه أوجبُ عليه حتى من تحصيل العلم بل من كلّ العبادات، لتزاحم الأمر بين ما يخشى عدم دركه؛ لفواته، وبين ما يمكن دركه؛ لعدم فواته. لذا

يكون الواجب المطلوب منه تحقيق الأمر وإيصال الدواء المعيّن إلى أبيه على أيّ نحو كان، حتى لو استأجر شخصاً أو التمس من صديق أن ينوب عنه بذلك، ولا يشترط أنِ يقوم الطالب بالبحث عن الدواء وحمله إلى أبيه بنفسه إلا إذا انحصر الطريق به، فحينها يقوم به.

في مثل هذه الحالة إذا كان الفرد حائراً لا يجد من يكلّفه للقيام بهذه المهمّة، فهو من جهة يشعر بأن ما عرض له هو أمر لابدّ من استجابته، لأنّه واجب عليه شرعاً وعرفاً وعقلاً وعاطفة، ومن جهة أخرى يرى أنّه إن قام بالواجب بنفسه فسوف يتأخّر عن دراسته ربما لمدّة عام كامل. وبينما هو مهتمّ ومنشغل في هذا الأمر وخوف فواته، ومتأثّر لأنّه سيتأخّر عن دراسته فيما لو استجاب له بنفسه، يتّجه حينها إلى الله تعالى فيقول: إلهي أنت أدرى بنيّتي وبحالي فاكفني هذا الأمر الذي يشغلني الاهتمام به عن أمر هو الآخر محبوب لديك، وهو تلقّي العلم الذي طويت لأجله كلّ هذه المسافات، فقيّض لي من يكفني أمر استحصال الدواء وإيصاله حتى لا أنشغل بسببه عن دراستي.

ويتّفق في الأثناء أن يحصّل الدواء وأن يلاقي شخصاً من أبناء منطقته يروم السفر إليها فيوافق على إيصال الدواء، والأمر في كلا الحالين متعلّق بإرادة الله تعالى، ولذلك ينبغي للإنسان المؤمن أن يتوجّه بالدعاء إلى الله تعالى في هذه الحالات، وما أكثرها في الحياة وفي مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها، وعلى مستوى الفرد والجماعة، فإنّ الإنسان في الغالب مبتلى طيلة حياته بطريقين بينهما تزاحم، وكلاهما مهمّان، أحدهما يكون على النحو الأوّل، أي الذي لابدّ للانسان أن يقوم بأدائه بنفسه كالدراسة وطلب

العلم ـ فهل يمكن أن تنيب شخصاً في الدراسة عنك ثمّ تصير عالماً؟ لا يمكن هذا بالطبع ـ والآخر على النحو الثاني الذي يمكن إيعازه إلى شخص آخر يقوم به بالوكالة و النيابة.

وبما أنّ الله تعالى مسبّب الأسباب، لذا يطلب منه الإمام سلام الله عليه أن يكفيه الأمر الذي يشغله بأيّ نحو شاء، حتى يتفرّغ للأمور الضرورية التي لابد من قيامه بذاته لأدائها، ولا ينشغل عنها بالأمور التي يمكن لغيره أن يقوم بها نيابة عنه أو أصالة، فضلاً عن الأمور التي لم يُخلق من أجلها ولا يُسأل عنها يوم القيامة.

فبعد أن طلب الإمام من الله تعالى أن يكفيه ما يشغله الاهتمام به، توجّه إليه بالسؤال مباشرة أن يعينه لكي يصرف الوقت الذي حصل له بسبب ذلك في الأمور التي سيُسأل عنها يوم القيامة.

وإذا ما عرفنا أنّ الدعاء وحده لا يكفي بل لابد للإنسان من السعي نحو ما يدعو ويسأله من الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾[1]، كما أنّ السعي من دون الدعاء لا ينفع؛ لقوله عزّوجل: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾[2]، إذا عرفنا ذلك تبيّن لنا أنّ علينا التفكير والسعي ـ إلى جانب الدعاء ـ دائماً لأن نصرف أعمارنا في ما خلقنا الله تعالى من أجله وما هو سائلنا غداً عنه.

---

(١) النجم: ٣٩.

(٢) الفرقان: ٧٧.

العمل للآخرة

يقول الإمام صلوات الله وسلامه عليه بعد ذلك: واستعملني بما تسألني غداً عنه. أي: وفّقني لأن أتفرّغ للأعمال التي ستسألني عنها غداً. ويبدأ الغد عند كلّ إنسان من ساعة موته ويستمرّ حتى الآخرة والدار التي يقول الله تعالى عنها: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

فلا بدّ أن تحضر جواباً حين يسألك الله سبحانه وتعالى في اليوم الآخر، ومعلوم ما هي تلك المسائل التي يجب أن تعنى بها والتي ستُسأل عنها غداً. فلن تُسأل: لماذا لم تأكل الأطيب أو تلبس الأنعم أو تركب الأسرع أو تختار ما هو أغلى للعيش وأجمل؟ إني لم أر في الأدلّة الشرعية أنّا سنُسأل يوم القيامة أسئلة من هذا القبيل.

روي عن الإمام الرضا سلام الله عليه أنّه قال: «لو وجدتُ شابّاً من شبّان الشيعة لا يتفقّه في دينه لضربته»[1]. وكلمة الفقه في تعابير أهل البيت سلام الله عليهم يراد بها معنى أوسع وأشمل من المعنى الاصطلاحي للفقه، لأنّه في الاصطلاح الأخير هو العلم الذي يعنى بالأحكام العملية كالعبادات

---

(١) بحار الأنوار: ٧٥ / ٣٤٦.

والمعاملات ونحوها أمّا في المصطلح الروائي فيقصد به تعلّم كافّة مسائل الإسلام الذي تمثّل الأحكام العملية جزءاً منه.

كما أنّ قول الإمام (لضربته) تعبير مجازيّ، وإلا فلم يعهد أنّ أحداً من الأئمّة سلام الله عليهم ضرب أحداً لذلك، وإنّما استخدم الإمام سلام الله عليه هذا التعبير لبيان أهميّة هذا الأمر وأنّه مما يُسأل عنه العبد يوم القيامة.

سيرة النبي مما يُسأل العبد عنه يوم القيامة

ومن جملة ما يسأل عنه العبد المسلم يوم القيامة سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ومدى الاقتداء به والعمل وفق ما أرشد إليه القرآن الكريم؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1].

بل من الواجبات على كلّ مسلم أيضاً الدفاع عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله إزاء الذين يكذبون عليه صلى الله عليه وآله. فما أكثر المتطاولين على قداسته صلى الله عليه وآله من الذين يفترون الأكاذيب بحقّه، سواء كانوا من غير المسلمين أم من الذين يزعمون أنّهم مسلمون[2].

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) لقد رأيت أخيراً كتاباً لأحد المستشرقين مترجماً في إحدى البلاد الإسلامية، وكانت الترجمة مطبوعة عدّة طبعات حتى أنّ النسخة التي حصلت عليها كانت من الطبعة السابعة أو الثامنة! يختلق الكاتب على رسول الله صلى الله عليه وآله أموراً ما تُنبئ عن استمرار النفَس اللاأخلاقي الذي كال التهم لأنبياء الله ورسله من قبل، مع أنّ كلّ كتب التاريخ بما فيها كتب المنصفين من المستشرقين تشهد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله هو أطهر إنسان خلقه الله. فمن الذي يجب أن يتصدّى للردّ على مثل هذه التخرّصات، خصوصاً وهي تحدث في بلد إسلامي وتشجّع عليه، حتى أنّها طبعت هذا الكتاب وفي مدينة واحدة من مدنها أكثر من سبع طبعات.

إنّ الاقتداء بسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله بعد معرفة سيرته هي من أهم ما نُسأل عنها يوم القيامة؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فكيف يتسنّى للمرء أن يقتدي ويتأسّى بالرسول صلى الله عليه وآله وهو لا يعرف سيرته وسنّته في كيفية تعامله مع أصحابه أو مواجهة أعدائه، وكيف كان يتصرّف مع المنافقين، وكيف كان مع أسرته؟ وهكذا في سائر المعاملات، فضلاً عن علاقته مع الله تعالى في عبادته؟ وهكذا في طريقة أكله وشربه ونومه ويقظته وصلاته وصيامه، وجميع فعاله وخصاله.

لاشكّ أنّ ما وصلنا من تاريخ النبي صلى الله عليه وآله وسيرته قليل جدّاً، بل لعلّي أستطيع القول إنّه لو جمعتم كلّ ما في كتب التاريخ والسير والآثار وغيرها لما حصلتم على معشار سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله. لكن مع ذلك ينبغي لنا أن نصمّم على الاقتداء به صلى الله عليه وآله في كلّ ما وصلنا مهما قلّ قياساً بما لم يصلنا.

- لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله قمّة في الأخلاق حتى أنّ الله تعالى مدحه في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].
- رغم أنّ القرآن الكريم قد صرّح في مورد واحد ـ قد يكون استثنائياً ـ بخيار ضرب المرأة، إلا أنّه لم يُسمع أنّ النبي صلى الله عليه وآله قد صدر منه هذا الفعل بحقّ أيّ من زوجاته التسع، مع أنّه كانت فيهن من هي من خيرة نساء العالمين كخديجة سلام الله عليها، وكان منهنّ المتوسطات في الفضل، وكان فيهن من تظاهرت عليه، على ما صرّح به القرآن

(١) القلم: ٤.

الكريم في آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي تشدّ إحداكما ظهرها بالثانية فتتآزران ضدّه صلّى الله عليه وآله، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾[١]. ومع كلّ ذلك لم يُنقل أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله استعمل الضرب مع أيّ من زوجاته ولا مرّة واحدة.

- ثَمّ كتاب لكاتب مسيحي طالعته قبل أكثر من عشرين سنة، أرّخ فيه لأعظم مئة شخصية في التاريخ على زعمه. وذكر في المقدّمة أنّه رتّب الشخصيات حسب الأهمية، فالشخصية الأولى في كتابه هي أعظم الشخصيات في نظره على الإطلاق. ولكن الملفت للانتباه أنّه أورد اسم السيّد المسيح بعد نبيّنا صلى الله عليه وآله! وعندما سئل عن السبب مع كونه رجلاً مسيحياً، قال: أنا لم أرتّب التسلسل حسب عقيدتي بل حسب أهميّة الأشخاص ونجاحهم، وإنّي أرى أنّ محمداً أعظم من السيّد المسيح عليه السلام لأنّ محمّداً صلى الله عليه وآله استطاع أن يبثّ في أتباعه روحاً امتدّت عبر القرون المتعاقبة، وكلّما ضعف الإسلام في الدنيا كان هناك أشخاص من أتباعه ممن اتّصلوا بتلك الروح العظيمة يقومون بتجديد الإسلام.

ولعلّ هذا يتطابق مع ما ورد في الأحاديث النبوية كما في قوله صلّى الله عليه وآله: «يَحمِلُ هَذَا الدِّينَ في كُلِّ قَرْن عُدُولٌ يَنْفُون عَنْهُ تَأويلَ الْمُبْطلينَ وتحْريفَ الْغَالينَ وانْتحَالَ الْجَاهلينَ كَمَا يَنْفي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَديد»[٢].

---

(١) التحريم: ٤.

(٢) وسائل الشيعة: ١١ / ١٥٠.

إذاً ينبغي أن يتجسّد فينا معنى التأسّي الحقّ برسول الله صلى الله عليه وآله. والاجدر للمتأسّي برسول الله أن يتصرّف كما لو كان بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله يشهده ويراه، لا كما يحلو له وما تملى عليه شهواته أو كما توجّهه بيئته فيميل يميناً ويساراً، ولا أن يبتدع سلوكاً من عنده، بل عليه أن يطبّق سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله بحذافيرها.

روي أنَّ جَمَاعَةً منَ الصَّحَابَة كَانُوا قَد حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ النِّسَاءَ والإفطَارَ بالنَّهَار والنَّوْمَ باللَّيْل. فَأَخْبَرَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَسُولَ اللَّه صلّى الله عليه وآله، فَخَرَجَ إلى أَصْحَابه فَقَال: «أ تَرْغَبُونَ عَنِ النّسَاء؟ إنّي آتِي النّسَاءَ وآكُلُ بِالنَّهَارِ وأَنَامُ باللَّيْلِ. فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ منّي»[1].

لو عُرضت سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله غلى العالم بنحو موضوعي جادّ، لأقبل عليها الملايين، لأنّ الناس في الغالب غير معاندين. وأكثر المعاندين لم يكونوا كذلك إلا على أثر غسل الدماغ الذي تعرّضوا له بسبب الكمّ الهائل من المواضيع المختلفة المدسوسة؛ ومسؤوليتنا تفرض علينا المساعدة في تطهير هذه الأدمغة من تلك الرواسب العالقة بها.

نقل لي أحد الأصدقاء قال: وجّه شخص عبر الشبكة المعلوماتية (الإنترنت) نقداً لاذعاً لبند من بنود الإسلام، وترك عنوان بريده (الإلكتروني) للردّ عليه، وكان نقده مصحوباً بالسبّ والشتائم، فانبرى له أحد المؤمنين في الردّ عليه ردّاً علمياً موضوعياً خالياً من التجريح ومستنداً إلى المصادر. يقول راوي القصة: فكتب الأول في اليوم الثاني جواباً يبيّن فيه أنّه يعتذر عما بدر منه في هذا المجال لأنّه كان قد

---

(١) وسائل الشيعة: ٢٠ / ٢١ باب كراهة العزوبة وترك التزويج.

تشوّش فكره بسبب تلك الإثارات الفاسدة، وأنه لم يكن يعرف الموضوع حقّ معرفته!

فما أكثر أمثال هؤلاء وما أعظم مسؤوليتنا في هذا المجال!

لقد أسّس السيّد البروجردي رحمه الله مركزاً إسلامياً في هامبورغ في ألمانيا، وبعث مبلّغاً دينياً هناك. فطُلب من هذا المبلّغ أن يعطيهم صورة للسيد البروجردي لعرضها من خلال التلفزيون. ففكر المبلّغ أيّ صورة ستكون مؤثّرة أكثر لو عرضت، وانتهى تفكيره إلى أن يعطيهم صورة السيّد وهو يتوضّأ؛ لما تعكس من خشوع السيّد حال تهيّئه للقاء الله تعالى في الصلاة.

يقول هذا المبلّغ: ما إن عرض هذا الفيلم - الذي يصوّر وضوء السيّد البروجردي - حتى أثار في نفوس المشاهدين روح الحبّ والولاء، فأسلم في اليوم نفسه عددٌ من النصارى ممن شاهدوا الفيلم.

فإذا كان هذا تأثير مشاهدة صورة وضوء السيّد البروجردي وهو بمثابة أصغر تلميذ للنبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله فكيف بالتأثير الذي تتركه سيرة النبي صلّى الله عليه وآله فيما لو عرضت بصدقٍ على الناس؟!

فلنتزوّد بمعرفة السيرة الصحيحة لنبيّ الإسلام بمقدار ما أوتينا من طاقة وإمكانات، ولنسعَ لإفهام الآخرين وتنويرهم بها؛ فإنّه لو عرضت السيرة الصحيحة لنبيّ الإسلام على العالم لغيّرت التاريخ برمّته. وما أسرع تغيّر العالم في هذا الزمان!

نسأل الله تعالى أن يستعملنا بما يسألنا غداً عنه، وأن يوفّقنا للمزيد من معرفة سيرة النبي صلى الله عليه وآله والتأسّي به.

التفرّغ لعبادة الله تعالى

قال الإمام سلام الله عليه بعد ذلك: «**واستفرغ أيّامي فيما خلقتني له**».

الاستفراغ على وزن استفعال، والأصل في هذا الباب الطلب أو ما يقع نتيجة الطلب، ولكن تقدم أنّه قد يستعمل بمعنى الثلاثيّ المجرّد، وقد ورد كثيراً هذا النحو من الاستعمال في القرآن الكريم أيضاً، ويكون معناه يا إلهي أنت تولّ هذا الأمر واكفنيه.

والاستفراغ مشتقّ من الإفراغ، فكأنّ الإمام سلام الله عليه يقول: اللهم اجعل أيّامي فارغة من كلّ أمور الدنيا لملئها بما خلقتني له. وهذا تعبير مجازيّ. فالإمام سلام الله عليه يشبّه الأيّام بالإناء الذي تفرّغه من محتوياته من أجل أن تملأه بما تحبّ.

وهذه الجملة ليست تكراراً للجملة السابقة، أي قوله سلام الله عليه: واستعملني بما تسألني غداً عنه؛ وذلك للأمور التالية:

١. اختلاف الظهور بين الجملتين.

٢. ظهور واو العطف في الاثنينيّة؛ توضيحه: إذا قيل: جاء زيد وأبو عمرو، فالمتبادر أنّ شخصين جاءا أحدهما زيد والآخر أبو عمرو، فهذا هو الاستعمال الحقيقي للواو، ولا يقال إنّ الجائي

واحد إسمه زيد وكنيته أبو عمرو إلا أن يكون مجازاً وليس استعمالاً حقيقياً . وهنا أيضاً طلبان عطف الإمام فيهما الثاني على الأوّل بالواو، فقال سلام الله عليه أوّلاً : «استعملني بما تسألني غداً عنه»، ثمّ عطف الطلب الثاني فقال: «واستفرغ أيّامي فيما خلقتني له». وإذا كان واو العطف يفيد الاثنينيّة، أي له ظهور فيها، فالظاهر أنّ الإمام سلام الله عليه أراد هنا أمرين، فلا تكرار في البين.

٣. إنّ السؤال لا يكون إلا عن الواجبات والمحرّمات، أمّا فيما عداهما فقد يكون هناك إستفسار، هذا أوّلاً، وثانياً: قوله سلام الله عليه فيما خلقتني له، أعمّ من الواجبات والمحرّمات، فيكون معنى هذه الجملة كالتالي: (يا إلهي أنت خلقتني في هذه الدنيا لهدف ما، فأفرغ أيّامي له)، فيما يكون معنى الجملة السابقة: (ياإلهي إنّك ستسألني يوم القيامة عن أمور، فاجعلني في هذه الدنيا عاملاً لها ملتزماً بها).

الهدف من الخلق

إذا كان الإمام سلام الله عليه يعلّمنا أن نسأل الله تعالى أن يفرّغ أيّامنا فيما خلقنا له، فما هو الهدف الذي خلقنا الله من أجله؟

يقول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1]؛ إذن الهدف من خلقنا هو عبادة الله تعالى. وعبادة الله تعالى تتحقّق من خلال الامتثال لأوامره والانتهاء عن نواهيه. ومن المعروف

---

(١) الذاريات: ٥٦.

لدى الفقهاء أنّ الأوامر الإلهية منها ما هو واجب الامتثال على العبد، ويعاقب تاركه، ومنها ما هو مستحبّ، أي ندب إليه الشرع، فهو مرغوب شرعاً ولكن لا يعاقب الشارع على تركه. وهكذا النواهي الشرعية فمنها ما يجب على المكلَّف اجتنابها ويعاقب إن ارتكبها، وهي التي تسمّى المحرّمات، ومنها ما لا يعاقب الشرع من أتى بها وإن كانت غير مرغوبة لديه وهي التي يصطلح عليها بالمكروهات.

ومن الواجبات الشرعية الأمر بالمعروف، أي الأمر بما رغب الشرع فيه، والنهي عن المنكر، وهو ما أنكره الشرع. وهذان الواجبان من الواجبات المهمّة والعظيمة في الإسلام، ولا خلاف في أصل وجوبهما.

ولكن وقع بحث بين الفقهاء مفاده: هل المقصود بالأمر بالمعروف هو الأمر بالواجب من المعروف فقط دون المستحبّ منه؟ وهكذا النهي عن المنكر بحيث لا يجب النهي عن المنكر المكروه أيضاً، ويقتصر الوجوب على النهي عن المنكر الحرام؟

شكّك بعض الفقهاء في إطلاق المسألة، وقالوا: إذا كان الأمر بالمستحبّ والنهي عن المكروه من باب حثّ الفرد وترغيبه في أداء العمل المستحبّ وثنيه عن العمل المكروه فقط فهما مستحبّان لاشكّ في ذلك، أمّا إذا كانا ـ الأمر والنهي ـ من باب بيان حكم من أحكام الله تعالى، فقد يدخلان في الوجوب.

فمثلاً: اذا كان شخص عالماً باستحباب صلاة الغفيلة أو صلاة الليل، ولا يؤدّيهما تثاقلاً، فأمره بهما مستحبّ كما هو واضح، وهكذا نهي من كان عالماً بكراهية فعل من الأفعال، ولكن قد يجب الأمر والنهي ـ برأي بعض الفقهاء ـ إذا كان الآمر بالمستحبّ أو الناهي عن المكروه في موقع

بيان أحكام الله تعالى وتعريفها للذين يجهلونها.

ولأصحاب هذا الرأي أدلّتهم في هذا المجال وليس هنا محلّ بحثها، ولكني ذكرتها استطراداً في بيان أنّ الهدف من خلقنا هو عبادة الله تعالى، وهذا أعمّ من أن تكون هذه العبادة امتثالاً لواجب أو مستحبّ أو انتهاء عن حرام أو مكروه، لاشتمالها على كلّ ما أمر الله أن يؤتى به سواء كان أمراً بواجب أم مستحبّ، أو كان نهياً عن محرّم أم مكروه.

ولذلك عقّب الإمام عليه السلام بقوله: «**واستفرغ أيّامي فيما خلقتني له**».

أفضل العبادة

روى البزنطي[1] أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «**أفضل العبادة إدمان التفكّر في الله وفي قدرته**»[2].

لاشكّ أنّ المقصود ـ في الرواية ـ بالتفكّر في الله تعالى هو التفكّر في قدرته عزّ وجلّ[3]، فإنّ التفكّر في ذاته ـ فضلاً عن النهي عنه شرعاً ـ

---

(١) هو أحمد بن محمد بن أبي نصر، من أصحاب الإمام الكاظم والإمام الرضا سلام الله عليهما وقيل: إنّه أدرك الإمام الجواد سلام الله عليه أيضاً. وهو أحد ثلاثة أشخاص ثانيهما محمد بن عمير، والثالث صفوان بن يحيى، انعقد إجماع الفقهاء على العمل برواياتهم.

(٢) بحار الأنوار: ٦٨ / ٣٢١. روى الكليني رحمه الله في الكافي رواية بسندين معتبرين عن البزنطي، في سلسلتها عبارة «عن بعض رجاله» وهذا معناه أنّ أحد الرواة مجهول، ولكن الشيخ الطوسي رضوان الله عليه ذكر أنّ إجماع الطائفة جرى على العمل بما رواه البزنطي إلا ما خرج بدليل. وهناك روايات كثيرة بهذا المضمون ولكن إن قلنا إنّ بعضها غير معتبر سنداً فهذه الرواية معتبرة سنداً؛ لما تقدّم.

(٣) قال المجلسيّ رحمه الله: «وفي قدرته» عطف تفسيري نقوله «في الله» فإنّ التفكّر في ذات= = الله وكنه صفاته ممنوع. (بحار الأنوار: ٦٨/ ٣٢١ ح٣).

لا يوصل إلى نتيجة ولا يزيد صاحبه إلا ضلالاً، وذلك لأنّ المحاط بـه لا يمكن أن يحيط بمحيطه كما هو الحال فـي المـسائل المادّيـة، ويمكـن تقريب الأمر إلى الذهن بمثـال الإنـاء، فهـل يمكـن لمحتـواه أن يحـيط بمحيطه الخارجي؟!

إذاً المقصود بالتفكّر في الله تعالى هـو التفكّـر فـي صـفاته الثبوتيـة والسلبية، بمعنى التفكّر في عظمته تعالى.

وهذه الرواية تنسجم مع الروايات الكثيرة التي تقـول: «لَيسَ الْعبـادةُ كَثْرةَ الصِّيام والصَّلاة وإنَّمَا الْعبادةُ الْفكْرُ في اللَّه تَعالى»[١].

ثمّ إنّ الرواية المتقدّمة في كون «الإدمان على التفكّر أفـضل العبـادة» ناظرة الى العبادات المستحبّة إذا حصل بينها تزاحم، ولا تصل النوبة الـى العبادات الواجبة ومنها الصلاة المفروضة بحال . نعـم اذا حـصل تـزاحم بين أداء صلاة مستحبّة والتفكّر في الله فالتفكّر مقدّم لأنّه أفضل العبادات المستحبّة.

على أنّ التفكّر لا يشترط فيه وقت كثير بل هو بحاجـة إلـى تركيـز وتدبّر، فإذا كثر التدبّر والتركيز حصلت عند الإنسان ملكة تجعلـه يـشعر بحضور الله تعالى دوماً، ولذلك روي أنّ «أشدّ العبادة الورع»[٢].

بناء النفس والتفكّر في الله عزّ وجل

الإنسان ضعيف ولكنّه لا يشعر بضعفه فيتكبّر ويتهـاون بأحكـام الله

---

(١) وسائل الشيعة: ١٥ / ١٩٧ باب استحباب التفكر.

(٢) الكافي: ٢ / ٧٧، ح٥.

تعالى، فقد يترك ما أمر الله تعالى به أو يأتي بما نهى عنه سبحانه، ولكنّه إذا أدمن التفكّر في جبروت الله وقدرته، استحضر حينها ضعف نفسه، وفي هذا مقدّمة لأن يسعى المرء في سبيل أداء التكاليف الإلهية.

وعلى قدر معرفة الانسان بالله تعالى وقدرته يكون اهتمامه بأحكام الله، فالذي لا يبالي بالقيام لأداء فريضة الصبح مثلاً، غير متفكّر في الله تعالى وقدرته، وإلاّ لشعر بحضوره ورقابته ولما استهان بأحكامه، وإلا فهل يعقل أن يشعر العبد بحضور مولاه ثمّ لا يكترث بما أراده منه؟!

إنّ التفكر في الله عزّ وجلّ يؤدّي إلى تعزيز الشعور بحضوره تعالى لدى العبد، الأمر الذي يؤدّي بدوره إلى تغيّر سلوك الانسان وحالته، فيكون الأمر كما لو وُجّه إلى إنسان عاديّ سؤال في مجال معيّن- ولنفرض الفقه أو الطبّ ـ وكان قد حضر في المجلس رجل متخصّص في ذلك المجال، فقد يجيب الشخص على السؤال بسرعة إذا لم يكن يعرف من الحاضر في المجلس، ولكنه ما إن يعرف الحاضر المتخصص حتى يظهر ذلك على سلوكه فيحاول أن لا يجيب لأنّه لا يرى نفسه أهلاً للإجابة على ذلك السؤال مع علمه بحضور من هو أعلى مرتبة منه، أو يدقّق كثيراً قبل أن يجيب، ملاحظة لذلك الإنسان المتخصّص. الحالة نفسها تصدق على انضباط الانسان إذا شعر بحضور الله تعالى، وهذا الشعور لا يتأتّى إلا بعد الإدمان على التفكّر في قدرة الله سبحانه وتعالى.

إذا كان الفرد يشعر بأن الله تعالى موجود قيّوم حاضر عنده على الدوام، فإنّه لا شك سيغيّر وضعه ويدقّق في أفعاله وأقواله ويتورّع قبل الاسترسال فيها لئلاّ يصدر عنه ما يخالف أوامر الله وهو الرقيب عليه.

أمثلة من الواقع

- نقل لي أحد الخطباء: كنت ذات يوم على المنبر وقد هيّأت نفسي للمحاضرة، وعندما شرعت بقراءة المقدّمة إذ دخل أستاذي الى المجلس، فاختلّ حينها عرضي للموضوع الذي أعددته، بسبب تهيّبي من حضور الأستاذ!
- وكان السيّد الوالد[١] رحمه الله يحضر مجلساً لأحد الخطباء، فجاءه في أحد الأيّام ـ وكنت حاضراً عنده ـ وقال له: سيّدنا أنا أتشرّف بحضورك مجلسي، ولكن أرى من الأفضل أن يتزامن وقت حضوركم مع نهاية المجلس حيث أكون قد دخلت في فصل قراءة التعزية!

لاشكّ أنّ الخطيب يُسرّ إذا حضر مرجع التقليد مجلسه، ولكنّه في الوقت نفسه يشعر بالتقيّد أيضاً، لأنّه قد يريد أن ينقل حديثاً أو يفسّر آية، أو يشرح مسألة فقهية أو يفصّل قضية عقائدية، فيشعر بالحرج والإرباك مخافة أن لا يكون كلامه مستدلاً بنحو صحيح.

النعم المادّية وسيلة اختبار ومقدّمات وجود

في الوقت الذي تعدّ فيه النعم الماديّة وسيلة لاختبار الإنسان ليُعرف أمفْرِط هو أم مفرّط، كذلك هي مقدّمات لابدّ من وجودها لكي يستطيع الانسان العيش في هذه الدنيا وأداء وظائفه الموكلة إليه، فيعبد الله عزّوجلّ ويتعلّم أحكامه ويعلّمها الناس، فيدرس ويدرّس ويعظ الناس ويؤلّف الكتب ويرتقي المنبر و. . . الخ

---

(١) إشارة الى آية الله العظمى السيّد ميرزا مهديّ الحسيني الشيرازي قدّس سرّه.

إنّ الله سبحانه وتعالى لم يخلق الانسان في هذه الدنيا من أجل الأكل والشرب وسائر اللذات الدنيوية، وإنّما خلقه تعالى من أجل اختباره بها وجعلها مقدّمات وجودية لأجل أن تمكّنه من أداء الأمور الأخرى التي خلقه الله تعالى لها، لكن الشيطان يحاول دائماً أن يوقع الانسان في الإفراط أو التفريط ليفشله في الاختبار الإلهي بواسطة عرقلته عن الاستفادة منها كمقدّمات وجوديّة للعبادة، أي لا يستفيد منها بالنحو الصحيح، فيرتكب من خلالها المعاصي ويترك الطاعات.

فلننتبه جيّداً ولنحذر وساوس الشيطان ومكائده، ونتعامل مع هذه النعم على أنّها مقدّمات لإيصالنا إلى النعم الأخروية الخالدة التي خلقها الله لعباده المؤمنين، ولنراعِ الدقّة في قضايانا، وهذا معنى ما نُقل عن الإمام الصادق سلام الله عليه أنّه قال لأصحابه: «**فالطفوا في حاجتي كما تلطفون في حوائجكم**»[1].

فكما أنّ أحدنا يلطف في سبيل قضاء حوائجه الدنيوية، فيفكّر في أفضل طريق ويسعى في رفع الموانع والعوائق، ويترك أعماله وأشغاله ويتحمّل أنواع المشاكل والمشاقّ في سبيل ذلك، فلنكن كذلك في الاستجابة لإمامنا التي عبّر عنها بحوائجي، والتي هي حوائجنا الأخروية.

---

(١) الكافي: ٢ / ٢٢٢.

وَأغْنِني وَأوْسِعْ عَلَيَّ في رِزْقِكَ، وَلا تَفتنّي بِالنَّظَرِ وَأعِزَّني وَلا تَبْتَلِيَنّي بِالْكِبَرِ، وَعَبِّدْني لَكَ وَلا تُفْسِدْ عِبادَتي بِالْعُجْبِ، وَأجْرِ لِلنّاسِ عَلى يَدِيَ الخَيرَ وَلا تَمْحَقْهُ بِالمَنِّ، وَهَبْ لي مَعالِيَ الأخْلاقِ وَاعْصِمْني مِنَ الفَخْرِ.

☑ الغِنى وسعة الرزق

☑ العزّة وعدم الابتلاء بالكبر

☑ العبادة وآفة العجب

☑ المنّ يمحق عمل الخير

☑ معالي الأخلاق والعصمة من الفخر

الغنى وسِعة الرزق

«وأغنني وأوسع عليّ في رزقك».

الغنى ويقابله الفقر، قد استعملا غالباً على لسان الأدعية والروايات لما هو الأصل فيهما، وهو غنى النفس وفقرها؛ فغنى النفس أصل كلّ غنى وسببه، ومبعث غنى كلّ حواسّ الإنسان ومعقولاته، ولا خير في غنى البدن إذا لم يصاحبه غنى النفس.

أمّا السعة في الرزق فهو جزئيّ أو مصداق من مصاديق الغنى. ومن ثمّ فإنّ قول الإمام سلام الله عليه «أوسع عليّ في رزقك» في المقام هو من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ، لأنّ الغنى أعمّ وأوسع.

أمّا احتمال أن يكون قوله «وأوسع عليّ» عطفاً تفسيرياً على «وأغنني»، وإن صحّ في موارد أخرى فإنّه قد لا يصحّ هنا كما يبدو؛ لبعده عن مقام البلاغة والأدب الرفيع لأهل البيت سلام الله عليهم؛ لأنّ الظاهر أنّ السؤال الأوّل للإمام هو في غنى النفس، أمّا سؤاله الثاني فهو في سعة الرزق خاصّة. والإمام وإن كان في مقام الدعاء، لكن من حيث إنّه إمام فهو في مقام تعليمنا أيضاً، فهو يعلّمنا أن نطلب من الله تعالى غنى

النفس والسعة في الرزق معاً؛ لما سيأتي أنّ الفقر ليس مطلوباً أو ممدوحاً لنفسه بل على الإنسان أن يسعى لدفعه عن نفسه ما أمكنه ذلك، أمّا إذا كان مقدّراً له من الله عُدّ حينها أمراً محبوباً، وفي ذلك وردت الروايات التي تمدح الفقر؛ فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: **الفقر فقران: فقر الدنيا وفقر الآخرة، فقر الدنيا غنى الآخرة، وغنى الدنيا فقر الآخرة، وذاك الهلاك**[١]. وإذا كان الأمر كذلك فلا يهمّ المرء سواء كان مرزوقاً في ماله أم فقيراً ما دامت نفسه غنيّة، فهو في الحالين في معرض الامتحان والابتلاء، وكلا الامتحانين صعب سواء كان في الغنى أو الفقر.

هذا مضافاً إلى أنّ كلمة الرزق استعملت هي الأخرى في الروايات للأعمّ من المال.

الغنى والفقر درجات

الغنى والفقر موضوعان مشكّكان ـ بحسب الإصطلاح المنطقي ـ أي لكلّ منهما مراتب مختلفة تبدأ بالضعيفة ثمّ تزداد وصولاً إلى أعلى المراتب.

عن عبد الله بن مسعود قال: دخلت أنا وخمسة رهط من أصحابنا يوماً على رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أصابتنا مجاعة شديدة ولم يكن رزقنا منذ أربعة أشهر إلا الماء واللبن وورق الشجر؛ فقلنا: يا رسول الله إلى متى نحن على هذه المجاعة الشديدة؟ فقال صلى الله عليه وآله: «لا تزالون

(١) روضة الواعظين: ٤٥٤.

فيها ما عشتم فأحدثوا لله شكراً، فإنّي قرأت كتاب الله الذي أنزل عليّ وعلى من كان قبلي فما وجدت من يدخلون الجنّة إلا الصابرون»[١].

فهذه مرتبة شديدة من الفقر بحيث لا يملك الفرد قوت يومه حتى في أدنى مستويات المعيشة، وهناك مرتبة أضعف منها بأن يملك الإنسان قوت يومه ولكن بمستوى دان أو بمقدار لا يكفيه كما أنّ هناك مرتبة من الفقر يكون مستوى الفرد أحسن من سابقيه لكن لا يملك قوت سنته. فهؤلاء الثلاثة يطلق على كلّهم لفظ الفقير بالاصطلاح الشرعي وإن اختلفت مستوياتهم المعاشية. والشيء نفسه يصدق بالنسبة للغنى، لأنّ الفقر والغنى متقابلان كما هو واضح.

من هنا نلاحظ أنّ الإمام المعصوم ـ مع أنّه متّصل بالله تعالى وهو مصدر الفيض والعطاء ـ مهما أعطاه الله سبحانه من الغنى في النفس فهو يطلب المزيد قائلاً: «وأغنني»، لأنّ الأمر لا يقف عند حدّ، فهناك مجال للمزيد، وعطاء الله تعالى ليس محدوداً أيضاً.

أجل، إنّ المعصومين سلام الله عليهم هم أكثر المخلوقات قاطبة استفاضةً لفضل الله تعالى في مختلف المجالات والميادين، حتى قرنهم الله تعالى إلى نفسه في إفاضة الفضل على الخلق أجمعين، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾[٢] وقال أيضاً: ﴿وَمَا نَقَمُوا إلاّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[٣] ومع ذلك، يرى الإمام المعصوم

---

(١) مكارم الأخلاق: ٤٤٦، في موعظة رسول الله صلى الله عليه وآله لابن مسعود.

(٢) التوبة: ٥٩.

(٣) التوبة: ٧٤.

أنّه بحاجة إلى عطاء الله تعالى وإلى سؤاله المزيد واستزادته في غنى النفس، وإن كان هو بالنسبة إلينا الأغنى والأرقى والأعظم والأعلى والأكبر والأقدر، وذلك كلّه قد تمّ لهم صلوات الله عليهم بفضل الله تعالى. فإذا كان هذا حالهم فكيف بسائر الناس؟

نكتة لغوية

من يدقّق في كلمات أهل البيت سلام الله عليهم يكتشف الكثير من الدقائق واللطائف سواء في الأدعية أو في خطبهم ورسائلهم وفي سائر كلماتهم الأخرى.

ففي هذا المجال والذي عبّر عنه سلام الله عليه بالرزق، أرى من المناسب الإشارة إلى نكتة لغوية لطيفة، تتلخّص بأنّ الإمام لماذا لم يقل: «وسّع عليّ في رزقك» وقال: «أوسع عليّ في رزقك»؟

وفي الجواب نقول: إنّ من مبادئ علم الصرف في صيغتي «فعّل» و«أفعل» أنّ كليهما يستفاد منه لتعدية الفعل اللازم، ولكن علماء الأدب يقولون: إنّ الصيغتين تختلفان في المعنى.

فأصل التوسعة يستفاد من باب الإفعال (أوسع) أمّا باب التفعيل (وسّع)، فيستفاد منه التكثير والزيادة وما أشبه في الغالب[1].

فالمستفاد من كلمة (وسّع) يعني زيادة التوسعة. أمّا أصل تحقيق السعة إن لم تكن ـ أو كانت ولكن لندرتها الشديدة وكأنّها لم تكن ـ

(١) كما ذكر ذلك وفصّله الشيخ الرضي(رضي الله عنه) في شرحه على الكافية، وورد البحث في كتب اللغة إجمالاً.

فتفيدها كلمة (أوسع).

إذا اتّضحت هذه المقدمة نفهم لماذا قال الإمام سلام الله عليه: «أوسع» ولم يقل: «وسّع»، وهو أنّه سلام الله عليه يطلب الكفاف من الله تعالى في الأمور المادّية، كما هو دأب أهل البيت سلام الله عليهم.

كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إِنَّ مَاقَلَّ وكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وأَلْهَى، اللَّهُمَّ ارْزُقْ مُحَمَّداً وآلَ مُحَمَّدٍ الكَفَافَ»[1].

أما ما ورد في أدعية أُخرى من السؤال بصيغة (وسّع)، فقد يشير إلى أنّ المعصوم سلام الله عليه كان يطلب السعة في الرزق لأجل أن يستفيد منه لخدمة الدين وسائر الأمور الخيرية، كصلة الرحم ومساعدة الفقراء وما أشبه.

إنّ هناك موارد يدعو فيها الإمام المعصوم ويكون في مقام الدعاء من قبل نفسه فقط، وهناك موارد يكون الإمام بصدد تعليمنا وإرشادنا أيضاً من قبيل تعليم الأئمة سلام الله عليهم المباشر لبعض أصحابهم، كقولهم سلام الله عليهم مثلاً: (قل بعد كلّ فريضة) وما أشبه، كما هو الحال في بعض

---

(١) الكافي: ٢/ ١٤٠ باب الكفاف.

مَرَّ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله براعي إبل، فَبَعَثَ يَسْتَسْقيه، فَقَال: أَمَّا مَا في ضُرُوعِهَا فَصَبُوحُ الْحَيِّ، وأَمَّا مَا في آنِيَتِنَا فَغَبُوقُهُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله: اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ ووُلْدَهُ. ثُمَّ مَرَّ براعي غَنَمٍ فَبَعَثَ إِلَيْه يَسْتَسْقيه فَحَلَبَ لَهُ مَا في ضُرُوعِهَا وأَكْفَأَ ما في إِنَائه في إِنَاء رَسُول اللَّه صلى الله عليه وآله وبَعَثَ إِلَيْه بشَاة وقَال: هَذَا ما عِنْدَنا وإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ نَزِيدَكَ زِدنَاك؟ فَقَال: رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله: اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ الْكَفَافَ. فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابه: يا رَسُولَ اللَّه دَعَوْتَ للَّذي رَدَّكَ بدُعَاء عَامَّتُنَا نُحبُّهُ، ودَعَوْتَ للَّذي أَسْعَفَكَ بحَاجَتكَ بدُعَاء كُلُّنَا نَكْرَهُهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله: إِنَّ مَا قَلَّ وكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وأَلْهَى، اللَّهُمَّ ارْزُقْ مُحَمَّداً وآلَ مُحَمَّدٍ الكَفَاف.

الزيارات. فثمّة زيارات أدّاها الإمام المعصوم للإمام الـذي سـبقه كزيـارة الإمام السجّاد لأبيه الإمام الحسين سلام الله عليهما أو زيارة الإمام الصادق لجدّه الإمام أميرالمؤمنين أو الإمام الحسين سلام الله عليهم، وهناك زيـارات علّموهـا بعض أصحابهم، فنقرأ في رواية أنّ الإمام سلام الله عليه قال لأحدهم: زر بهذه الزيارة، وأمثال ذلك[1].

نكتتان بلاغيّتان

هناك نكتتان بلاغيتان في قول الإمام، الأوّل قوله: «وأوسع عليّ»، فإنّ حرف الجرّ «على» يستعمل للضرر إلا لنكتة بلاغية، فكأنّ الإمـام أشـربه وضمّنه معنى الفوقية. فهو يصوّر نزول الـرزق مـن الله تعـالى وانـصبابه على الإنسان وإحاطته به، كالرحمة التي مُثّل لها بالمطر النازل من السماء حين يغمر الانسان الذي يقف تحته، وحيث إنّ سعة الرزق صـادرة مـن الله تعالى فقد ضُمّنت وأشربت معنى الفوقية، ولذلك قال الإمام سلام الله عليه: «وأوسع عليّ».

أمّا النكتة الأخرى فهي: لِم استعمل الإمام حرف الجـر «فـي» فقـال:

---

(١) إذا تمعّنتم في كلمات الزيارة التي يزورها الإمام خاصّة وتلك التي يعلّمها الأصحاب والشيعة لرأيتم بعض الفرق، فمثلاً توجد في زيارة أنصار الإمام الحسين سلام الله عليه في آخر زيارة الإمام الحسين سلام الله عليه المعروفة بزيارة «وارث» عبارة: بأبي أنتم وأمّي، يخاطب بها أنصار الإمام الحسين سلام الله عليه. ولو نظرتم إلى سند هذه الزيارة لرأيتم أنّها الزيارة التي علّمها الإمام الصادق سلام الله عليه صفوان وقال له: زر بهذه الزيارة (يعني زيارة وارث). أما الإمام الصادق سلام الله عليه وهو إبن المعصوم فلا ينبغي أن يخاطب غير المعصوم ـ مهما عظم قدره ـ بقوله: بأبي أنت وأمّي، إذن فهو سلام الله عليه قد زار جدّه الحسين سلام الله عليه بزيارة أُخرى. وهذه من النكات اللطيفة.

«وأوسع علي في رزقك» ولم يقل: من رزقك، كما في أدعية أُخرى؟

الجواب: حرف الجر (من) إمّا تبعيضية أو بيانيـة. فلـو رفعنـا «فـي» ووضعنا «من» مكانها، فإمّا أن يكون المعنى «أوسع عليّ بعض رزقك» أو «أوسع عليّ رزقك» لأنّ وجود (مـن) فـي الحالـة الثانيـة يكـون وجـوداً لمحيّاً أو لجمال التعبير، أمّا من حيث المعنى فوجوده وعدمه سواء.

أمّا مع وجود (في) فكـأنّ الـرزق جُعـل ظرفـاً ووعـاء يعـيش فيـه الإنسان، والإمام سلام الله عليه يطلب من الله تعالى أن يوسّعه عليه، فلـو كـان متراً مربّعاً مثلاً يجعله مترين، ولو كان ثلاثة يجعله عشرين وهكذا. وهذا أبلغ مما لو قال: «من رزقك».

وهكذا يتبيّن لنا أنّ الأئمة سلام الله عليهم مـع أنّهـم كـانوا منـصرفين كُـلّ الانصراف إلى الله سبحانه وتعالى، خاصّة عند مناجاتهم معه، نـراهم فـي الوقت نفسه لا تفـوتهم هـذه الـدقائق البلاغيـة، دون أن تـصرفهم عـن توجّههم إلى الله عزّ وجلّ. وكيف لا يكونون كذلك وهُـم أمـراء الكـلام وأرباب البلاغـة، كمـا أنّ شـعورهم بحـضور الله تعـالى لا يختلـف ولا يتخلّف، إلا أنّنا بحاجة إلى تأمّل وتفكّر مـن أجـل الالتفـات إلـى هـذه الدقائق والتدبّر في مضامينها.

دواعي الفقر

تطالعنا روايات كثيرة تمدح الفقر وأُخرى تذمّه، وإن كان هذا يبـدو تناقضاً أو تعارضاً للوهلة الأولى، إلا أنّه بلاشكّ لا تنـاقض ولا تعـارض في البين لأنّ الموارد تختلف.

فهناك كثير من الآيات والروايات التي تحثّ وتندب وأحياناً توجب

وتفرض على الإنسان السعي والعمل من أجل الحصول على الرزق، وأن يعمل الناس ليكسبوا أرزاقهم، كلّ حسب سعته ومقدرته، الأمر الذي يكشف أنّ الفقر في أصله مذموم، لأنّ السعي والعمل يوجبان تحديد الفقر أو طرده.

أمّا إذا بذل الفرد كلّ ما بوسعه ولكنّه مع ذلك لم يغنَ، إمّا لضعف مواهبه وإمكاناته أو لأمور أُخرى مقدّرة أبقته فقيراً، فهذا الفقر ليس مذموماً البتّة، وهو مورد الروايات التي يُفهم منها المدح.

أمّا إذا قصّر الفرد في السعي ولم يخرج إلى العمل وبقي فقيراً لذلك، فهذا هو الفقر المذموم، الذي قيل عنه أنّه : سوادٌ في الدارين، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «ملعون من ألقى كلّه على الناس»[١]. وهناك رواية أُخرى فيها توكيد: «ملعون ملعون من ألقى كلّه...»[٢].

نُقل أنّ أحد العلماء مرّ بفقير مفترش الأرض يستعطي الناس، فقال له : مدّ يدك لأعطيك مقداراً من المال، فمدّ الشخص يده واستلم المال. فقال له العالم: مدّ يدك الأخرى واستلم مقداراً آخر، ومدّ الشخص يده الأخرى واستلم المال. ثمّ قال له العالم: هناك مقدار آخر، مُدّ إحدى رجليك لأناوله لك. وهكذا فعل المستعطي. ومرة أُخرى طلب العالم منه أن يمدّ رجله الأخرى وأعطاه مقداراً آخر. وأخيراً قال له: قم وقف على قدميك وتقدّم نحوي لأُناولك آخر ما تبقّى من المال. وهكذا كان. وهنا توجّه العالم إليه وقال له: إذا كانت يدك اليمنى سالمة ويدك اليسرى

(١) تهذيب الأحكام: ٦/ ٣٢٧ ح٩٠٢.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٦٨ ح١٧٤١.

كذلك، وهكذا قدماك وبدنك، فلماذا تستعطي إذاً؟ اذهب وكدّ في طلب الرزق!

قال الإمام الباقر سلام الله عليه: سأل موسى عليه السلام ربّه: أيّ عبادك أبغض إليك؟ فقال: «**جيفة بالليل بطّال بالنهار**»[1].

ويمكن أن يكون لهذا الحديث مصاديق متعدّدة المراتب ـ فليس الأمر دائراً بين الوجود والعدم ـ فقد يكون من المصاديق من هو كلّ الليل جْيفة وكلّ النهار بطّال، فلا تأمّل عنده ولا استغفار ولا تفكّر في الليل، ولا كسب ولا عمل ولا جهاد في النهار، وهذا أبغض المراتب. ومنهم من هو بعض الليل جيفة وبعض النهار بطّال.

إنّ الراحة مطلوبة للإنسان سواء في الليل أو في النهار، كما في الحديث النبويّ الشريف: «**وإنّ لنفسك عليك حقّاً**»[2]. وهذه الراحة بالمقدار المطلوب لا تعدّ من البطالة أصلاً بل هي مطلوبة للتقوّي بها على العمل والعبادة. أمّا ما عدى ذلك فلا ينبغي للإنسان أن يضيِّع حتى دقيقة واحدة من حياته.

عَنْ زُرَارَةَ قَالَ: إنّ رَجُلاً أَتَى أَبَا عَبْد الله الصادق عليه السلام فَقَال: إنِّي لا أُحْسِنُ أَنْ أَعْمَلَ عَمَلاً بِيَدي ولا أُحْسِنُ أَنْ أَتَّجرَ وأَنَا مُحَارَفٌ مُحْتَاجٌ. فَقَال: «اعْمَلْ فَاحْمِلْ عَلَى رَأسك (أي اعمل حمّالاً) واسْتَغْنِ عَنِ النَّاس»[3].

فالفقير الذي لا يعمل وهو قادر على العمل هو الذي يقال عن فقره

(١) بحار الأنوار: ١٣ / ٣٥٤، ح٥٢.

(٢) تذكرة الفقهاء: ٢٠/ ٢٩٧.

(٣) الكافي: ٥ / ٧٧.

أنّه: (سواد في الدارين) أمّا أولئك الذين لا يتكاسلون ولا يتقاعسون عن الجدّ والاجتهاد والسعي والعمل، وهم مع ذلك فقراء فأولئك المقرّبون عند الله تعالى ويدخلون الجنّة قبل الأغنياء في يوم القيامة.

روي أنّ النبي صلى الله عليه وآله دعا فقال: «اللهم إنّي أعوذ بك من الكفر والفقر». فقال رجل: أيعدلان؟ قال صلى الله عليه وآله: نعم[1].

إذاً الفقر في نفسه مذموم لدرجة أنّ النبي صلى الله عليه وآله يتعوّذ منه ويقرنه بالكفر في دعاء واحد، ومنه يظهر أنّ الفقر قد يؤدّي إلى الكفر، كما في الحديث النبويّ الشريف: «كاد الفقر أن يكون كفراً»[2].

لابدّ من السعي والتوكّل معاً

قد يقال: لماذا قال الإمام سلام الله عليه: «رزقك»، ولم يقل: «رزقي»؟

نقول: الرزق مصدر، والمصدر قد يضاف إلى فاعله وقد يضاف إلى مورده. فإن قلنا «رزقك» فمعناه الرزق النازل منك، أي من الله تعالى، وإن قلنا «رزقي» فمعناه الرزق الواصل إليّ.

وهنا علاقة تضايف، فإذا قلنا «رزقي» فلا بدّ أن يتصوّر مَن صدر عنه الرزق وهو الله تعالى، وإن قلنا «رزقك» فلا بدّ أيضاً من تصوّر من ينزل الرزق إليه، وهو العبد. ولذلك نلاحظ ورود التعبيرين كليهما في الأدعية.

وعندما يرد تعبير (رزقك) فإنّما يراد الإلفات إلى أنّ الله تعالى هو

---

(١) ميزان الحكمة: ٣/ ٣٢٢٠.

(٢) عوالي اللآلئ: ٢ / ٧١، ح١٨٤.

مصدر الرزق وهو الذي بيده كلّ شيء، فيلحّ العبد في الدعاء ويطلب من الله أن يوسّع رزقه إن كان العبد مقتراً، وأمّا عندما يرد لفظ «رزقي» فإنّما يشير إلى الحصّة الخاصّة بالمرزوق، وقد يكون في ذلك لمح إلى وجوب السعي والجدّ والاجتهاد؛ لأنّ طلب الرزق كسائر الأمور لا بدّ له من الركنين معاً: السعي؛ استناداً لقوله تعالى: ﴿وَأنْ لَيْسَ للانْسَانِ إلاّ مَا سَعَى﴾[1] والدعاء والتوكّل على الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَايَعْبَأ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾[2].

لاشكّ أنّ الدعاء وحده لا يكفي بل لا بدّ من السعي معه، كما أنّ السعي وحده غير مضمون النتائج، فلا بدّ من السعي والدعاء معاً، كما أمر الله تعالى بهما.

أجل، إذا سعى الإنسان في رزقه ولم يكن بطّالاً، حينها سيجعل له الرحمن من أمره يسراً، ما دام في طاعته دون أن يمدّ عينيه إلى ما متّع الله غيره بنعم الحياة الدنيا والمال الوفير، ولا يتحسّر ولا يأسى بل يرضى بما قدّر الله تعالى وكتب له، وإن أبطأ عنه بالإجابة يذعن ويسلّم؛ لعلم الله تعالى بعواقب الأمور[3]، ممتثلاً لقوله تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾[4].

---

(١) النجم: ٣٩ .

(٢) الفرقان: ٧٧ .

(٣) كما في دعاء الإمام الحجّة بن الحسن عجّل الله تعالى فرجه الشريف المستحبّ قراءته في ليالي شهر رمضان المبارك، والمعروف بدعاء الافتتاح، من قوله: ولعلّ الذي أبطأ عنّي هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور. (إقبال الأعمال: ١/ ١٣٩).

(٤) الحديد: ٢٣.

وخلاصة القول: إنّ غنى النفس هو الأساس، ومن حاز عليه في مراتبه العليا فقد حصل على كلّ شيء، وانفتح له باب كلّ خير في الدنيا والآخرة، وإن كان هذا الأمر بالغ الصعوبة إلا أنّه ممكن تحقّقه.

العزّة وعدم الابتلاء بالكبر

إنّ العزّة والكبر هما من حالات النفس الإنسانية التي تظهر على جوارح الإنسان في سلوكه. وإظهار الكبر يسمى تكبّراً، كما في اللغة. والكبر والتكبّر مذمومان، أمّا العزّة فمحمودة ويقابلها الذلّ وهو مذموم أيضاً.

والعزيز من أعزّه الله تعالى، ولذلك يقول الإمام سلام الله عليه: «وأعزّني». أي إلهي أطلب العزّة منك.

العزّة والذلّة مسألتان دقيقتان كبقية المسائل النفسية، فما هو ملاكهما؟ هل يُعدّ أخذ المال من الغير مثلاً عزّة أم ذلّة؟ إنّ الملاك لكليهما يكمن في الموضع الذي يضع الإنسان فيه نفسه؛ فإمّا أن يكون مورد عزّة وقد يكون مورد ذلّة، فليس بوسعنا أن نحكم دوماً على عمل ما بأنّه مصداق للعزّة أو الذلّة ما لم نعرف نيّة المرء فيه. فإن كانت لله تعالى فهي عزّة، وإن كانت لغير الله كانت ذلّة. فالعبودية لغير الله ذلّة ما دونها ذلّة، أمّا العبودية لله تعالى فهي أعظم عزّة، فإنّ الذليل من لم يكن عبداً لله تعالى.

روي عن عامر الشعبي أنّه قال: «تكلّم أمير المؤمنين سلام الله عليه بتسع كلمات ارتجلهن ارتجالاً، فقأن عيون البلاغة وأيتمن جواهر الحكمة، وقطعن جميع الأنام عن اللحاق بواحدة منهنّ، ثلاث منها في المناجاة، وثلاث منها في الحكمة، وثلاث منها في الأدب، فأمّا اللاتي في المناجاة فقال: «إلهي كفى لي عزّاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً»[١].

• وفي هذا دلالة على أنّ العزّة كلّ العزّة في عبوديّة المرء لمالك الملك، والارتباط الحقّ بالله عزّوجلّ.

العزّة والدخول تحت القدرة

روي عن الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه أيضاً أنّه قال: «كلّ عزيز داخل تحت القدرة فذليل»[٢].

فمن كان محكوماً لقدرة الغرائز في نفسه فقد شمله الذلّ وإن كان يتظاهر بالعزّة، وما العزّة التي يتسمّى بها إلا قشرة ظاهرية ولكنّه في الحقيقة ذليل لأنّه أسير شهواته، لا فرق في ذلك بين شهوة المال أو البطن أو الفرج أو حبّ الظهور أو غيرها من الشهوات.

أمّا الذي لا يرى القدرة إلا قدرة الله تعالى، فهذا له العزّة بعينها، وهكذا ما يرتبط بالله تعالى كأهل البيت سلام الله عليهم؛ لأنّه يقود إلى عبودية الله تعالى، بل هكذا الأمر أيضاً فيمن يقوم بتلبية حاجاته المادّية كالأكل

---

(١) الخصال للصدوق: ٤٢٠، ح١٤، باب التسعة.

(٢) تحف العقول: ٢١٥.

والسكن، فيما إذا كان منطلقه إلهياً ـ سواءً كان ذلك من باب الوجوب، أي استجابة لأمر إلهي يُعاقِب على تركه، أو الاستحباب، أي الاستجابة لأمر يحبّه الله مطلقاً ـ ويسعى من خلاله الى مرضاة الله تعالى، أمّا الاستجابة للشيطان والنفس الأمّارة بالسوء فلا يمكن أن تكون عزّة أبداً، لأنّها ليست ترفّعاً بل هي انحطاط وذلّة! لما ورد في الحديث: «من تواضع لغنيّ لأجل غناه ذهب ثلثا دينه»[1].

إذاً، النيّة هي التي تمنح العمل هويّته، ولذلك ورد في الحديث الشريف: «إنّما الأعمال بالنيات»[2].

أمّا إذا تواضع المرء لغنيّ لغرض أن يوجّهه ويرشده لأن يبذل ماله وجاهه في أمور الخير، فهذا ليس مصداقاً للذلّة بل هو عزّة أيضاً، وقد يجب إذا كان من باب مقدّمات الوجود، كما عبّر عن ذلك الفقهاء رضوان الله تعالى عليهم.

هيهات منّا الذلّة

من يكن قريباً من أهل البيت سلام الله عليهم وتوجّهاتهم يدرك أنّ مواقفهم كلّها عزيزة لأنّها في طاعة الله تعالى أبداً، فموقف الإمام الحسن سلام الله عليه كان يمثّل عين العزّة مع أنّه أغمد سيفه ولم يخرج كما خرج أخوه الإمام الحسين سلام الله عليه، وقد أخطأ كُلَّ الخطأ من خاطب الإمام الحسن سلام الله عليه بقوله: «يا مذلّ المؤمنين»؛ لأنّ الامام سلام الله عليه كان يتأسّى

---

(١) الجواهر السنية: ٧٩.

(٢) بحار الأنوار: ٦٧ / ٢١٠.

بجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله حين كتب المعاهدة بينه وبين المشركين حتى اضطرّ فيها إلى كتابة اسمه الشريف دون وصفه الكريم[1].

والإمام الحسين سلام الله عليه أيضاً وأهل بيته وأصحابه تعرّضوا إلى أنواع الأذى النفسي، وتعرّضوا للسبّ والشتم و... ومع ذلك يقول الإمام الحسين سلام الله عليه : «قد ركز (أي يزيد) بين اثنتين، بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة»[2]. وهذا معناه أنّ كلّ ما تعرّض له الإمام سلام الله عليه وأصحابه لم يكن ذلّة بل كان عزّة.

فلو بايع الإمام سلام الله عليه عامِل يزيد على المدينة باعتباره نائب يزيد، لما عرّض نفسه للقتل ولا جرى على أهل بيته ما جرى، ولأغدق عليه الكثير من الأموال والأمور الدنيوية، ولكن الإمام كان يرى أنّ هذه البيعة بحدّ ذاتها ذلّة، لانصبابها في سخط الله تعالى وغضبه، فتحمّل هو وأهل بيته وأصحابه ما تحمّلوا ولم يرضوا بالذلّ.

لقد رضي الإمام سلام الله عليه أن يعلوَ صدره الشريف شخصٌ دنيء مثل شمر ولم ير ذلك ذلاًّ، بل كان يراه عين العزّ مادام في طاعة الله تعالى، على العكس من الرضوخ ليزيد، فكان الإمام سلام الله عليه يراه عين الذلّة، وإن كانت فيها دنيا، والذلّة بعيدة بذاتها عن أهل البيت سلام الله عليهم، ولذلك قال الإمام: «هيهات منّا الذلّة». أي بعيدة عنّا.

إذاً لا يمكن أن نحكم على عمل واحد أو عملين متشابهين صدرا في موقفين بأنّهما عزّة في الموقفين أو ذلّة فيهما دائماً، بل ينبغي معرفة

---

(١) بحار الأنوار: ٤٤ : ٢٣ الباب ١٨ / ح ٧ .

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ٤٢.

خصوصيات كلّ منهما.

لقد كان موقف الإمام الحسن تمهيداً لنهضة الإمام الحسين عليهما السلام، فكانت معاهدة الإمام الحسن سلام الله عليه عزّة كما كانت ثورة الإمام الحسين سلام الله عليه ونهضته عزّة، لأنّ منطلقهما كان واحداً وإن اختلفا ظاهراً.

أبو ذر مثالاً على عزّة النفس

روي أنّه بعث عثمان بن عفان إلى أبي ذرّ بصرّة على يد عبد له وقال له: إن قبلها فأنت حرّ. فلم يقبلها؛ فقال: إقبلها فإنّ فيها عتقي. فقال: إن كان فيها عتقك، فإنّ فيها رقّي، وأنا قطعت علائق الدنيا لئلاّ أكون عبداً لغير الله[1].

أمثلة على المفهوم الخاطئ للعزّة

أعرف شخصاً كان من أهل العلم في بداية شبابه، ولكنّه ترك طلب العلم واتّجه إلى عمل آخر، لأنّه كان من أقرباء أحد مراجع التقليد في عصره. ولم يكن على خلاف معه، بل كان من مقلّديه ومن المعتقدين بأعلميته وعدالته وكان يدرس عنده ولكنّه كان يقول - كما نقل لي بعض أبنائه - : إنّ عزّة النفس تمنعني من استلام الراتب الشهري من هذا المرجع، فكيف يكون هو المعيل لي وهو ابن عمي؟!

لقد غيّر الرجل طريقه في الحياة، وكان من الممكن أن يصبح مجتهداً في يوم ما أو مرجعاً يهتدي بعلمه الألوف، أو على الأقلّ خطيباً

---

(١) شجرة طوبى: ٧٥.

أو مدرّساً أو مبلّغاً أو رجل دين على مستوى قرية يهتدي بواسطته العشرات من الناس؛ روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**ياعليّ نوم العالم أفضل من عبادة العابد الجاهل...**»[1].

فالابتعاد عن فكر أهل البيت سلام الله عليهم وعدم الفهم الصحيح لمعنى العزّة والذلّة ـ وفق مدرستهم سلام الله عليهم ـ قد يُخسر الإنسان الكثير إن لم يُخسره آخرته.

إنّ العزّة ليست في ترفّع الإنسان عن أقربائه وعشيرته، بل هي العبودية المطلقة لله تعالى ومعرفة ما هي الواجبات وما هي المستحبّات والعمل بهما، وما هي المحرّمات وما هي المكروهات والابتعاد عنهما؛ لأنّ الذلّة تتحقّق في الإتيان بما يُسخط الله تعالى.

والعزّة ـ بعد ذلك ـ كالطاقة إن لم تؤطّرها بالإطار الصحيح تنقلب وبالاً عليك، فإنّك لو أطّرت الطاقة الكهربية بالإطار الصحيح ووظّفتها بالشكل المناسب استفدت منها في مختلف أنحاء الحياة، أمّا إذا لم تضعها في إطارها الصحيح وأهملت كيفية استخدامها فقد تقتلك.

وآفة العزّة الكبر لأنّ فيها ميلاً واقتضاءً قويّاً لذلك ما لم تُضبَط، ولذلك عقّب الإمام زين العابدين سلام الله عليه في دعائه بقوله: «**ولا تبتلِينّي بالكبر**».

كما أنّ العزّة فرض على المؤمن، كما في روايات مستفيضة بل متواترة منها: ما روي عن الإمام أبي عبد الله الصادق سلام الله عليه أنّه قال: «**إنّ الله عزّ وجلّ فوّض إلى المؤمن أموره كلّها ولم يفوّض إليه أن يُذلّ**

---

(١) مكارم الأخلاق: ٤٤١.

نفسه، ألم تسمع لقول الله عزّوجلّ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالمؤمن ينبغي أن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً. يُعزّه الله بالإيمان والإسلام»[1].

فالمؤمن لا ينبغي له أن يذلّ نفسه من أجل متاع الدنيا وزخرفها، ومن كان خاضعاً لهواه أو لقوّة أخرى من أجل بلوغ شيء ما ظنّاً منه أنّه العزّة، ينبغي له أن يخرج نفسه من هذه الحالة لئلا ينخدع، وليعلم أنّها الذلّة بعينها.

وهكذا هو حال من يتجاوز الحدود التي فرضها الله تعالى، يظنّ نفسه عزيزاً لكنّه الذليل ولا يعلم، فتراه مثلاً يفتخر بأنّه ضرب فلاناً لأنّه قال له قولاً أغاظه، مع أنّ الإنسان لا يحقّ له أن يضرب شخصاً لمجرّد أنّه تكلّم عليه، ولكنّ لهيب النفس غير المؤطّرة بالتواضع لله تعالى أشدّ من لهيب الشمس!! فإذا كانت الزيادة في لهيب الشمس قد تودي بحياة بعض الناس، فقد يموت شخص وهو في الخمسين من عمره بسببها، وكان مقدّراً له أن يعيش سبعين لولا إصابته بها، فإنّ اللهيب المنبعث عن النفس البشرية قد يؤدّي إلى إتلاف ملايين السنوات من عمر الإنسان في نار الآخرة.

حاجة العقل لنور الوحي

إنّ العقل مخلوق محدود، وخالقه وحده الذي يعلم حاجاته وأنّه لكي ينمو ويسمو يحتاج إلى المدد منه تعالى، والاستنارة بمن بعثهم

---

(١) الكافي: ٥/ ٦٣.

سبحانه ـ سواء بعثة مباشرة كالأنبياء عليهم السلام أو بعثة غير مباشرة وهم الأئمة المعصومون سلام الله عليهم ـ ومن هنا نرى الإمام زين العابدين سلام الله عليه في هذا الدعاء وفي غيره من الأدعية يعلّمنا ويدعو بنفسه طالباً من الله تعالى أن يعزّه، لأنّ الشعور بالافتقار إلى الله تعالى هو قمّة العزّة ورأس الغنى، وليس يكفي أن يكون الشخص رئيساً قويّاً مطاعاً أو تاجراً ناجحاً أو مدرّساً مشهوراً أو خطيباً مفوّهاً، ما لم يشعر من أعماقه بأنّه محتاج إلى الله تعالى. فإن لم يشعر الإنسان بذلك فهو لا يعدو أن يكون ذليل المنصب أو المال أو العلم أو الأدب أو المكانة الاجتماعية، لأنّه بلاشك يكون داخلاً تحت قدرة إحدى هذه الأمور أو غيرها.

ولا تبتلِيَنّي بالكبر

الابتلاء قد يكون بمعنى الاختبار، وقد يكون بمعنى المحنة والبليّة، ولا يختلف المعنيان كثيراً؛ لأنّ أحد المعنيين سبب والآخر مسبّب.

هناك حالات كثيرة يتصوّر الإنسان فيها أنّه يتصرّف بدافع العزّة مع أنه كِبر في الحقيقة.

أذكر الحادثة التالية توضيحاً لذلك:

كنّا مجموعة من الطلبة ندرس عند أحد الأساتذة، فدار في أحد الأيّام نقاش علميّ بين الأستاذ وأحد التلاميذ ـ توفّيا كلاهما رحمهما الله تعالى ـ واشتدّ النقاش، فاحتدّ الأستاذ وغضب، فتفوّه بكلمة غير مناسبة بحقّ الطالب. وإذا بالطالب يطوي كتابه ويقول للأستاذ: ما دمتُ هكذا في نظرك فإنّي سأودّع الدراسة إلى الأبد.

وبالفعل ترك هذا الرجل الدراسة بسبب كلمة غير مناسبة صدرت

من أستاذه بحقّه. فهل هذا التصرّف يعبّر عن عزّة أم كبر؟ لا شكّ أنّه من الكبر، وإلا فكيف يمكن لمن يعتقد بأهمّية الدراسة وطلب العلم وأفضليّته أن يتصرّف هكذا ويتّخذ قراراً بهذه الخطورة، فيغيّر مسيرة حياته العلمية بسبب حدّة أو كلمة قاسية؟!

كلّنا معرّضون لمواقف من هذا القبيل، ولذا ينبغي لنا أن نأخذ مفاهيم العزّة من أهلها ومصداقها الأعلى أهل البيت سلام الله عليهم لئلا تضيع حياتنا الآخرة بسبب موقف تافه والعياذ بالله.

الاعتبار بما جرى لعلماء السوء

لقد كان بلعم بن باعورا[1] عالماً بلغ مرحلة من العلم بحيث قال عنه الله تعالى: ﴿الَّذي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾[2] والجمع المضاف (آياتنا) ظاهر في العموم كما يقول علماء الفقه والأصول، وإن كان ربما العموم هنا نسبيّاً.

ولكن الله تعالى يقول عنه في الآية نفسها: ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾. وهذا تشبيه بلاغيّ عظيم أي الآيات ـ ويعنى بها العلوم ـ صارت بالنسبة له كالقشرة أو الجلد، أرأيت كيف يُسلخ جلد الشاة؟!

ثمّ يقول الله تعالى عنه بعد ذلك: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾. وهذا معناه أن بلعم بن باعورا هو الذي بدأ الانحراف ثمّ زاده الشيطان في ذلك لابتعاده عن الله تعالى، وهذا مصداق قوله صلى الله عليه وآله: «من ازداد علماً،

---

(١) كان رجلاً على دين موسى عليه السلام وكان عنده اسم الله الأعظم، إذا دعا الله تعالى به أجابه فمال إلى فرعون، فأخذ منه الإسم الأعظم. انظر تفسير مجمع البيان: ٤/ ٣٩٤ مورد الآية ١٧٥ من سورة الأعراف.

(٢) الأعراف: ١٧٥ .

ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً»[1].

فإذا كانت هذه عاقبة ابن باعورا رغم علمه، بسبب كبره أو ما اعتبره خطأً عزّة، وليست كذلك، فكيف سيكون حالنا إن زللنا نحن، لا سمح الله؟!

فما دمنا ندرس وندرّس ونخطب ونؤلّف ونقوم بالوعظ، والناس يستمعون إلينا ويتعلّمون منّا، وقد يمدحوننا، فنحن معرَّضون لهذا الابتلاء، وكما في الحديث الشريف: «... فإنّ المفتي على شفير جهنم»[2]. فأقلّ غفلة يمكن أن تودي بنا، لا سمح الله، وينتهي كلّ شيء.

وهذا لا يعني ترك طلب العلم أو التبليغ، ولكن الأمر يتطلّب وعياً عميقاً مع الدعاء والاستعانة بالله تعالى ليجعلنا الله قادرين على التمييز بين ما هو لله وما هو لغير الله عموماً، فنأخذ بما هو لله تعالى ونذر ما هو لغيره.

كما علينا أن نفرّق بين العزّة والكبر، فنسأل الله تعالى أن يمنحنا الأوّل ويجنّبنا الثاني.

---

(١) بحار الأنوار: ٢/ ٣٧ ح ٥٠.

(٢) رسالة في العدالة: ٢٦٨.

العجب آفة العبادة

من يتدبّر في دعاء الامام سلام الله عليه يرى أنّه يسأل الله سبحانه وتعالى روح الفضائل ويطلب منه أيضاً أن يقيه ويحفظه مما يفسدها، لأنّ لكلّ فضيلة آفة تفسدها، فقد قرأنا في الجمل السابقة قول الإمام سلام الله عليه: «وأوسع عليّ في رزقك ولا تفتنّي بالنظر» أو بالبطر، لأنّهما من آفات سعة الرزق، وكذلك قوله سلام الله عليه: «وأعزّني ولا تبتلِينّي بالكِبر» لأنّ الكبر آفة العزّة؛ حيث يتكلّف الإنسان فيه الشموخ على غيره بلا موجب، والكبر في النفس كما أنّ التكبر في المظهر والسلوك. وسَيمرّ قول الإمام سلام الله عليه: «وأجرِ للناس على يدي الخير ولا تمحقه بالمنّ»؛ لأنّ المنّ آفة عمل الخير للناس، وأيضا قوله سلام الله عليه: «وهب لي معالي الأخلاق واعصمني من الفخر» فإنّه آفة معالي الأخلاق. أمّا هنا فيقول عليه السلام: «وعبّدني لك ولا تُفسد عبادتي بالعجب»؛ لأنّ العبادة فضيلة بل هي أمّ الفضائل وأرومتها، ولكن آفتها العجب، ولذلك عندما يطلبها الإمام من الله يطلب معها أن يقيه العجب.

إذاً في هذه الجملة أيضاً يطلب الإمام طلبين من الله تعالى وهما التعبيد والوقاية من العجب الذي يفسده.

معنى التعبيد

لم يرد استعمال لفظة (التعبيد) في الأدعية التي وصلتنا ـ على كثرتها ـ إلا نادراً، وربما لم يرد في القرآن الكريم إلاّ مرّة واحدة وذلك في قوله تعالى حكاية عن موسى على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام مخاطباً فرعون: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[1].

إنّ فرعون اتّخذ بني إسرائيل عبيداً وجعل يعاملهم معاملة السيّد الظالم المتجبّر لعبيده، ثمّ أخذ يمنّ على موسى عليه السلام في تربيته له ويقول له – كما حكاه القرآن الكريم – : ﴿... أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[2]، فردّ عليه موسى عليه السلام بالقول: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. أي لِم حرمتَ أهلي من تربيتي وهدّدت قومي فاضطُرّت أمّي إلى إلقائي في البحر، فإنّ وقوعي بين يديك وتربيتك إيايّ إنّما كانت بسبب تعبيدك لبني إسرائيل وخوفهم منك ومن بطشك، فهذه ليست منّة بل هي جناية لأنّها نتيجة تعبيد وإخافة وبطش وإرهاب، فما وجه المنّة بذلك؟

فيكون معنى قول الإمام سلام الله عليه: «عبّدني لك»: اتّخذني، أو اجعلني عبداً، والمعنى الثاني أدقّ من باب مناسبة الحكم والموضوع ـ كما يقول

(١) الشعراء: ٢٢.

(٢) الشعراء: ١٨.

الفقهاء ـ لأنّ الاتّخاذ نوع خصوصية وامتياز كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[1] أي خصّه بهذه الفضيلة.

لكن قد يثار سؤال، وهو: أليس الخلق كلّهم عباد الله، وأنّ الله مالك الملك، كما نقرأ في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾[2]؟ إذاً لماذا يطلب الإمام من الله أن يجعله عبداً له؟

بعبارة أخرى: إذا كانت عبوديتنا لله تعالى تكوينية قهرية؛ لانقطاعنا إليه سبحانه في الخلقة دون سواه، فما معنى طلب جعلنا عبيداً له؟

نقول: المقصود هنا هو القيام بما تقتضيه العبودية من العبد والإتيان بما ينبغي له، وهذا الأمر يتطلّب سعياً ودعاءً، ولذلك نرى الإمام سلام الله عليه وهو القمّة في العبودية لله يطلب ذلك منه تعالى ويقول: «وعبّدني لك» أي يا إلهي امنحني التوفيق بفضلك لأن أكون عبداً لك حقّ المعنى.

هب أنّ أحداً منّا عمل ما في وسعه وطاقته في عبادة الله تعالى، وقام بكلّ ما ينبغي له من فروض العبودية، من قيام بالواجبات والمستحبّات وترك للمحرّمات والمكروهات، بل عمل بوصيّة النبي صلى الله عليه وآله للصحابيّ الجليل أبي ذرّ حيث يقول صلى الله عليه وآله: «**يا أباذرّ ليكن لك في كلّ شيء نيّة صالحة حتى في النوم والأكل**»[3] ومفادها أن يسعى العبد لأن يجعل كلّ أعماله ـ حتى تلك التي لا يمكن الاستغناء عنها ـ عبادة لله سبحانه وتعالى، فهل يكون قد وفّى حقّ الله تعالى في العبادة وبلغ ما يليق بمقامه؟

---

(١) النساء: ١٢٥ .

(٢) آل عمران: ٢٦ .

(٣) مكارم الأخلاق: ٤٦٤، وصاياه صلى الله عليه وآله لأبي ذر.

كلاّ، لا يبلغ العبد مع ذلك حتى كنسبة القطرة إلى البحر المحيط، وهذا ما ندركه نحن بمستوانا، ناهيك عن المقدار والمستوى الذي لا نشعر به ولا ندركه!

فيكون معنى عبارة الإمام السجّاد سلام الله عليه في قوله: «وعبّدني لك» هو: إلهي إنّ عبادتي هذه ليست بمستوى عبوديتك ـ وهو منزّه عن المستوى ـ لكن إجعلها وكأنّها بذلك المقام؛ فضلاً منك.

روي عن الإمام الباقر سلام الله عليه أنّه قال: «دخلت على أبي عليه السلام في أحد الأيّام فرأيته وقد اصفرّ لونه من السهر، ورمضت عيناه من البكاء ودبرت جبهته وانخرم أنفه من السجود، وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة فلم أملك حين رأيته بتلك الحال البكاء فبكيت رحمة له، فإذا هو يفكّر، فالتفت إليّ بعد هنيئة من دخولي، فقال: يا بنيّ أعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فأعطيته فقرأ فيها شيئاً يسيراً ثمّ تركها من يده تضجّراً وقال: من يقوى على عبادة عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[1].

العبادة الصحيحة ما كانت مرضيّة عند الله تعالى

نستنتج مما تقدم أنّ القيام بالعبادة لا يكفي ما لم يعتبرها المعبود كذلك، أي تكون عنده عبادة، فلا يكفي أن يقول المرء أنا أعبد الله، بل المهمّ أن يقبل المعبود عبادته.

صحيح أنّ التكليف يسقط عن العبد وتبرأ ذمّته إذا قام بالعبادة

(١) بحار الأنوار: ٤٦/ ٧٥، ح٦٥، باب مكارم أخلاق الإمام السجاد وعبادته صلوات الله وسلامه عليه.

وكانت جامعة للشرائط والأجزاء التكليفية وفاقدة للموانع والقواطع التكليفية، ولكنّ القبول شيء آخر قد وضّحه الفقهاء بمثال وقد ذكره المرحوم الميرزا النائيني رحمه الله في شرح مسألة أصولية وعبّر عنها «اللعب بالعبادة».

وتوضيحه: إذا قال مولى لعبده: ائتني بكأس ماء، فامتثل العبد وجاء بالماء إلى المولى ولكنّه في الطريق إليه كان يرقص ويضحك ويستهزئ بالمولى أو يقوم بحركات لا تليق بشأنه، فإنّ المولى إذا كان حكيماً يقول: إنّ هذا العبد قد أتى بالتكليف لكنّه خرق مقام العبودية، فلا يعاقبه على عدم الامتثال له في جلْب الماء ولكنّه لا يقبله منه، لأنّه لا يعدّه من المتقرّبين إليه؛ والإمام سلام الله عليه يعلّمنا في هذا الدعاء أن نطلب من الله تعالى أن يقبل عبادتنا لأنّنا لا نعلم إن كنّا قد أدّيناها بما يليق ومقام قدسه تعالى أم اقتصرنا على إسقاط التكليف وإبراء الذمّة، حسب. ومن ثمّ نسأله تعالى ونقول له: «وعبّدني لك» أي اجعلني اللهم عبداً مقبول العبوديّة عندك.

آفة العجب

وآفة العبادة العجب، ولذلك نرى الإمام سلام الله عليه يقرن دعاءه وسؤاله من الله عزّ وجلّ أن يعبّده له، بأن لا يفسد عبادته بالعجب. فالإنسان وإن بلغ القمّة الشامخة في العبادة، يكون أيضاً معرّضاً للمزالق أو ما عُبّر عنه بالزحاليف[1].

---

(١) ورد في دعاء الصباح للإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه: «وصلّ اللهم على الدليل إليك في =

ثمة مسألة شرعية موجودة في الرسائل العملية ومشهورة بين الفقهاء وهي أنّ الرياء أثناء العبادة مبطل لها، وبعد العبادة مفسد لها وليس مبطلاً، فإنّ العبد إذا رائى في أثناء صلاته فإنّها تبطل ويجب عليه قضاؤها وإلاّ حوسب يوم القيامة على عدم الإتيان بها. وهذا أمر يقرّه العقلاء أيضاً، أمّا لو رائى بعد صلاته، فإنّه لا تجب عليه الإعادة أو القضاء لكن لا تُحسب له بصلاة ولا تُدرج في قائمة حسناته.

أمّا العُجب فالمشهور بين الفقهاء حسب الروايات أنّه ليس مبطلاً للعبادة وإن كان أثناء العمل العباديّ ـ وإن كان هناك رأي يقول بأنّه كالرياء من هذه الناحية أي يبطل العمل إذا كان مقروناً به، أي واقعاً في أثنائه ـ ولكنّه يُفسد العبادة على كلّ حال، أي لا يثاب المكلّف عليها وإن لم يحاسَب لعدم تركها، فالعبادة التي يُعجب بها صاحبها غير باطلة ـ حسب مشهور الفقهاء ـ ولكنّها فاسدة، وما كان فاسداً فلا يؤجَر عليه صاحبه وإن أتى به.

إنّ العجب لا يقتصر على إفساده للعبادة فقط بل يفسد كلّ شيء، فهو يفسد العلم والتقدّم والصحّة والأخلاق. فالعالم إذا كان عنده عجب بعلمه يكون قد غفل عن نكات دقيقة قد تفوته بسبب غروره وإعجابه بعلمه، وهكذا المعجب بصحّته قد يصاب بأمراض يحسب نفسه بعيداً عنها، والشيء نفسه يصدق بالنسبة للمعجب بأخلاقه. أمّا العبادة فيفسدها ويُذهبْ ثوابها.

= الليل الأليل والثابت القدم على زحاليفها في الزمن الأول» يعني به الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله. (مفاتيح الجنان ـ دعاء الصباح).

إنّ الدنيا كلّها لا تساوي شيئاً من دون العبادة، فإذا فسدت العبادة فماذا يبقى للإنسان بعد ذلك؟ فقد ورد في الروايات أنّ الدنيا كلّها لا تساوي عند الله جناح بعوضة[١].

فكم سيعيش الإنسان في هذه الدنيا؟ حتى لو فرضنا أنّه عاش مئات السنين بل آلاف السنين وأكثر وهو يرفل بالصحّة والعلم وغير ذلك من مباهج الدنيا، فإنّه سيرحل عنها إلى الآخرة، فإلى أين سيولّي وجهه في الآخرة إن لم تكن عنده عبادة حقّة أو كانت عبادته فاسدة بالعجب، لاسمح الله.

ولهذا نرى التركيز على بيان ضرر العجب في العبادة خاصّة في لسان الأدعية والروايات الشريفة بل أشار لذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً﴾[٣].

فالعجب في العبادة أمر يردّه الإنسان ولا يرى له موجباً إذا التفت إلى نفسه أدنى التفاتة أوتأمّل ولو قليلاً؛ فما الذي يغري العبد لأن يعجب في عباداته؟ هل يعجب بصلاته وصومه وزكاته وصدقاته أم يعجب بصحّته التي بسببها استطاع أن يعبد الله تعالى أم بعقله الذي به عرف الله تعالى وأدرك وجوب طاعته وعبادته، وكلّ تلك الوسائل وغيرها التي مكّنته من أداء العبادة إنّما هي من الله تعالى.

---

(١) روي عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أنّه قال: يا علي إنّ الدنيا لو عدلت عند الله تبارك وتعالى جناح بعوضة لما سقى الكافر منها شربة من ماء. من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٣٦٢.

(٢) التوبة: ٢٥.

(٣) الحديد: ٢٠.

فهل يحقّ لنا بعد ذلك أن نمـنّ علـى الله تعـالى فـي عباداتنـا أو أن نعجب بها وهو الذي هدانا للإيمان إن كنّا صادقين[١]. فإذا كان كلّ شـيء من الله، أفلا يكون عجب المـرء بعبادتـه لله تعـالى إسـفافاً وأمـراً مثيـراً للعجَب إذا تأمّل المرء قليلاً أدرك ذلك بسرعة، ولكنّ الشهوات هي التي لا تدع الإنسان يلتفت إلى هذه الحقائق.

هذا من جهة جهلنا وضعفنا وعجزنا، ناهيك إذا نظرنـا إلـى القـضية من جهة العظمة ومقام الربوبية ولسنا ببالغين حقّ قدرها، وما يصدر عنـا حين نعبّر عنهما فبمقدارنا وبمستوى ألفاظنا وتـصوّراتنا فقـط. وإلاّ فـإنّ الله تعالى هو الذي يمنحنا الأموال ثمّ يطلـب منّـا إقراضـه، ويعـدنا بأنّـه سيضاعفها لنا أضعافاً كثيرة؛ كما في قوله تعـالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾[٢].

إذاً جدير بأن نسخّر كلّ العقل فينا لعبادته حقّاً، لأنّه قـد يمـرّ علـى الإنسان ـ والعياذ بالله ـ عشرات السنين وهو غافل غير ملتفت؛ ومـن ثـمّ فهو يحتاج إلى المراقبة والدعاء، فيرشده الإمام سلام الله عليه بأن يتوجّـه إلـى الله تعالى بالقول: «وعبّدني لك ولا تُفسد عبادتي بالعجب».

الإفساد، واختيار الإنسان

قد يتبادر سؤال إلى الذهن وهو: لمـاذا يقـول الإمـام سلام الله عليه فـي دعائه: «ولا تُفسد عبـادتي بالعجـب». فمن الذي يفسد العبادة؛ أيفسدها الله

(١) إشارة الى قوله تعالى: ﴿يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ الحجرات: ١٧.

(٢) الحديد: ١١.

سبحانه، أم الإنسان يفسدها باختياره؟

الجواب: إنّ معنى قول الإمام هو: اللهم لا تتركني وتخلّيني وشأني فيستحوذني العجب وتَفسُد عبادتي. ومثاله من واقع الحياة كالشخص النازل من جبل ذي منحدرات شديدة فإنّه يكون معرّضاً للهويّ، إلا إذا كان هناك حبل ذو مقابض يمسك بها، فإنّه بحاجة إلى وجود هذه الأداة لئلا يزلّ ويسقط، فيقول لمن بيده الطرف الأعلى من الحبل: لا تسقطني في الوادي؛ ففي يدك نجاتي وحياتي ما دمت أنا متمسّكاً في الطرف الآخر. فهكذا الحال بالنسبة للإفساد والإضلال عندما ينسب إلى الله تعالى، فإنّ العبد هو الذي ينفلت عن قبضة الطرف الثاني للهداية فيفسد ويضلّ، حينها يُخلّى بينه وبين نفسه، لعلمه تعالى بعدم جدوى الصلاح والهداية فيه. قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[1]، ولذلك كان على الإنسان أن يُلحّ على الله تعالى دائماً في أن يهيّئ له أسباب الهداية وأن لا يدعه وشأنه وإلا فإنّه هالك لا محالة.

ولكن ينبغي أن يعلم أيضاً أنّ الله تعالى لا يفعل شيئاً عبثاً، فهو لا يوفّر أسباب النجاة والهداية والصلاح أو يمنعها عن أحد دون حكمة.

إنّ الله تعالى يمتنع عليه العبث سبحانه فهو الحكيم، والحكيم يضع الشيء في موضعه، فإذا كان العقلاء يدركون ذلك ولا يتخطّونه في حياتهم أو يحاولون أن لا يتخطّوه، فكيف بالله عزّوجلّ وهو سيّد الحكماء؟!

لو جاء إنسان عاديّ إلى فقيه ـ مثلاً ـ وسأله مسألة شرعية، فالفقيه

---

(١) النور: ٤٠ .

يكتفي بإعطائه الحكم الشرعي، كأن يقول له: إنّه واجب أو مستحبّ أو حرام أو مكروه، ولكن إذا كان السائل من أهل الفضل فربما أضاف في جوابه أنّه هناك رواية صحيحة السند عمل بها الفقهاء، ودلالتها تامّة تقول كذا وكذا.

فإذا كنا ندرك هذا في مستوانا ونحاول أن نتصرّف بحكمة ونعطي كلاً ما يناسبه، فهل نتوقّع أن لا يعاملنا الله بالحكمة فيأخذ بيد من لا يستحقّ العناية، ويتخلّى عمّن يستحقّها؛ حاشاه سبحانه وتعالى عن ذلك.

لله الحجّة البالغة

روى أنّه: «يجاء يوم القيامة بالرجل الحسن الذي قد افتتن بحسنه فيقول: يا ربّ حسّنت خَلْقي حتى لقيت من النساء ما لقيت. فيجاء بيوسف عليه السلام فيقال: أنت أحسن أو هذا، قد حسّناه فلم يفتتن؟ ويجاء بصاحب البلاء الذي قد أصابه الفتنة في بلائه فيقول: يا ربّ شددت عليّ البلاء حتى افتتنت. فيجاء بأيّوب عليه السلام فيقال: أبليّتك أشدّ أو بلية هذا، فقد ابتلي فلم يفتتن؟»[1].

وروي عن مسعدة بن زياد أنّه قال: سمعت جعفر بن محمد عليه السلام وقد سئل عن قوله تعالى: ﴿قل فلله الحجّة البالغة﴾[2] فقال: «إنّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: عبدي! أكنت عالماً؟ فإن قال: نعم. قال له: أفلا عملت بما علمت؟ وإن قال: كنت جاهلاً. قال له: أفلا تعلمت حتى

(١) بحار الأنوار: ٧ / ٢٨٥ .

(٢) الأنعام: ١٤٩.

تعمل؟ فيخصمه، وذلك الحجّة البالغة»[1].

وهاتان الحالتان ليستا من باب الحصر بل هما مثالان وإلاّ فإنّ الشيء نفسه يصدق على كلّ فرد تشغله مسألة ما عن العبادة سواء كانت مسألة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو غيرها.

والأمر بعد ذلك بحاجة إلى دعاء وتوسّل إلى الله تعالى، مساوقة مع العزم والتصميم في السعي لنبذ الشيطان ووساوسه.

فإذا حصل أنّ أحداً ما يريد قراءة دعاء ـ كدعاء كميل في ليلة الجمعة مثلاً ـ ويغالبه النعاس أو ذهنه مشغول بأمر ما، فيتردّد: أيكون الترك أفضل أم قراءة الدعاء مع حال اشتغال الذهن واللهو عن التوجّه بعمق إلى مضامين الدعاء؟ هذا سؤال وُجّه لكثير من الفقهاء ومنهم السيّد الوالد رحمه الله فكان يقول: عدم الترك أفضل في كلّ حال؛ لأنّنا إذا قلنا بترك الدعاء في مثل هذه الحالة فإنّ النفس ستبحث عن الأعذار في غيره من أسباب العبادة مهما كانت تلك الأعذار ضعيفة واهية، أمّا إذا عوّدت نفسك على الدعاء فسيأتي التوجّه تباعاً.

ثلاث فوائد

وأقرب ما يمكن أن نستفيده من عبارة الإمام سلام الله عليه: «وعبّدني لك ولا تفسد عبادتي بالعجب» ثلاثة معانٍ.

الأول: تَقَبَّلني عبداً، أي اجعلني أعبدك وفق ما يسّرتني له من الطاعة، واعتبر عبادتي في مستوى ساحة قبولك ورضاك.

---

(١) الأمالي للمفيد: ٢٢٧ ح٦ مجلس ٢٦.

الثاني: تقبّلها منّي بغناك عنّي.

الثالث: اجعلني مشغولاً بعبادتك عن العجب بعبادتي لك.

ولمزيد من التوضيح نذكر المثال التالي:

إذا كان أحد الملوك يملك مئة من العبيد فهل هؤلاء كلّهم في مستوى واحد من حيث ارتباطهم بالملك؟ كلاّ بالطبع، فبعضهم يعمل في البناء، وبعضهم يقوم بالخدمة داخل القصر، وبعض يكون واسطة بين الملك ووزرائه، إذاً فالمستويات تختلف، ولكن المهمّ أن يكون عمل العبد مقبولاً لدى الملك وأن لا يزلّ فيطرده.

عبادة الله فخر وشرف

هَب أنّ شخصاً ما كان خادماً للملك، ألا تراه يفتخر على الآخرين لأنّه قريب من مصدر القوّة أو المال أو الوجاهة؟ فكيف إذا كان عبداً لله تعالى؟ لا شكّ أنّ مثل هذا الإنسان لا تهمّه الدنيا ولا يخشى في الله لومة لائم، وحقّ له ذلك.

جاء رجل للإمام الصادق سلام الله عليه وقال: إنّي أرى من هو شديد الحال مضيّقاً عليه العيش، وأرى نفسي في سعة من هذه الدنيا لا أمدّ يدي إلى شيء إلا رأيت فيه ما أحبّ، وقد أرى من هو أفضل منّي قد صرف ذلك عنه، فقد خشيت أن يكون ذلك استدراجاً من الله لي بخطيئتي؟ فقال الإمام سلام الله عليه: «**أمّا مع الحمد فلا و الله**»[1].

(١) بحار الأنوار: ٦٨ / ٥٤، ح٨٦.

إجراء الخير بلا منّ

يقول الإمام سلام الله عليه: «وأجر للناس على يديّ الخير ولا تمحقه بالمنّ»

يستفاد من كلمة «أجرِ» مضمونان:

المضمون الأوّل: أنّ الإمام ينسب فعل الخير الذي يفعله الإنسان إلى الله تعالى؛ حيث يُفهم ذلك من صيغة الطلب «أجرِ». وهذا معناه أنّ الإنسان المباشر بفعل الخير هو وسيلة أمّا الفاعل الحقيقي للخير فهو الله تعالى؛ إلاّ أنّ هذه الوسيلة مختارة وغير مجبرة على فعل الخير وتركه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ إذ لولا الاختيار لبطل الثواب والعقاب.

المضمون الثاني: أنّ مادّة هذه الكلمة، (أجر) وهي: الجريان، هي على وزن فَعلان، وكما هو معروف في كتب اللغة فإنّ هذا الوزن يدلّ على الاستمرار وعدم الانقطاع، كما في وصف الله سبحانه للحياة الآخرة بأنّها هي الحيَوان، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[1] فاستعمل صيغة فَعَلان (حيوان) أي الحياة المستمرّة المتواصلة التي لا انقطاع لها.

---

(١) العنكبوت: ٦٤ .

كذلك هنا الإمام يقول: «أجر» ولـم يقـل «أصـدر منّـي الخيـر»، لأنّ أصدر، لا يحمل ما يحمله (أجر) من طلـب دوام صـدور الخيـر ولـيس مجرّد صدوره.

الإسلام يريد الخير لجميع الناس

الكلمة الثانية، من هذه الفقرة هي قولـه سلام الله عليه: (للنـاس). وهـذا معناه أنّ الإمام يطلب من الله تعالى أن يجري على يديـه الخيـر لجميـع الناس وليس للمؤمنين أو المسلمين وحـدهم بـل لكـلّ النـاس مـؤمنين ومسلمين وغيرهم بل حتى لغير المعتقدين بـدين أصـلاً. هكـذا يـسأل الإمام من الله تعالى، ويرشدنا أنّه ينبغي لنـا أن نـسأل الله تعـالى فـي أن يجري الخير على أيدينا لكلّ الناس.

وهذه هي نظرة الإسلام إلى عباد الله تعالى، ففي الحديث الـشريف: «الْجِيرَانُ ثَلاثَـةٌ فَمِـنْهُمْ مَـنْ لَـهُ ثَلاثَـةُ حُقُـوقٍ: حَـقُّ الإِسْـلامِ، وَحَـقُّ الْجِـوَارِ، وَحَقُّ الْقَرَابَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ حَقَّانِ: حَقُّ الإِسْلامِ وَحَقُّ الْجِـوَارِ، وَمِنْهُمْ مَـنْ لَـهُ حَقٌّ وَاحِدٌ: الْكَافِرُ لَهُ حَقُّ الْجِوَارِ»[1].

هذه هي أخلاق الإسلام، مضافاً إلى ما تحمله هذه النظرة من كسب للإسلام.

وكما أنّ الله سبحانه وتعالى يعطي النعم للمؤمن والكافر، والمتـديّن وغير المتديّن كذلك الإمام يسأل الله تعالى أن يجري علـى يديـه الخيـر لجميع الناس دون تمييز.

---

(١) مستدرك الوسائل: ٨ / ٤٢٤، ح١٤، باب وجوب كفّ الأذى عن الجار.

هكذا كان أهل البيت سلام الله عليهم، يجري الخير على يديهم لجميع الناس. روي أنّ الإمام الصادق سلام الله عليه كان يأخذ معه الخبز والتمر والحنطة في منتصف الليل يوزّعها على فقراء المدينة وهم نيام فيضعها تحت رؤوسهم؛ فيقال له هؤلاء غير موالين لكم. فيقول سلام الله عليه : «لو كانوا موالين لنا لواسيناهم بالدُقّة»[1].

على يدي أو على يديّ

في بعض الموارد من كلام أهل البيت سلام الله عليهم وردت كلمة «يديّ» بتشديد الياء، وهي تفيد التثنية، كما وردت في بعضها الآخر بلفظ المفرد أي دون تشديد الياء، ولا فرق بينهما سوى من جهة زيادة التأكيد؛ لأنّ اليد ـ كما هو معلوم في البلاغة ـ قد ترد بمعنى هذا العضو الخاصّ، وقد ترد للتعبير عن القدرة والمكنة[2]، ولذلك ورد استعمال «يدي» أي الجارحة الواحدة، و «يديّ» أي كلتاهما، لبيان أنّ الأخيرة تفيد التوكيد

---

(١) روي عَنْ مُعَلَّى بْنِ خُنَيْس قَالَ: خَرَجَ أَبُو عَبْد اللّه عليه السلام في لَيْلَة قَدْ رُشَّتْ وَهُوَ يُريدُ ظُلَّةَ بَني سَاعدَةَ فَاتَّبَعْتُهُ فَإذَا هُوَ قَدْ سَقَطَ منْهُ شَيْءٌ. فَقَالَ: بسْم اللّه اللَّهُمَّ رُدَّ عَلَيْنَا. قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فسَلَّمْتُ عَلَيْه، قَالَ فَقَالَ: مُعَلَّى! قُلْتُ: نَعَمْ، جُعلْتُ فدَاكَ. فَقَالَ لي: الْتَمسْ بيَدكَ فَمَا وَجَدْتَ منْ شَيْء فَادْفَعْهُ إلَيَّ. فَإذَا أَنَا بخُبْز مُنْتَشر كَثير فَجَعَلْتُ أَدْفَعُ إلَيْه مَا وَجَدْتُ، فَإذَا أَنَا بجراب أَعْجزُ عَنْ حَمْله منْ خُبْز، فَقُلْتُ: جُعلْتُ فدَاكَ أَحْملُهُ عَلَى رَأْسي؟ فَقَالَ: لا أَنَا أَوْلَى به منْكَ وَلَكن امْض مَعي. قَالَ: فَأَتَيْنَا ظُلَّةَ بَني سَاعدَةَ فَإذَا نَحْنُ بقَوْم نيَام فَجَعَلَ يَدُسُّ الرَّغيفَ وَالرَّغيفَيْن حَتَّى أَتَى عَلَى آخرهمْ ثُمَّ انْصَرَفْنَا. فَقُلْتُ: جُعلْتُ فدَاكَ يَعْرفُ هَؤُلاء الْحَقَّ؟ فَقَالَ: لَوْ عَرَفُوهُ لَوَاسَيْنَاهُمْ بالدُّقَّة. وَالدُّقَّةُ هيَ الْملْحُ. (الكافي: ٤ / ٩).

(٢) ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: ١٠) والمقصود قدرة الله تعالى وسلطته ومكنته ـ وكذلك فضله ونعمته ـ لأن الله تعالى ليس له يد كأيدينا أو غير ذلك من الأعضاء.

أي كلّ القدرة أو كلّ العطاء، كما نقرأ في الدعاء: «**يا باسط اليدين بالعطية**»[1] أي تعطي كلّ الفضل، وإلاّ فإنّ الله تعالى منزّه عن أن تكون له يد ماديّة فضلاً عن اثنتين، وإنّما كان استعمال صيغة المثنى (يديّ) كناية عن مطلق العطاء من مطلق القدرة، وهكذا في هذا الدعاء إذا قلنا «وأجرِ للناس على يدي الخير» فهو طلب صدور الخير منّا للناس على الدوام، أمّا قوله سلام الله عليه: «**وأجرِ للناس على يديّ الخير**» فهو يعني طلب التوفيق لصدور الخير والبذل الدائم بمطلق الطاقة التي يُتوفّر عليها، أي هو المبالغة في الإعطاء.

المنّ يمحق عمل الخير

ثمّ إنّ الإمام سلام الله عليه بعد أن يسأل الله تعالى أن يجري على يديه الخير للناس، يسأله قائلاً: **ولا تمحقه بالمنّ**. أي، إلهي أنت إذ وفّقتني وأجريت للناس على يدي الخير لا تمحقه بالمنّ، فاحفظني من الشيطان ولا تكلني إلى نفسي، فإني لا أستطيع النجاح مستقلاً عنك.

أمّا المحق فهو الإبطال والمحو والإحباط. وقد ورد استعمال الإبطال وأريد منه المحق أكثر، مثل قوله تعالى: ﴿**لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى**﴾[2] أمّا المحق فقد ورد قليلاً ومنه قوله تعالى: ﴿**يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ**﴾[3] وقوله تعالى: ﴿**وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ**﴾[4]، وهنا أيضاً قال

---

(١) انظر مصباح الكفعمي: ٦٤٧ فصل٤٦، من أدعية ليلة الجمعة.

(٢) البقرة: ٢٦٤ .

(٣) البقرة: ٢٧٦ .

(٤) آل عمران: ١٤١ .

الإمام سلام الله عليه في دعائه: «ولا تمحقه بالمن» لأنّ المنّة تحبط عمل الخير وتبطله كما في هذه الرواية:

دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى الإمام مُحَمَّد الجواد سلام الله عليه وَهُوَ مَسْرُورٌ. فَقَالَ: «مَا لي أَرَاكَ مَسْرُوراً؟» قَالَ: يَا ابْنَ رَسُول اللَّه سَمِعْتُ أَبَاكَ يَقُولُ: «أَحَقُّ يَوْم بأَنْ يُسرَّ الْعَبْدُ فيه يَوْمٌ يَرْزُقُهُ اللَّهُ صَدَقَاتٍ وَمبرَّات وَسَدَّ خَلاَّت منْ إخْوَان لَهُ مُؤْمنينَ» وَإنَّهُ قَصَدَني الْيَوْمَ عَشَرَةٌ منْ إخْوَاني الْمُؤْمنينَ الْفُقَرَاء لَهُمْ عيَالاتٌ فَقَصَدُوني منْ بَلَد كَذَا وَكَذَا فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحد منْهُمْ، فَلهَذَا سُرُوري. فَقَالَ: مُحَمَّدُ بْنُ عَليٍّ: «لَعَمْري إنَّكَ حَقيقٌ بأَنْ تُسرَّ إنْ لَمْ تَكُنْ أَحْبَطْتَهُ أَوْ لَمْ تُحْبطْهُ فيمَا بَعْدُ». قَالَ الرَّجُلُ: وَكَيْفَ أَحْبَطْتُهُ وَأَنَا منْ شيعَتكُمْ الْخُلَّص؟ قَالَ: «هَاهْ قَدْ أَبْطَلْتَ برَّكَ بإخْوَانكَ وَصَدَقَاتكَ». قَالَ: وَكَيْفَ ذَلكَ يَا ابْنَ رَسُول اللَّه؟ قَالَ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَليٍّ: «اقْرَأْ قَوْلَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تُبْطلُوا صَدَقَاتكُمْ بالْمَنِّ وَالأَذى»[1] قَالَ الرَّجُلُ: يَا ابْنَ رَسُول اللَّه مَا مَنَنْتُ عَلَى الْقَوْم الَّذينَ تَصَدَّقْتُ عَلَيْهمْ وَلا آذَيْتُهُمْ. قَالَ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَليٍّ عليه السلام: «إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: لا تُبْطلُوا صَدَقَاتكُمْ بالْمَنِّ وَالأَذى، وَلَمْ يَقُلْ لا تُبْطلُوا بالْمَنِّ عَلَى مَنْ تَتَصَدَّقُونَ عَلَيْه وَبالأَذى لمَنْ تَتَصَدَّقُونَ عَلَيْه وَهُوَ كُلُّ أَذى»[2].

يستفاد من هذا الحديث أنّه إذا ذكَر المتفضّل على أحد فضله حتى في غيابه عُدّ ذلك من مصاديق المنّة، لذا يشير الحديث الى أنّ الشخص

---

(١) آل عمران: ١٤١ .

(٢) مستدرك الوسائل: ٧ / ٢٣٤ .

إذا صنع خيراً لأحد ثمّ ذكره في مجلس، فإنّ الخبر حتماً سيصل إليه عاجلاً أو آجلاً فيتأذّى، ولم يقيِّد الأذى بأن يكون مباشراً كما لو يقول المانّ: أنا الذي أعطيتك المال بعد أن لم يكن عندك، أو أن يكون بصورة غير مباشرة كالإيحاء مثلاً، وهذا امتحان صعب جدّاً يتطلّب الاستعانة بالله تعالى حتى يجتازه المرء بنجاح.

قصّة فيها عبرة

كان هناك رجل حاجّ أعرفه جيداً يعيش في إحدى المدن المقدّسة، فقد صادف أن نزل في مدينته رجل زائر من بلد آخر جاء هو وعائلته، وكانوا قد نزلوا فيها لأوّل مرّة لأداء الزيارة ولا يعرفون فيها أحداً، فذهبوا يبحثون عن مكان في الفنادق والمنازل التي يؤجّرها أصحابها، فلم يحصلوا على مكان بسبب كثرة الزوار، فاضطرّوا للجلوس في مكان ما، فلمّا رآهم ذلك الرجل الحاج - وهوكما أعرفه كان يعمل الخير ما وسعه لأيّ شخص سواء كان يعرفه أم لا - على هذه الصورة جالسين على الأرض، سألهم: لماذا أنتم جالسون هنا؟ قالوا له: نحن مسافرون جئنا للزيارة، ولكنا لم نعثر على مكان ننزل فيه، فاضطررنا للجلوس هنا عسى أن يمرّ بنا شخص فيرشدنا إلى مكان ما نأوي إليه.

عندها قال لهم الحاجّ: تعالوا معي إلى بيتي، ففرحوا بذلك؛ وأضمروا أن يعطوه الأجرة المناسبة آخر الأمر - لأنّهم كانوا أناساً متمكّنين مادّياً - فأنزلهم الحاجّ في بيته منزلاً كريماً، حتى أقاموا عنده عشرة أيّام، كان يقدّم لهم خلالها كلّ متطلّبات كرم الضيافة بما فيها الطعام، ولما شارفوا على الرحيل بعد انتهاء مدّة زيارتهم، عرضوا عليه

مبلغاً من المال لخدماته لهم، ففوجئوا أنّه لا يقبل على عمله هذا أجوراً أو شيئاً من هذا القبيل، قائلاً لهم: إنّكم لم تكونوا ضيوفي بل ضيوف الإمام سلام الله عليه وإنّ الأجر الذي سأحصل عليه منه يفوق ما تعطونه لي مهما بلغ. وعندما لاحظوا إصراره على رفض أخذ المال ودّعوه شاكرين وانصرفوا.

وبعد مرور بضع سنوات حدثت للحاجّ (المضيّف) مشكلة سياسية في نفس البلد الذي قدم منه ذلك الزائر (الضيف) ليزجّ بالحاجّ في السجن، وكان من المحتمل أن يصدر بحقّه حكم الإعدام، وحينما كان يتعرّض للاستجواب لعدّة أيّام، جاءه في آخر استجواب يمارس معه شخص يظهر من الرتب العسكرية التي يحملها على كتفه أنّه رجل رفيع المنصب في الدولة بصفة محقّق قضائي. فلمّا رآه سأله: ألستَ فلاناً؟ قال بلى. ثمّ شرع بتوجيه الأسئلة عليه؛ من قبيل: ألستَ تسكن البلد الفلاني؟ وكان الحاجّ يجيب: لقد سألتموني من قبل والمعلومات مدوّنة عندكم، فقد أدليت بكلّ إفادتي. وأخيراً سأله المحقّق: أليس بيتك في المكان الفلاني؟ قال: نعم. ثمّ نظر المحقّق إليه نظرة خاصّة وقال: ألم تعرفني؟ قال: لا. قال: دقّق فيّ جيّداً، ثمّ رفع قبّعته من على رأسه. فقال الحاجّ: كأنّي رأيتك ولكن لا أتذكّر أين، فقال الرجل: لقد كنت وعائلتي عشرة أيّام ضيوفاً في بيتك أكرمتنا كثيراً دون مقابل. قال الحاجّ بعد تذكّره ما كان قد نسيه: إنّما فعلته لله.

وهنا قال له: ها هو حكمك بيدي، وعقوبتك تصل حتى الإعدام، ولكنّي أمزّق الورقة أمامك وأقول لك: تفضّل واخرج فليس عليك شيء!

يتّضح من هذه القضيّة وغيرها مما سلف من آثار فعل البر

والإحسان أنّ الخير الذي يفعله الإنسان لغيره إنّما يعود في الحقيقة لنفسه بل هو مسجّل له منذ البداية، ولكن انكشاف هذا الأمر يحتاج إلى وقت، غايته أنّ النتائج قد لا تظهر كلّها في هذه الحياة الدنيا بل قد يراها الإنسان في الآخرة، فإذا كان عند الإنسان بصيرة والتفات وكان معتبِراً بقصص الآخرين سهُل عليه الأمر وبادر إلى عمل الخير للناس، مهما كلف الأمر.

معالي الأخلاق والعصمة من الفخر

لا شكّ أنّ لمعالي الأخلاق والعصمة من الفخر مراتب. وهذا يعني أنّ سؤال الإمام المعصوم من الله تعالى بأن يهبه معالي الأخلاق لا ينافي العصمة، ومما لا شكّ فيه أنّ كلّ ما لدى المعصوم سلام الله عليه حتى العصمة هو لطف من الله سبحانه وتعالى، ومن ثمّ فإنّ الإمام ليس بصدد تعليمنا الدعاء فحسب بل يتوجّه إلى الله أيضاً ويسأله أن يهبه معالي الأخلاق والعصمة من الفخر، غايته أنّ الإمام سلام الله عليه يسأل مراتبهما العليا.

صحيح أنّ مراتب الإمام في معالي الأخلاق عالية جداً بل لا يقاس به أحد البتّة، ولكن الصحيح أيضاً أنّ هذا لا يتنافى وطلب الأئمة صلوات الله عليهم المزيد من المراتب الأكثر علواً وإن بلغوا ما لم يبلغه أحد من العالمين حتى حازوا أعلى مرتبة من بين خلق الله عزّ وجلّ من الأوّلين والآخرين، وهذا مطلب معمّق وتفصيله يتطلّب بحثاً مستقلاً.

وقفات مع مفردات الدعاء

نقف الآن وقفات سريعة مع كلمات هذه الجملة من الدعاء: «هب لي معالي الأخلاق واعصمني من الفخر». فنقول:

«هب» من الهبة وهي غير العطاء، وقد وردت مادّة الهبة واشتقاقاتها

في القرآن كثيراً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً﴾[١]، وقوله سبحانه ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[٢] فما هو معنى الهبة؟ يقول الفقهاء: الهبة عقد[٣] فائدته تمليك عين بلا عوض.

فإذا كان هذا معنى الهبة فإنّ الإمام سلام الله عليه يطلب من الله أن يهبه معالي الأخلاق وليس يعطيها له فقط؛ لأنّ الإعطاء أعمّ من التمليك؛ فإنّ الإمام سلام الله عليه عندما يقول: (هب لي)، فمعناه يا ربّ، ملّكني معالي الأخلاق واجعلها ملكاً وملَكة لي، ومالك الشيء سيّده[٤].

إذاً، يكون معنى هب لي معالي الأخلاق: ملّكني إياها، لا أن تكون عارية، فتكون مثلاً عندي فترة الغنى، فإذا صرت فقيراً زالت عني، أو تكون عندي زمن الراحة أو الصحّة وإذا ضقت أو مرضت ذهبتْ عنّي، كلاّ، بل اجعل اللهم معالي الأخلاق مملوكة لي.

---

(١) مريم: ٥ .

(٢) الفرقان: ٧٤ .

(٣) فقولهم: «عقد» يعني أنّها ليست إيقاعاً، والفرق بين العقد والإيقاع أنّ الأول لا يتقوّم إلا بطرفين؛ إيجاب وقبول. فالواهب يقول: وهبت، والذي تنتقل إليه الهبة يقول: قبلت، خلافاً للإيقاع فإنّه لا يُشترَط فيه القبول. وخرج بقولهم: «بلا عوض» مثل البيع فإنّه تمليك بعوض، فلو قال الواهب: وهبتك كذا، وسكت، دون أن يضيف عبارة (بلا عوض)، فلا يقدح ذلك في العقد؛ لأنّ مقتضى الهبة أن يكون بلا عوض، وإلا لم يكن هبة. فذكر هذا القيد في التعريف إنّما هو على نحو الإقتضاء وليس العلية التامّة، أي أنّ الهبة بطبعها تقتضي أن تكون بلا عوض.

(٤) يقال – والشيء بالشيء يذكر – : إنّ مَلكاً قال لرجل وكان زاهداً مبتعداً عنه: لماذا لا تأتيني وأنت عبدي؟ عجب الزاهد وقال: كيفَ أصبحتُ عبداً لك؟! قال الملك: ألستَ من رعاياي. قال الزاهد: وكيف أكون عبداً لك وأنت عبد عبدي؟ قال الملك مستغرباً غاضباً: وكيف ذلك؟! قال: أنت عبد الهوى وأنا سيّد الهوى، فأنت عبد لعبدي!

هذا ما ندركه نحن على قصور فهمنا، أمّا ما يقصده الإمام المعصوم سلام الله عليه - وهو في مقام الطلب من الله تعالى - فلا شكّ أنّه أعمق بكثير مما يدركه أمثالنا.

فالهبة تعني التمليك بلا عوض. وهذا هو الحقّ في كلّ ما نطلب من الله وما يتفضّل به سبحانه علينا، فكلّ ذلك بلا عوض، ولا يستثنى من ذلك أحد حتى المعصومون سلام الله عليهم، وإلا فما عسى أن يكون العوض الذي يقدّمه العبد الفقير لله الغني؟ هل هي العبادة وهي بدورها من نِعم الله سبحانه وأفضاله. وما فرضها عليهم إلاّ لعلمه تعالى بافتقارهم إليها في الوصول إلى أرفع مراتب الإنسانية. وهكذا الحال بالنسبة للإمام السجّاد سلام الله عليه رغم عصمته وشرف مقامه من بين كلّ مخلوقات الله عزّ وجلّ، ولكن مع ذلك لا يمكنه القيام بما يعوّض به الله تعالى. فإذا قام بالعبادة فإنّما هي بفضل الله ونعمته.

ثمّ إنّ الهبة والعطية بمعنى واحد في الخطّ العام ولكن الاختلاف في أنّ العطية يمكن أن تعطى لكلّ أحد، أمّا الهبة فبمقتضى لزوم القبول قد ينتزع منها معنى قابلية التملّك مادامت العين قائمة، ولذلك فهي لا تشمل سوى العاقل لحضور ملكة القبول والردّ لديه؛ ومن هنا فنحن لا نهب الماء للقطة العطشى بل نعطيه لها، وهكذا الطعام الذي نقدّمه للطير مثلاً، ذلك أنّ الهبة بحاجة إلى قبول وهو بحاجة إلى عقل، وهذا لا يكون إلا في الإنسان.

الفرق بين معالي الأخلاق ومحاسنها

بعد اتضاح معنى الهبة وأنّها تمليك بلا عوض، قد يُسأل: ما هو

الشيء الذي يدعو الإمام فيه ربّه أن يملّكه إياه؟ أهو المال أم البيت؟ أم الزوجة والأولاد أم الرئاسة؟ الجواب: لا هذا ولا ذاك، بل إنّ الإمام يسأل الله تعالى أن يهبه معالي الأخلاق. فما هو المقصود بهاتين الكلمتين؟

«المعالي» في اللغة العربية جمع «معلاة» على وزن «مرماة»، و«المعلاة» مصدر ميمي مع تاء التأنيث (للمبالغة)، أي أصله «معلى» وهو بمعنى العلوّ، وقد أُلحقت به كلّ هذه الإضافات والتحويرات للمبالغة والتوكيد. فالعلوّ معلوم ولكن «معلى» مصدر ميميّ يفيد توكيد الصفة، لحقته تاء التأنيث كما قلنا للتوكيد أيضاً، فصارت معلاة، ثمّ جاءت بصيغة الجمع (معالي) زيادة في التوكيد. على أنّ استعمال المصدر بنفسه يفيد التوكيد كما هو معروف في اللغة. فالخُلق يوصف بأنّه عال، فإن قيل «علوّ»، كان ذلك مبالغة وتأكيداً، ومثاله إذا أريد وصف زيدٍ بأنّه عادل ولكن أريد التأكيد على وجود هذه الصفة فيه أو الإشارة إلى أنّه يمثّل المراتب العليا من العدالة أو أنّه عادل حقّاً، قيل: زيد عدل، فيؤتى بالمصدر بدل اسم الفاعل، وكذلك بدل اسم المفعول لغرض التأكيد.

إذاً استعمال المصدر هنا توكيد، ثمّ المصدر الميميّ توكيد ثانٍ ثمّ لحوقه بالتاء توكيد ثالث، وصيغة الجمع توكيد رابع للأخلاق العالية.

أي أنّ الإمام يسأل الله تعالى من الاخلاق أعلى مراتبها.

وهناك توكيد خامس استعمله الإمام سلام الله عليه، وهو صيغة الجمع المضاف؛ لأنّه كما يقال: ظاهر في العموم. أي كلّ معالي الأخلاق.

ثمّ تأكيد آخر وهو الفرق الموجود بين معنيي كلمتي معالي الأخلاق ومحاسن الأخلاق. فالمفهوم الموجود في كلمة معالي الأخلاق غير موجود في محاسن الأخلاق؛ ولذلك ورد في الحديث أنّ رسول الله

صلى الله عليه وآله قال: «إنّما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق»[١] أي معالي الأخلاق؛ وذلك لأنّ الخُلق قد يكون سيّئاً وقد يكون حسناً، فالجبن مثلاً خلق سيّئ والشجاعة خلق حسن، والبخل خلق سيّئ والكرم خلق حسن، والجزع خلق سيّئ والصبر خلق حسن، وهكذا.

فالكرم مثلاً هو ندى الكفّ أي هو سبوغ الإحسان، وهكذا بالنسبة لبقية الأخلاق الحسنة، أمّا مكارم الأخلاق فهي أعلى من ذلك لأنّها تعود للنفس وتربيتها وحملها على ملازمة الخلق الحسن؛ فإنّ النفس التي لا تتحلّى بمكارم الأخلاق قد لا تلتزم بالخلق الحسن إذا لم يوافق شهواتها وغرائزها، فالخلق الحسن ينسجم مع طبيعة صاحبه، أي يوافق غرائزه وشهواته عادة، أمّا مكارم الأخلاق فتعني الالتزام بكلّ الخصال الحسنة، حتى عندما لا تتوافق مع الشهوات والغرائز، وخير مثال يوضّح ذلك البشاشة وعدم العبوس، فربّ شخص اتّصف بهذا الخلق أي يكون بشوشاً لأنّه يحبّ أن يكون محبوباً وممدوحاً في المجتمع، فتراه يتحلّى بهذه الخصلة لكي يحقّق رغبة من رغباته وهي المحبوبية، وهكذا الحال بالنسبة للشجاعة وغيرها. أمّا مكارم الأخلاق فلا تناغم بينها وبين الميول والرغبات بل هي عمليه ترويض للنفس وتعويدها على فعل الخير كيفما كان، فتقول للفرد مثلاً: سلّم على من سبّك، وهذا أمر صعب لأنّه لا يوافق رغبة الفرد وشهوته، ولذلك قد تجد ثلّة من بين كلّ ألف صائم ومصلّ وحاجّ من هو كذلك؛ ممّا يعني أنّ مكارم الأخلاق تعني إجبار النفس وترويضها على التحلّي بالخصال الحسنة وإن كانت منافية

---

(١) مستدرك الوسائل: ١١ / ١٨٧، الباب ٦، الحديث ٢.

لإرادتها ومضادّة لطبيعتها.

لذلك فإنّ الإمام سلام الله عليه يطلب في هذا الدعاء من الله أن يمنحه معالي الأخلاق أي مكارمها، ولذلك سمّي هذا الدعاء بـ (دعاء مكارم الأخلاق) وليس محاسن الأخلاق.

وتأكيد آخر يكشف الفرق بين معالي الأخلاق ومحاسنها هو أنّ الإمام سلام الله عليه قدّم كلمة المعالي فقال: (معالي الأخلاق)، ولم يقل: الأخلاق العالية، أي قدّم الوصف على الموصوف.

اللّهُمَّ صَلِّ عَلى محمَّدٍ وَآلِهِ

وَلا تَرْفَعْني في النّاسِ دَرَجَةً إلاّ حَطَطْتني عِنْدَ نَفْسي مِثْلَها

وَلا تُحْدِثْ لي عِزّاً ظَاهِراً إلاّ أحْدَثْتَ لي ذِلّة بَاطِنَةً عِنْدَ نَفْسي بِقَدَرِهَا

- ☑ بين الرفعة والعزّة والحطّ والذلّة
- ☑ العزّة الظاهرة والذلّة الباطنة
- ☑ أهمّية التوازن في النفس الإنسانية

بين الرفعة والعزّة والحطّ والذلة

لا بأس أن نذكّر بأنّ الإمام سلام الله عليه معصوم وأنّ مقام العصمة أعلى مقام يمكن أن يصله بشر، والمعصومون هم من اختارهم الله تعالى واصطفاهم ووفّقهم لبلوغ هذا المقام وهذه المنزلة، ولكن مع ذلك كلّه فإنّه حتى المعصوم ليس مستثنىً من السير التكاملي، لأنّ العصمة وإن كانت بالنسبة لنا تمثّل أعلى مرحلة للتكامل، ولكنّها ليست كذلك بالنسبة للمعصوم، بل هو قابل للمزيد من التكامل؛ ومن هنا نستطيع أن نفهم أدعية الأئمّة المعصومين ـ ومنها هذا الدعاء ـ فإنّهم سلام الله عليهم إنّما يدعون الله تعالى ويطلبون منه المزيد، إضافة إلى كونهم في مقام تعليم العباد كيفية مخاطبة الربّ الجليل.

يتوجّه الإمام السجّاد سلام الله عليه في هذه الفقرة من الدعاء إلى الله تعالى ويطلب منه مطلبين هما في الغالب متلازمان. يقول الإمام: «ولا ترفعني في الناس درجة إلاّ حططتني عند نفسي مثلها»، فما هو المقصود من الارتفاع في الناس؟ قد يُحسن الإنسان تعامله مع الناس أو يتظاهر بحسن الخلق أو يُظهر علمه، فترتفع درجته عندهم، وقد ترتفع درجته

بسبب جوده وكرمه، إلا أنّ الإنسان عموماً إذا ما ارتفعت منزلته بين الناس تولّدت في نفسه حالة من الغرور تجعله ينسى كلّ ما كان عليه سابقاً وربّما يغفل عمّا سيؤول إليه لاحقاً، فيختلّ توازنه ويهوي من حيث ارتفع؛ ولذلك ينبغي لنا أن نسأل الله تعالى بأن يصغّرنا في نفوسنا كلّما كبرنا في أعين الناس، كما يعلّمنا الإمام سلام الله عليه.

إنّ العبارات الواردة في الدعاء دقيقة جداً، فلفظة «درجة» وردت نكرة، ويقول العلماء إنّ النكرة في سياق النفي تفيد العموم، ومعناه: أيّ درجة أرتفع بها في الناس، فبقدرها ياربّ أنزلني عند نفسي. أي اجعلني أرى نفسي نازلةً بالدرجة ذاتها، لئلاّ أصاب بالغرور ولكي أسعى للارتفاع دائماً ولا تغرّني نظرة الناس إليّ؛ لأنّني إذا اغتررت بتقييمهم وإطرائهم أو نظرتهم إليّ، تراجعتُ أو توقّفت عن الرفعة على أقلّ تقدير.

وهذه الفقرة تدعو الإنسان للتأمّل، فما يراه من الاحترام والارتفاع في الناس قد يزول يوماً ما، فيجدر أن لا يغترّ به ولا يرتّب عليه أثراً، لأنّ المهمّ هو أن يتسامى الإنسان في الباطن كما في الظاهر مثلما يراه الناس. ومن كان يعظّم نفسه لتعظيم الناس له تحكّم الناس في أمره، مع أنّ الإنسان المتّزن هو الذي يكون أمره بيده، والمتحكّم في نفسه يربّيها ويرفع درجتها بحسب إيمانه وتقواه، ومثل هذا الإنسان قطعاً يكون صادقاً مع نفسه، فاهماً لها، رافعاً من درجتها، سائراً بها نحو الكمال؛ ويبقى الإنسان مع هذا كلّه مفتقراً إلى الله تعالى ليعينه على نفسه ويقيه من الزلاّت، ولذلك يعلّمه الإمام سلام الله عليه كيف يستمدّ العون منه في قوله: «**إلهي ولا ترفعني في الناس درجة إلاّ حططتني عند نفسي مثلها**».

العزّة الظاهرة والذلّة الباطنة

يقول الإمام سلام الله عليه بعد ذلك: «ولا تحدث لي عزّاً ظاهراً إلاّ أحدثت لي ذلّة باطنة عند نفسي بقدرها».

كمقدمة نعرض أنّه قد يكون شخصٌ عزيزاً ظاهراً، ولكنّه ذليلٌ صاغرٌ أمام الشهوات. فيزيد بن معاوية مثال واضح للذلّ الحقيقي رغم ما كان يتمتّع به من هيبة الحكومة التي انتزعها من الناس بالقوّة، ورغم العزّة الظاهريّة، أمّا الإمام الحسين سلام الله عليه فكان مثال العزّة والكرامة الحقيقية. فهو سلام الله عليه لم يرضخ لطاغوت زمانه، الأمر الذي أدّى إلى أن رُضّ جسدُه الشريف بالخيل بعد قتله، وسبي نساؤه وعياله.

ولا تناقض بين قول الإمام الحسين سلام الله عليه: «هيهات منّا الذلّة» وبين قول الإمام الرضا سلام الله عليه ـ عندما يصف يوم عاشوراء وما جرى فيه على جدّه الإمام الحسين سلام الله عليه ـ : «وأذلّ عزيزنا»[1]، لأنّ كلاً من القولين ناظر إلى جهة، فإنّ عبارة الإمام الرضا سلام الله عليه ناظرة إلى الذلّة

---

(١) بحار الأنوار: ٤٤ /٢٨٣ باب ٣٤.

الظاهرية التي تحمّلها آل البيت سلام الله عليهم في سبيل الله تعالى. أمّا عبارة الإمام الحسين فناظرة إلى الذلّة الحقيقية، المنتفية عن أهل البيت؛ ولذلك نقرأ في زيارة الإمام الحسين سلام الله عليه: «**لا ذليل واللّهُ معزُّك ولا مغلوب واللّهُ ناصرك**»[1]. فكيف يكون ذليلاً من أعزّه الله؟ وكيف يكون مغلوباً من نصره الله؟ لقد تحدّى الإمام الحسين أكبر طاغوت على وجه الأرض وتحمّل هو وأهل بيته كلّ المصائب والهوان الظاهري ولم يتنازل عن مبادئه؛ لأنّه كان يرى في ذلك الذلّة الحقيقية؛ ولذلك قال: «**يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون**»[2]. فالنزول لرأي يزيد كان من وجهة نظر الإمام هو الذلّ الحقيقي، أمّا ما تعرّض له من الهوان الظاهري وسبي وتشريد أهله فإنّه العزّة الحقيقية ما دامت في رفض الظلم والوقوف في وجهه؛ ابتغاءً لمرضاة الله تعالى.

أمّا الذلّة الباطنة التي وردت في الدعاء، فالمقصود منها تواضع النفس وليس ضعتها، فإنّ العزّة الظاهرة قد تضرّ بالإنسان وتخلّ في توازنه، فيتصوّر نفسه أعظم من غيره، فإذا صار كذلك فقد تأسّر، بنظرة النّاس.

الله وليّ كلّ نعمة

توجد في هذه الفقرة من الدعاء أربعة مطالب هي: الرفعة في الناس والحطّة في النفس، والعزّ في الظاهر والذلّ في الباطن.

(١) البلد الأمين: ٢٨٤ أدعية شهر شعبان.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ٩٧.

وكلّ هذه الأمور ينسبها الإمام إلى الله تعالى، فلا يقول الإمام: إلهي إذا ارتفعت في الناس أو إذا رفعني الناس، بل يقول: إلهي (لاترفعني)، (إلاّ حططتني)، (لا تحدث لي عزّاً)، (إلاّ أحدثت لي ذلّة)، وهذا معناه: ياإلهي أنت الذي تعزّ وأنت الذي تذلّ، وأنت الذي ترفع وأنت الذي تضع.

حقّاً، لولا أهل البيت سلام الله عليهم لما عرفنا كيف نتكلّم مع الله عزّ وجلّ.

ولكنّ أهل البيت علّمونا أنّ الأسباب كلّها من الله سبحانه وتعالى، فإنّ رفعة الفرد بين الناس قد تكون بسبب ذكائه ومعرفته في كيفية التعامل مع الناس عادةً لترتفع درجته، وقد تكون بسبب المال الذي يبذله، وقد تعود لأسباب أخرى، ولكن كلّ ما يمكن أن يكون سبباً لحصول رفعة الشخص في الناس فهو من الله، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللّه﴾[1]؛ ولذلك نرى أنّ الإمام السجّاد ينسب الأمر إلى الله وليس إلى الفرد ولا إلى الناس؛ محاكياً قول الله تعالى: ﴿قُل اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

وكذا الحال مع الصفة المقابلة، أي استصغار النفس وتواضعها، أمام نعم الله تعالى؛ فإنّ الأمر وإن كان يعود في الظاهر إلى الفرد - لأنّ الذي يتمتّع بهذه الصفة يكون متحكّماً هو بنفسه والمالك لزمام أمورها بدل أن

---

(١) النحل: ٥٣ .

(٢) آل عمران: ٢٦.

يتحكّم بها الآخرون - ولكنّه هو الآخر غير متمكّن من دون توفيق الله وتسديده وتهيئة أسباب الرشاد إليه. إذاً فالباعث الحقيقي للقوة على الفعل هو الله عزّوجلّ وليس الفرد.

أهمية التوازن في النفس الإنسانية

إنّ النفس الإنسانية دقيقة جداً وسريعة التأثر إلى درجة كبيـرة، فهـي كالنابض الذي يهبط لأدنى ضغط ويرتفـع بارتفاعـه بـسرعة. مثالـه: لـو تبسّمتَ في وجه شخصٍ ما، فـسوف تنبـسط أسـاريره ويتعامـل معـك باتّزان، ثمّ لو عبّست في وجهه بعد ذلك، تراه يفقد وعيه ويختلّ توازنـه ولا تعود معاملته لك كما كانت آنفاً، ولا يعذرك أو يحتمل وجود سـبب ما لعبوسك.

ولكي يكون الإنسان مالكاً لزمام نفسه متّزناً لا يتأثّر لأدنى سـبب ولا يفقد توازنه بسرعة، فإنّه يحتاج إلى تسديد إلهيّ، والإمام السجّاد يطلـب من الله تعالى في هذا الدعاء أن يمنحه التوازن بأعلى مـستوياته؛ ولـذلك يقــول: «ولا تـرفعني في النـاس درجـة إلاّ حططـتني عنـد نفسي مثلها» أي درجة بدرجة حتى لا يحصل عندي أدنى اختلال.

والتوازن في النفس مهمّ جداً، كما هو مهمّ في كلّ شـيء؛ وكمـا أنّ أدنى اختلال في توازن الأشياء قد يؤدّي إلى تحطّمها أو خرابها، فكذلك

الحال مع النفس.

فالطائرة التي تحلّق في الفضاء ربما ساهم في توازنها اجتماع آلاف العوامل على نحو الأمر الارتباطي -على حدّ تعبير الفقهاء- . فما أكثر الأجزاء والعوامل والشروط التي لابدّ من توافرها، وما أكثر الموانع والمُخلاّت التي لابدّ من رفعها، حتى تستطيع أن تحلّق هكذا في الفضاء ولا تهوي، ولو اختلّ جزء واحد من تلك الأجزاء أو حصل مانع ما فربما تفقد الطائرة توازنها وتسقط.

والخرج الذي يوضع على ظهر الدوابّ لحمل البضائع، فإنّه ينبغي أن يوازن بين طرفيه، فلو وُضع في أحد الطرفين ما زنته عشرة كيلوغرام، فإنّه ينبغي أن يعادل في الطرف الآخر بالوزن نفسه، وإلاّ مال الطرف الأثقل وسقط الخرج. وهكذا الحال بالنسبة لكلّ شيء.

فكلّ هذا يشير إلى أهميّة التوازن في الأمور التكوينية، وهذا ما يلمسه عامّة الناس عادة ويدركونه بسهولة.

فكذلك التوازن مطلوب في النفس وباقي الأمور المعنوية، بل هو أهمّ، لأنّ فقدان التوازن في المادّيات قد يؤدّي إلى تلف الأبدان، أمّا في المعنويات فيؤدّي إلى تلف النفوس، وبالتالي خسارة الدنيا والآخرة.

وإذا كان بدن الإنسان بحاجة إلى توازن يحفظ سلامته من أيّ اختلال قد يؤدّي إلى تلف في الكبد أو المخّ أو أيّ عضو من أعضائه الأخرى، فإنّ الأمر مع النفس آكد؛ لأنّه بالنفوس تحيا الأبدان وليس العكس، وبالنفوس يصل الناس للتكامل والرقيّ وليس بالأبدان.

ولذلك يطلب الإمام من الله تعالى أن يمنحه هذا التوازن فيقول: يا

إلهي بمقدار ما ترفعني في الناس، احططني بالمقدار نفسه عند نفسي. وبمقدار ما تحدث لي عزاً ظاهراً، أحدث لي عند نفسي ذلّة باطنة لئلاّ يحصل عندي أدنى اختلال، ولكي أحظى باتّزان يحفظني من الهويّ والانزلاق. فإنّ هذا التعادل والتوازن الموجود في العبارات ليس من باب البلاغة وجمال التعبير فقط ـ وإن كانت البلاغة لا تخلو منها كلمات أهل البيت سلام الله عليهم ـ وإنّما هو الدقّة المقصودة أيضاً؛ لأنّ أدنى اختلال في توازن النفس قد يؤدّي بها إلى الهلكة أخيراً.

ضرورة السعي والدعاء

معلوم أنّ الأسباب كلّها بيد الله تعالى، ولذلك نسب الإمام سلام الله عليه الرفعة في الناس، والحطّة في النفس، والعزّ الظاهر، والذلّة الباطنة كلّها إلى الله تعالى على نحو الحقيقة، ولكن حيث إنّ الدعاء صادر من الإمام المعصوم فهو يلفت نظرنا إلى الأدواء التي قد تصاب بها النفس وسبل علاجها عبر الأدوية التي تناسبها. فالإمام هنا يخبرنا أنّ الرفعة التي تحصل للإنسان بين الناس قد تصيبه بالغرور ولابدّ له من أن يوازنها بأن لا يستعظم نفسه بل يستصغرها ويطلب من الله أن يعينه على ذلك.

فلو قيل: إذا كان الأمر بيد الإنسان فلماذا يطلب ذلك من الله تعالى؟ وإذا كان بيد الله فما هو دور الإنسان في ذلك؟

نقول: صحيح أنّ الأسباب كلّها بيد الله ولكنّه تعالى لا يسهّلها لمن لا يطلبها بسعيه، كما لا يمكن أن ينالها الساعي بسعيه فقط لولا عناية الله تعالى له والتي تستلزم عدم فتور الإنسان بدعائه، ولذلك اقتضى الأمر المولويّ بالإجابة من خلال السعي والدعاء معاً.

إننا نؤمن ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[1] ولكن هذا لا يعني أن يجلس الإنسان في بيته ويكتفي بالدعاء في طلب الرزق من الله تعالى؟

صحيح أنّ الله هو الرزاق، ولكن لابدّ للإنسان أن يعمل في سبيل تحصيل الرزق، أمّا الذي لا يسعى فلا شيء له؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾[2].

لقد خلقنا الله في هذه الحياة الدنيا ليختبرنا ويبلونا سواء في سعينا لتحصيل الرزق الماديّ أو الرزق المعنوي، فعلينا أن نبذل ما منحنا الله تعالى من طاقات للاستفادة منها في كلّ المجالات المباحة.

وصحيح أيضاً أنّ الإمام سلام الله عليه يعلّمنا أن نطلب الموازنة من الله تعالى فنسأله أن يحطّنا في أنفسنا مثلاً، أو أن يحدث لنا ذلّة باطنة كلّما رُفعنا في أعين الناس وأعززنا، ولكن مفتاح هذا الأمر بأيدينا أيضاً، وما لم نصمّم على أن نكون كذلك فإنّ الله تعالى لا يعيننا، كما أنّنا لا نستطيع بلوغ الأمر من دون إرادة الله.

ولذلك ينبغي للعبد أن يتوجّه بالدعاء إلى الله تعالى وأن يتضرّع إليه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ﴾[3]، وفي الدعاء أيضاً: «ولا ينجّي منك إلا التضرّع إليك»[4].

---

(١) الذاريات: ٥٨ .

(٢)النجم: ٣٩ .

(٣) الفرقان: ٧٧ .

(٤) من لا يحضره الفقيه: ١ : ٤٨٧ باب دعاء قنوت الوتر...

ومن هنا يتّضح أنّ في الدعاء حثّاً للتوجّه على الخصال الحميدة والاجتناب عن الخصال الذميمة، كما أنّ فيه إلفاتاً إلى أنّ كلّ الأمور هي بيد الله تعالى ويجب الاستعانة به والتضرّع إليه.

التأسّي بالناجحين

قبل سنوات دُعيت للصلاة على جنازة أحد التجّار المؤمنين ـ كنت قد شاهدته وعايشته ـ كان شخصاً عادياً وكان يحظى باحترام جميع الطبقات بدءاً بالعلماء ورئيس الحكومة وانتهاءً بعامّة الناس؛ حتى أنّني أحببت أن أسأله مرّة – وكنت في داره – عمّا إذا كان هناك سرّ ينطوي عليه فرزقه الله هذه المحبّة والاحترام في قلوب الناس، فامتنعت وصرفت النظر، غير أنّ المعروف عنه أنّه كان رجلاً متديّناً، مؤدّباً، يشهد صلاة الجماعة ويتحلّى بكثير من الفضائل.

نقل لي بعض من يعرف تاريخه قائلاً: إنّه كان في شبابه حمّالاً ولكنّه كان يتحلّى بالأخلاق والذكاء والجدّ، فترقّى وضعه المالي تدريجياً حتى أصبح تاجراً وصاحب نعمة، واستمرّ على أخلاقه وتواضعه حتى بعد أن تغيّر وضعه وتحسّن، فجمع إلى جانب المال حسن الخلق والدين فكسب بذلك احترام الناس لدرجة كبيرة، حتى أنّي عندما حضرت مجلس الفاتحة الذي أُقيم على روحه شاهدت حضوراً كثيفاً من مختلف الطبقات علماء وموظفين وكسبة وتجّاراً وشيوخاً وشباباً.

ما يلفت النظر أنّ الرجل لم يكن من العلماء ولا من الزهّاد ولا من المتميّزين في شيء سوى أنّه كان تاجراً متديّناً عاديّاً.

نقَل لي بعض أصدقائه القدامى عن أحواله فقال: كان هذا الرجل يحتفظ حتى آخر حياته بالوسيلة التي كان يحمل بها البضائع على ظهره أيّام كان حمّالاً، ليس هذا فحسب بل كان ينظر إليها كلّ يوم قبل مغادرة البيت ويخاطب نفسه قائلاً: لقد كنتَ حمّالاً فلا تنسَ!

فهذا الرجل كان يحفظ توازنه بهذا العمل، لأنّ الله وفّقه لأن يكون مصداقاً لما ورد في دعاء الإمام السجّاد سلام الله عليه: «**ولا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي بمثلها، ولا تحدث لي عزّاً ظاهراً إلا أحدثت لي ذلّة باطنة بقدرها**».

وهذا الأمر وإن كان صعباً في الواقع إلاّ أنّ التوفيق الإلهي يهوّنه؛ فالإنسان بحاجة إلى توفيق من الله تعالى، وحريّ بالإنسان ـ علاوة على ذلك ـ أن يتذكّر دائماً أصله، وممّ خُلق، ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾[1].

إنّ الإنسان إذا تأمّل في هذه الآية الشريفة وحدها وتدبّر فيها كفته ليتذكّر واقعه وحقيقته، ودعته للتواضع والسعي للعمل بمضمون ما ورد في هذه الفقرة من دعاء مكارم الأخلاق.

قال الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه: «**مسكين ابن آدم... تؤلمه البقّة وتقتله الشرقة، وتنته العرقة**»[2].

فكم هو ضعيف هذا الإنسان. وإذا كان ضعيفاً إلى هذه الدرجة فما الذي يدعوه للتكبّر؟ هل الثروة والمال والسلطة والجاه أم البدن القويّ،

---

(١) القيامة: ٣٧ .

(٢) نهج البلاغة: ٥٥٠ رقم ٤١٩ الحكم القصار.

وهذه كلّها قد تزول في لحظة.

لقد نُقل عن السيّد البروجردي رحمه الله أنّه نذر نذراً شرعياً في أيّام شبابه إن صدرت منه إهانة لأحد فإنّه يصوم سنة كاملة. وقيل إنّه صام لذلك سنة أو سنتين. هذا الأمر ليس يسيراً، خاصّة بالنسبة لشخص كالسيّد البروجردي فإنّه لم يكن شخصاً عادياً منزوياً بل كان رجلاً كثير الاحتكاك بالناس، يؤمّ المصلين ويلتقيهم في المسجد ويلقي الدروس على الطلاب ويستمع لمشكلات الناس ويفتيهم، ومن ثمّ فإنّ نجاحه في مهمّة ضبط نفسه في هذا المجال، وعدم صدور ما عزم على اجتنابه إلاّ نادراً، إنّما يشير إلى علوّ همّته وتوفيق الله تعالى له.

فعلينا أن ننتهز الفرص لتربية أنفسنا وتزكيتها بالعزم والمثابرة بعد التوكّل على الله تعالى.

من الضروري الإشارة والتنبيه إلى أمر وهو أنّ كثيراً من الناس يُتعب نفسه كثيراً لغرض تزكيتها وتربيتها في المواظبة على المستحبّات ولكنّه قد يغفل عن أمور هي من الواجبات، فلا يلتفت إليها؛ مع أنّ الالتزام بعمل الواجبات والانتهاء عن المحرّمات مقدّم على العمل بالمستحبّات؛ ولذلك ورد في الحديث عن الامام أمير المؤمنين سلام الله عليه: «لا قرب بالنوافل إذا أضرّت بالفرائض»[1].

فمثلاً: هناك بعض الناس يتصوّر أنّ ابنه أو بنته أو أخته أو من هو أصغر منه من أرحامه، عبد بل ملك له، يحقّ له أن يتصرّف تجاهه كيفما شاء، ولعلّ كثيراً من الملتزمين أيضاً هكذا حاله.

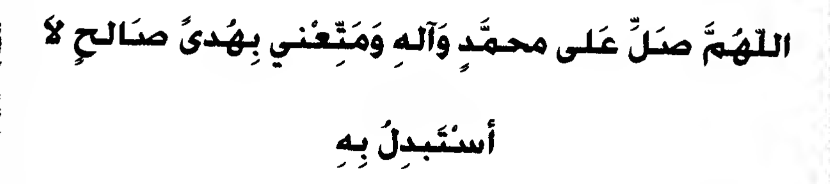
---

(١) وسائل الشيعة: ٤ / ٢٨٦ الباب ٦١ ح ٥١٧٦.

عن إسْحَاقَ بْنِ عَمَّارٍ وهو من أصحاب الإمام الصادق سلام الله عليه قَـالَ: قُلْتُ لأبي عَبْد اللَّه عليه السلام: رُبَّمَا ضَرَبْتُ الْغُلامَ في بَعْضِ مَـا يَحْـرُمُ. فَقَالَ: «وكَمْ تَضْرِبُهُ؟» فَقُلْتُ: رُبَّمَا ضَرَبْتُهُ مئَـةً. فَقَـال: «مِئَةً مِئَةً؟» فَأَعَـادَ ذَلكَ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ قَال: «حَدَّ الزِّنَى؟ اتَّقِ اللَّهَ». فَقُلْـتُ: جُعِلْـتُ فِـدَاكَ فَكَـمْ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَضْرِبَهُ؟ فَقَالَ: «وَاحِداً». فَقُلْتُ: وَاللَّه لَوْ عَلِمَ أَنِّـي لا أَضْـرِبُهُ إلاَّ وَاحِداً مَا تَرَكَ لِي شَيْئاً إلاَّ أَفْسَدَهُ. فَقَـال: «فَاثْنَتَيْنِ». فَقُلْـتُ: جُعِلْـتُ فِدَاكَ هَذَا هُوَ هَلاكِي إذاً. قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أُمَاكِسُهُ حَتَّـى بَلَـغَ خَمْـسَةً، ثُـمَّ غَضِبَ فَقَالَ: «يَا إِسْحَاقُ إنْ كُنْتَ تَدْرِي حَدَّ مَا أَجْرَمَ فَأَقِمِ الْحَدَّ فِيهِ ولا تَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ»[1].

إذاً ينبغي لنا أولاً أن نعرف حـدود الواجـب والحـرام لنمتثـل الأول ونجتنب الثاني، وبعد ذلك نسعى لعمل المستحبّ؛ لأنّه لا يقال لنـا يـوم القيامة: لماذا لم تؤدِّ المستحبّ الفلاني، ولكنا سنُسأل عن أداء الواجبـات وترك المحرّمات. ولئن تذرّع أحدنا أنّه لم يكن يعلم، قيل لـه: فلـم لَـم تتعلم؟

(١) الكافي: باب النوادر: ٢٦٠ .



اللّهُمَّ صَلِّ عَلى محمَّدٍ وَآلِهِ وَمَتِّعْني بِهُدىً صَالِحٍ لا أسْتَبدِلُ بِهِ

وَطَرِيقَةِ حَقٍّ لا أزيغُ عَنْها وَنِيَّةِ رُشْدٍ لا أشُكُّ فيهَا...

☑ الهدى الصالح وعدم الاستبدال

☑ الطريق الحقّ وعدم الزيغ

☑ نيّة الرشد والثبات عليها



الهدى الصالح وعدم الاستبدال

الهدى في اللغة يُذكّر ويؤنّث فتقول هـدىً صـالح وهـدىً صـالحة، وورد بالصيغتين في فصيحِ الكلام، وربما جاء هنـا مـذكّراً مراعـاة لنكتـة أدبية كما لو يكون مراعاةً للنسق الذي يقتضيه الترتيب.

أمّا قوله سلام الله عليه (صالح) فهو:

• إمّا باعتبار أنّ للهداية مراتب. فيكون المراد من «الهـدى الـصالح»: تلك المرتبة من الهداية التـي تكـون صـالحة للـداعي، أو المرتبـة التـي يستحقّها؛ لأنّه لا شكّ أنّ للبشر حتى المؤمنين منهم بل الأخيار والأبـرار مراتب من الهداية، ولكن لا يصحّ للإنسان أن يقتصر على المرتبة الـدنيا من الهداية، بل عليه أن يسعى لأن يجعله الله تعالى أهـلاً لبلـوغ مراتبهـا العليا. أمّا من لا يكون مستحقّاً لها، فإنّ الله سبحانه وتعالى لايمنحها إيّاه؛ لأنّه غير أهل لها، فلا تصلح له، ومن ثمّ لا يستطيع الإنسان الصعود أعلى من المرتبة التي هو أهل لها.

• وإمّا أن يكون المراد من (الصالح) وصفاً توضيحياً أو تفسيرياً لـ(هدى)، أو احترازياً - حسب الاصطلاح العلمي - .

أمّا قوله سلام الله عليه (لا أستبدل به) فهو صفة ثانية لـ (هدىً)، ومعناه: اللهم وهذا الهدى الصالح الذي سألتك أن تمتّعني به، فاجعله مستمراً دائماً معي، وليس كالوديعة التي تبقى عند الإنسان مدّة من الزمن ثمّ تُستردّ بعد ذلك. فلا يكفي أن يتمتّع الإنسان بالهدى والصلاح في بعض أوقات حياته ما لم تختتم حياته وهو كذلك، ولا يستبدل الضلالة بالهدى.

إنّ همّ الشيطان وجهده منصبّان على هذه النقطة، وهي دفع الإنسان لأن يبدل الهدى بالضلالة، والخير بالشرّ، والصلاح بالفساد، وما أكثر من ينجح في إغوائهم!

قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾[2].

والقليل هو ما يقابل الكثير، فيكون المعنى أنّ كثيراً من الناس غير شاكرين.

---

(١) سبأ: ١٣ .

(٢) سورة ص: ٢٤ .

طريق الحقّ وعدم الزيغ

الحقّ والصالح مفهومان لمصداق واحد، فهما في الذهن معنيان لكن الوجود الخارجي لهما واحد؛ فيكون قوله: «**طريقة حقّ**» من باب العطف التفسيري والتوضيحي لقوله سلام الله عليه: «**هدى صالح**». بيد أنّه يمكن أن يكون المراد بالهدى الدين والعقيدة، وأن يكون المراد بالطريقة العادات والسنن؛ فيكون معنى قوله سلام الله عليه «**متّعني بهدى صالح لا أستبدل به**» الثبات على الإيمان والمعتقد؛ لأنّه قد لا يبقى الفرد المسلم - والعياذ بالله - على الإيمان والإسلام بل يستبدل بالإيمان غيره ويرتدّ عن دينه، وما أكثر الذين ارتدّوا عن الإيمان والمعتقد. فمن يقرأ التاريخ يجد أنّ كثيراً من الناس قد ارتدّوا ورجعوا عن الإسلام حتى في زمن النبي صلّى الله عليه وآله، فهؤلاء لم يتمتّعوا بهدى صالح دائم بل استبدلوا الكفر به، كما كان هناك أقوام بقوا مع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حتى السنين الأخيرة من عمره الشريف، ولكنّهم شهروا سيوفهم في وجهه في السنتين الأخيرتين من حياته المباركة، كالخوارج الذين مرقوا عن الإسلام وارتدّوا عن إيمانهم وزاغوا عنه وانحرفوا.

ثمّة من يزعم أنّه ملتزم طريق الحقّ، ولكن تراه يتوفّر على عادات وتقاليد باطلة لا تتناسب مع زعمه، فمثل هذا لا يتمتّع بطريقة حقّ، وخير مثال على ذلك ما نراه في تقاليد الزواج؛ فبعض الآباء يزوّج ابنته

البالغة الرشيدة من دون أن يستشيرها. وإن أعلمها بالأمر، فلا يكون إلاّ بعد عقده وإبرامه حتى لا يبقى لها خيار بعده. وهذا خلاف السنّة، أمّا إذا تسرّع وأعطى كلمة ثمّ جعلها ترضى بعد ذلك فلا إشكال، ولكن لابدّ من رضاها على كلّ حال.

ممّا ينقل في هذا الصدد أنّ رجلاً كان كلّما تقدّم إليه أحد في طلب ابنته للزواج رفضه، حتى تقدّم إليه أحد الأشخاص فوافق عليه، فقال ذلك الشخص له: هل أرى أنّك أعطيتني كلاماً عليها وانتهى كلّ شيء؟ قال الأب: نعم. قال الخاطب: هلاّ تسأل البنت؟ قال: هذا لا يعنيها، إنّما أمرها يعود إليّ!

ولا تقتصر الطرق الباطلة على المحرّمات والواجبات بل تصدق في المستحبّات والمكروهات أيضاً؛ ولذلك ينبغي للمسلم أن يكون على طريقة حقّ فيهما أيضاً؛ ومثاله: البدء بالتحيّة والسلام، فترى بعض الأشخاص لا يسلّم على أحد أبداً، وإذا سلّم عليه أحد اكتفى بالردّ عليه متكلّفاً، أمّا هو فلا يبدأ أحداً بالسلام ترفّعاً واستكباراً !!

إذن يمكن أن يكون المراد من قول الإمام سلام الله عليه «**هدى صالح**»: الإيمان الصالح، والمراد من «**طريقة حقّ**»: السنن الصحيحة، كما يمكن أن يكون الثاني عطفاً تفسيرياً للأوّل.

وعلى كلّ حال، فإنّ المهمّ في الأمر هو الثبات على الهدى الصالح وطريق الحقّ؛ ولذلك قال الإمام سلام الله عليه: «**وطريقة حقّ لا أزيغ عنها**». فما أكثر الذين كانوا على طريقة الحقّ ولكنّهم لم يستمرّوا عليها؛ إمّا نتيجة مشكلات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو نفسية أو تأثّراً بغيرهم. وفي كلّ الأحوال لا ضمان لأيّ أحد بالثبات على طريقة الحقّ إلاّ بالدعاء والاستعانة بالله تعالى والسعي أيضاً؛ فالأمر بحاجة إلى دعاء

وخشوع وتضرّع، إضافة إلى السعي والجدّ.

ما يلفت النظر أنّ الإمام سلام الله عليه كان في الفقرات السابقة من الدعاء يعزي تغيّر الحالات كلّها لله تعالى، مثل قوله: «**ولا ترفعني في الناس درجة إلاّ حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزّاً ظاهراً إلاّ أحدثت لي ذلّة باطنة عند نفسي بقدرها**» إلا أنّه سلام الله عليه في هذه الفقرة من الدعاء نسب الجانب السلبيّ (أي الاستبدال والزيغ والشكّ) للإنسان نفسه، فقال: «**ومتّعني بهدى صالح لا أستبدل به، وطريقة حقّ لا أزيغ عنها، ونيّة رشد لا أشكّ فيها**»، فما هو السبب في ذلك؟

إنّ الله تعالى هو مسبّب الأسباب كلّها؛ ولذلك فكلّ فعل يصدر من الإنسان يكون منسوباً إلى الله تعالى من هذه الجهة؛ قال الله سبحانه: ﴿**وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ. قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ**﴾[1] . ومن ثمّ فإنّ نسبة فعل الخير وما يصيب الإنسان من حسنات، إلى الله تعالى، وإن كان بفعل الإنسان وإرادته فإنّما هو من جهة التوفيق الإلهي، فلولاه لما كان الخير يصيب الإنسان مطلقاً، ولكن حيث إنّ الإنسان هو الذي يهيّئ السبب باختياره، وإنّ الله يغيّر حال الإنسان تبعاً لاختياره، فإنّ صدور الشرّ وما يصيب الإنسان من سيئة ينسب للإنسان نفسه؛ لأنّ الله تعالى يخلّيه وهوى نفسه في حبّ الشرّ وإتيانه. قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**﴾[2] ومن هنا نفهم معنى نسبة الضلالة إلى

(١) النساء: ٧٨.

(٢) النساء: ٧٩.

الله في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[1] ونسبتها إلى الإنسان في آيات أخرى، في حين نُسبت الهداية إلى الله تعالى وحده كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[2]، والسبب كما قلنا يعود للإنسان الذي جعله الله تعالى مختاراً ليختار أحد الطريقين، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[3]. فرغم أنّ الله تعالى قد منح الإنسان حقّ الاختيار، إلاّ أنّه نسب تيسير الخير والشرّ معاً إليه سبحانه[4]؛ كما أنّ الأب الذي يعطي ابنه نقوداً وينصحه أن يصرفها في سبيل الخير ويحذّره من طرق الشرّ، ثمّ يخيّره ولكن الابن لا يعمل بوصيّة الأب ونصْحه، فينفق النقود في طريق الشرّ، فإنّ الأب لا يكون مسؤولاً عن تصرّف الابن، ومع ذلك يقول له: أنا المسبّب لما عملته لأنّني مكّنتك وخيّرتك.

إنّ الله تعالى مكّن الإنسان من فعل الخير أو الشرّ، ومنحه حقّ الاختيار، وفي الوقت نفسه شجّعه على فعل الخير والإقلاع عن الشر، كما دعاه للتوبة، فأرسل إليه الأنبياء والكتب، وجعل الأئمة الذين يهدونه ويعلّمونه، وكان من جملة تعاليمهم هو الدعاء إلى الله تعالى وطلب الثبات منه.

---

(١) الزمر: ٢٣.

(٢) القصص: ٥٦ .

(٣) البلد: ١٠ .

(٤) قال تعالى: ﴿فأمّا من أعطى واتّقى ۞ وصدّق بالحسنى ۞ فسنيسّره لليسرى ۞ وأمّا من بخل واستغنى ۞ وكذّب بالحسنى ۞ فسنيسّره للعسرى﴾ الليل: ٥ – ١٠ .

نية الرشد والثبات عليها

لقد طلب الإمام سلام الله عليه من الله تعالى الهدى الصالح وهو الإيمان والمعتقد الحقّ، وعدم الاستبدال به، وطلب الطريقة الحقّة وهي العادة والسنّة الصحيحة، وعدم الزيغ عنها. ثمّ طلب نيّة الرشد وهي إطارهما، فربما تكون الظروف والأجواء بحيث يكون الهدى الصالح وطريقة الحقّ هما الغالبان، فينضمّ إليهما أغلب الناس كما حدث أثناء فتح مكّة حيث قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً﴾[1]، لأنّ الدخول في الإيمان سهل والكفّة الدنيوية الراجحة بيد أهل الحقّ، ففي مثل هذه الحالة لا تعرف حقيقة النوايا، لدى تلك الأفواج، خلافاً للاطمئنان الحاصل من صدق نوايا أولئك الذين أسلموا في مكّة المكرّمة ـ عندما كانت بيد المشركين ـ رغم تعرّضهم لشتّى صنوف العذاب[2]؛ ولذلك يقول الله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ

---

(١) النصر: ١.

(٢) كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يذهب بشخصه الكريم إلى القبائل والوفود الذين كانوا يأتون إلى مكّة في موسم الحج - وكان الحجّ موجوداً قبل الإسلام ولكن الإسلام خلّصه من الطقوس الوثنية - فكان صلّى الله عليه وآله يعرض عليهم الإسلام فكان بعضهم يرفض =

قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾[1].

كيف نحصّن نيّاتنا؟

أسند الإمام سلام الله عليه طلبه هذا بطلب آخر يؤمّن على المعتقد فقال: «نيّة رشد لا أشكّ فيها»، والشك في النيّة مسألة مهمّة جداً تتطلّب انتباهاً كبيراً من الإنسان؛ لأنّ الشيطان يركّز كلّ جهوده عليها من أجل أن يزلّ الإنسان ويحرفه عن الهدى الصالح والطريقة الحقّة. ولكي ندرك أبعاد حملة الشيطان علينا، فلنتأمّل في الآية التالية فهي تحكي عزم إبليس وإصراره على إغواء البشر، وهو يقسم لله تعالى، على ذلك؛ كما حكاه القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[2] أي لا أدعهم يصلون إليك بل أقف في طريقهم، فكلّما أتوك من جهة واجهتهم منها حتّى أصرفهم عنك، ومن لا تنفع معه المصارحة ـ أي الإتيان من أمام ـ أتيته من خلف، أي ألبست له الحقّ بالباطل، أو قلت له: انظر إلى فلان وفلان ارتكب كذا وهو أعظم منك شأناً أو أحسن منك حالاً ومعاشاً.

= وقسم قليل يقبل دعوته، وكان بعضهم يسيء الأدب مع النبي صلّى الله عليه وآله وربما لا يدعه يتكّلم.

تصوّر كم كان الأمر صعباً في البداية، وكم كان يعني الدخول في الإسلام؛ وهذا يعني أنّ الهدى الصالح والطريقة الحقّة التي كان عليها غالب المسلمين الأوائل، أعني تلك الثلّة المؤمنة منهم، لم تكن تقليداً أو من باب «حشر مع الناس عيد» بل كان إطارها النيّة الصادقة والعقيدة الراشدة.

(١) الحديد: ١٠.

(٢) الأعراف: ١٧.

فلنكن على حذر من ألاعيب الشيطان الرجيم وأساليبه، ونطلب من الله تعالى نيّة الرشد والثبات عليها.

في مقابل هذا، جعل الله تعالى لنا العروة الوثقى إن تمسّكنا بها لم نزِغ ولم ننحرف أبداً، ذلكم هو القرآن الكريم وعترة النبي صلّى الله عليه وآله، فهما السنام الأمثل والمعيار الحقّ الذي نعرف من خلالهما - أي بتمسكنا والتزامنا بهما وعدم الابتعاد عنهما - عدم انحرافنا عن الطريقة الحقّة وعدم استبدالنا شيئاً بالهدى الصالح والطريقة الحقّة، فلا نشكّ في نيّاتنا البتّة.

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «أيّها الناس إنّي تارك فيكم الثقلين»، قالوا: يا رسول الله و ما الثقلان؟ قال: «كتاب الله و عترتي أهل بيتي، فإنّه قد نبّأني اللطيف الخبير أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض كإصبعيّ هاتين» - وجمع بين سبّابتيه - «ولا أقول كهاتين» - وجمع سبّابته والوسطى - «فتفضل هذه على هذه»[1].

فهنا نكتة جديرة بالتأمّل، وهي أنّ الناس - عادةً - إذا أرادوا وصف شيئين بأنّهما لن يفترقا مثّلا لهما بجمع السبّابة والوسطى، ولكنّا نلاحظ أنّ الرسول صلّى الله عليه وآله جمع بين سبّابتيه، فلماذا فعل ذلك؟

لقد أراد صلّى الله عليه وآله أن يبيّن ـ إضافة إلى أنّهما لن يفترقا ـ أنّهما عدلان، وبما أنّ الوسطى أطول من السبابة قليلاً فلم يجمع بينهما، بل جمع صلّى الله عليه وآله بين سبّابتيه، الأمر الذي يدلّ على أن القرآن الكريم وأهل البيت سلام الله عليهم عِدْلان.

---

(١) تفسيرالقمي: ١ / ١٨٠.

أهل البيت هم المعيار لمعرفة الحقّ

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «عليّ مع الحقّ والحقّ مع علي، يدور معه حيثما دار»[١]. إنّ إخبار رسول الله صلّى الله عليه وآله بأنّ عليّاً مع الحق، يلزم منه أنّ الحقّ معه أيضاً؛ هذا ما يفيده قياس المساواة، فلو كان عمرو مع زيد، فهذا يعني أنّ زيداً مع عمرو أيضاً، ولكن الرسول صلّى الله عليه وآله أراد بذلك التأكيد ومزيد الإلفات.

هنا أيضاً نكتة أخرى جديرة بالالتفات، وهي أنّ الرسول صلّى الله عليه وآله قال: «يدور معه حيثما دار» ولم يقل: يدور حوله. وذلك في بيان لكشف العلاقة بينه سلام الله عليه وبين الحقّ كعلاقة القميص بمتقمّصه، فكيف أنّ القميص يدور حيثما دار لابسه، كذلك الحقّ مع أمير المؤمنين عليه السلام. وبهذا أراد النبي صلّى الله عليه وآله أن يقول: إنّ عليّاً هو ميزان الحقّ ومعياره؛ ولذلك فإنّ الحقّ يدور مع علي، وليس العكس. فهذه نكات بليغة ينبغي لنا أن نتوقّف عندها، لعلّنا نكتشف بعض مضامينها الرائعة؛ حيث المتبادر إلى فهمنا من خلال هذا الحديث هو أنّ الأشخاص مهما عظموا لا يمكن أن يكونوا معياراً للحقّ أبداً، باستثناء أهل البيت سلام الله عليهم.

فأهل البيت سلام الله عليهم هم العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ولا يشاركهم في ذلك غيرهم بالغاً ما بلغ، لأنّهم الأئمّة المعصومون، وقد جعلهم النبي صلّى الله عليه وآله عدلاً للقرآن، ومعياراً لمعرفة الحقّ، فالآخرون يعرضون على هذا المعيار، ليعرفوا إن كانوا على حقّ أم لا، أمّا أهل البيت صلوات الله عليهم فلا يعرضون على أحد؛ «لا يقاس بآل محمّد من هذه

---

(١) بحار الأنوار: ٢٨ / ٣٦٨.

الأمّة أحد»[١].

دخل الحارث الهمداني على أميرالمؤمنين عليه السلام في نفر من الشيعة وقال: نال الدهر يا أمير المؤمنين منّي، وزادني أواراً وغليلاً اختصام أصحابك ببابك، قال سلام الله عليه: وفيم خصومتهم؟ قال: فيك وفي الثلاثة من قبلك، فمن مفرط منهم غال، ومقتصد تال، ومن متردّد مرتاب، لا يدري أيقدم أم يحجم! قال سلام الله عليه: «قدك[٢] فإنّك امرؤ ملبوس عليك؛ إنّ دين الله لا يعرف بالرجال بل بآية الحق، فاعرف الحقّ تعرف أهله»[٣].

وهذه كلمة يخضع لها التاريخ ويجدر أن يقف لها حتى أعداء الإمام سلام الله عليه إجلالاً، فما أبلغها وأغناها، إنّ حياة كلّ إنسان واعٍ من بدايتها إلى نهايتها رهينة هذه الكلمة الخالدة.

فمن عرف الحقّ ـ وهو ما صرّح به الرسول صلّى الله عليه وآله في حديثه المتواتر: إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً ـ لا يتزلزل إيمانه بعد ذلك وإن تغيّر زيد من الناس أو عمرو، أو رأى رجالاً انحرفوا وكانوا قبل ذلك صالحين قضوا أعمارهم في الصلاح ثمّ انحرفوا في آخر ساعة من حياتهم.

فإن لم نتّخذ أهل البيت سلام الله عليهم ملاكاً وعروة فلا ضامن لنا من الاستبدال، لأنّ عدوّنا متخصّص في الإغراء والإغواء، ومتفرّغ لنا ولا شغل له غير ذلك، ولا مشكلة عنده تلهيه عنّا، وهو يجري من ابن آدم

---

(١) نهج البلاغة : ٤٦ الخطبة ٢ بعد انصرافه من صفّين.

(٢) أي حسبك.

(٣) الأمالي للمفيد: ٣ ح ٣، المجلس الأوّل.

مجرى الدم في عروقه[1].

ولكن الله الحكيم قد جعل لنا أئمّة أهل البيت سلام الله عليهم وأمرنا بالاعتصام والتقوّي بهم على الشيطان وتسويلاته.

فلنتمسّك بهم ونزن مواقفنا بمعاييرهم، لنضمن استقامتنا وثباتنا، ونؤوب إلى الحقّ والهدى أبداً.

لقد التحق بالإمام الحسين منذ اليوم الأوّل لخروجه من مكّة تجاه العراق، جموع غفيرة من الناس، وكان هؤلاء الذين التحقوا به جميعهم مسلمين، مصلّين صائمين، بل عرّضوا أنفسهم للخطر؛ لإيمانهم بإمامة الحسين، ولكن كم بقي منهم في اليوم العاشر؟

ذكرت المقاتل أنّه لم يبقَ مع الإمام سوى اثنين وسبعين، فيما انهزم الباقون. وهذا معناه أنّه هرب أكثر الذين جاءوا مع الإمام الحسين عليه السلام. وهذا نوع من الاستبدال والزيغ. إذن ما الضمانة في أن لا نزيغ ولا نستبدل بالهدى الضلال؟

لا ضمانة إلا الدعاء والسؤال من الله بنبيّه وأهل بيته سلام الله عليهم، مع المواظبة من قبل أنفسنا نحن أيضاً.

قد يخدع الشيطان الإنسان بأهون شيء فيبتاع منه دينه. إنّ كلّ شيء يمكن أن نُخدع به في هذه الدنيا لا يستحقّ أن نساوم به على ديننا، فإنّ الدنيا كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولا فرق بين المليار والفلس الواحد من المال الحرام إلا في الحجم.

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم... (مستدرك الوسائل: ١٦ / ٢٢٠ ح ١٦).

روي أنّ معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروى أنّ هذه الآية ﴿ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ وَ إذا تَوَلَّى سَعى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها ويُهْلِكَ الْحَرْثَ والنَّسْلَ واللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ﴾ نزلت في علي عليه السلام، وأن الآية الثانية ﴿ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللَّهِ﴾ نزلت في ابن ملجم، فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل، فبذل أربعمائة فقبل[١]. ولكن مهما كان المبلغ الذي أخذه سمرة فهو خسر على كلّ حال.

لقد مات أبو ذر رحمه الله وهو جائع بينما كان يمكنه أن يخلّف الملايين كما خلّف صاحبه عثمان بن عفان[٢].

لقد كان أبو ذر وعثمان يحضران معاً محاضر رسول الله صلى الله عليه وآله طيلة عشرين عاماً ويصلّيان معاً خلف رسول الله صلّى الله عليه وآله، وشاهداه معاً تأتيه الأموال ولكن أبا ذر يموت جوعاً، والآخر يخلّف ما سمعت. فالنبي الأكرم عندما أوشك أن يدعى قال لعلي: يا علي أنت قاضي ديني[٣]. فمات صلّى الله عليه وآله مديناً ليهودي قد رهن عنده درعه صلّى الله عليه وآله؛ وهكذا كان أبو ذر في متابعته لسيرة رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يستبدل به كما فعل غيره. نسأل الله تعالى الثبات على الهدى والحقّ والرشد.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٤ / ٧٣.

(٢) قال المسعودي: في أيّام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال، فكان له ـ لعثمان ـ يوم قُتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائتا ألف دينار، وخلّف إبلاً وخيلاً كثيرة. تاريخ ابن خلدون: ١ / ٢٠٤.

(٣) بحار الأنوار: ٣٨ / ٧٤، باب ٦٠.



اللّهُمَّ لا تَدَعْ لي خَصْلَةً تُعَابُ مِنّي إلاَّ أصْلَحْتَها، وَلاَ عَائِبَةً أؤنّبُ عَلَيهَا إلاَّ حَسّنْتَهَا، وَلاَ أكْرُومَةً فِيَّ نَاقِصَةً إلاَّ أتمَمْتَها.

☑ الحذر من كلّ أنواع العيوب وإصلاحها

☑ الفرق بين العيب والعائبة والنقص

☑ الورع وترويض النفس



الحذر من كلّ أنواع العيوب وإصلاحها

قد تكون في الإنسان خصلة ولكنّه لا يعلم بوجودها، وقد يعلم بها ولكنّه لا يعلم أنّها عيب يوجب التعيير، وقد يعلم بها ويعلم أنّها عيب ولكنّه قاصر عن إصلاح نفسه والتخلّص منها، وقد يكون مقصّراً.

والمثال على ما تقدّم هو الجهل، فإنّ الإنسان يعاب عليه. ولكن قد يكون جهله عن قصور، لأنّه لم يسعه أن يتعلّم، وقد يكون مقصّراً، كما لو أمكنه التعلّم ولكنّه تلكّأ عن الأمر؛ فعلى أيّ من هذه الحالات يعاب؟ الجواب: يعاب عليها كلّها؛ لأنّ الإنسان لا يعاب على التقصير فقط، بل قد يعاب على القصور أيضاً، كما أنّه لا يعاب على شيء يعلم أنّه عيب فقط، بل قد يعاب على شيء لا يعلم بوجوده، ولذلك يقول الإمام: لا تدع خصلة تُعاب منّي. والمقصود أيّة خصلة، لأنّ النكرة في سياق النفي تفيد العموم كما هو معلوم.

وقد يكون العيب شرعياً كارتكاب الحرام والمكروه، أو عرفياً أو أخلاقياً مثل العجلة وعدم التأنّي، والغضب، والتكاسل وما أشبه، فالمفهوم يشملها جميعاً، ومن ثمّ تكون مشمولة للدعاء والطلب من الله بأن يصلحها مهما كان نوعها وفي أية حالة كانت. فإنّ الإمام لم يقل: (تعيبها منّي) بل قال: «تُعاب منّي». وصيغة المبنيّ للمجهول تعطي سعة

من ناحية الفاعل، فيكون معنى قول الإمام: اللهم أصلح أيّة خصلة تُعاب منّي، سواء كان التعييب شرعياً أم عرفياً، وفي أية حالة اتّصفتُ بها، سواء أكنت جاهلاً بها وبكونها عيباً أم لا.

العيوب العرفية من منافيات العدالة

ورد في صحيحة عبد الله بن يعفور، أنّ الإمام الصادق سلام الله عليه فسّر العدالة بقوله: «والساتر لجميع عيوبه»[1].

وعندما يأتي الفقهاء ـ المشهور منهم ـ إلى تعريف العادل يقولون: أن يكون تاركاً للمحرّمات ولمنافيات المروءة.

فترك المحرّمات واضح، أمّا تركه لمنافيات المروءة فقد استفادوه من مضمون قول الإمام سلام الله عليه: أن يكون ساتراً لعيوبه، ففهموا أنّ مراد الإمام ليس العيوب الشرعية فقط، بل العيوب العرفية أيضاً، ولذا قالوا إنّ العادل هو الذي يترك المحرّمات ومنافيات المروءة أيضاً.

لقد اعتبر الشرع العيوب العرفية نقائص، وأوصى بالتخلّص منها. وخير مثال على ذلك رفضه للباس الشهرة، وأورد الفقهاء هذه المسألة في كتاب الصلاة في باب لباس المصلّي[2]، وفي مواضع أخرى أيضاً.

---

(١) قال ابن يعفور: قلت لأبي عبد الله (الصادق) عليه السلام: بما يعرف عدالة الرجل بين المسلمين حتى يقبل شهادته لهم وعليهم؟ فقال: أن يعرفوه بالستر والعفاف والكفّ عن البطن والفرج واليد واللسان، ويعرف باجتناب الكبائر التي أوعد الله عليها النار من شرب الخمر والزنا والربا وعقوق الوالدين والفرار من الزحف وغير ذلك، والساتر لجميع عيوبه. (بحار الأنوار: ٨٥ / ٣٨)

(٢) فقد حرّم معظم الفقهاء رضوان الله عليهم على المؤمن الخروج بلباس الشهرة إلى المحالّ العامّة=

ومن الفقهاء من أفتى بحرمة بعض المستحبّات إذا صارت مدعاة للسخرية من عاملها. وهذه مسألة مختلف فيها طبعاً، ولا تشمل الواجبات والمحرّمات؛ لأنّ أحكام الله تعالى لا تتغيّر بسبب سخرية الناس. أمّا المستحبّ الذي قد يقال بتركه في حال حصول السخرية فإنّ ذلك لا يعدّ تغييراً لحكم الله تعالى وتعطيلاً له، بل إنّه يُترك من باب استلزامه لإرتكاب حرام، وهو تعريض النفس للسخرية والإهانة؛ فإن ذلك حرامٌ، فإذا دار الأمر بين المستحبّ والحرام فلا شكّ يكون ترك الحرام مقدّماً على الإتيان بالمستحبّ؛ إذ لا إلزام في المستحبّ، بينما هناك إلزام بترك الحرام.

الحذر من القصور ومن الجهل المركّب

قد تكون عند الفرد خصلة أو خصال يعاب عليها شرعاً أو عرفاً ولكنّه لا يعلم بوجودها أو بأنّها معيبة، وهذا من الجهل، ويعدّ صاحبها قاصراً؛ فربّما ينتبه المرء بعد خمسين سنة أو أقلّ أو أكثر إلى أنّه كان مبتلى بخصلة معيبة طيلة العقود الماضية من عمره، فيندم ويتألّم، وحقّ له ذلك، لأنّ القصور والجهل بالعيب ليس مانعاً من الحسرة والندامة.

فمثلاً لو أنّ شخصاً حجز على السفر بالطائرة وأُخبر أنّها تقلع في ساعة كالتاسعة، وظنّ أنّها التاسعة مساءً، ولم يذهب إلى المطار حتى

= وهو اللباس الذي يوجب أن يعيّره الناس بسببه، ومن لم يحرّمه منهم عدّه مكروهاً. ومما يؤكّد حرمة الشهرة روايات عديدة عن المعصومين سلام الله عليهم منها رواية عن الإمام الصادق عليه السلام؛ حيث يقول: **الشهرة خيرها وشرُّها في النار** (الكافي: ٦ / ٤٤٤ باب كراهية الشهرة، ح ٣).

العصر، رغم أنّه لم يكن قد تأخّر بسبب أمر مهمّ شغله، بل لأنّه كان يتصوّر أنّ ساعة الإقلاع هي التاسعة بعد الظهر، وعندما ذهب إلى المطار تبيّن له أنّ الطائرة قد أقلعت بالفعل في التاسعة صباحاً، وأنّ من أخبره بساعة الإقلاع غفل أن يذكر له أنّ الإقلاع يكون في التاسعة صباحاً بل قال له التاسعة وحسب، فظنّها مساءً. فهل هذا الشخص لا يلوم نفسه ولا يتألّم، خاصّة لو فاته موعد مهمّ أو مسألة مهمّة بسبب جهله وغفلته؟ لاشكّ أنّه سيتألّم ويرى أنّه كان عليه التأكّد قبل ذلك.

إذاً علينا أن ننتبه جيّداً ونحذر من الوقوع في الجهل والغفلة والقصور فضلاً عن التقصير، ونشعر بأهمّية النصيحة والنقد البنّاء الموجّه لنا، ونشكر من يدلّينا على عيوبنا لإصلاحها[1]، ونكون طيّعين مع الناس في تعاملنا معهم لنشجّعهم على أن يهدوا إلينا عيوبنا.

ولنا في علمائنا أسوة

كان الشيخ محمد طه نجف[2] قد فقد بصره أواخر عمره، وله قصّة أذكرها باختصار؛ لأنّ على طالب العلم ـ بل على الإنسان المؤمن عموماً ـ أن يستلهم الدروس من قصص هؤلاء الأعاظم، وينظر هل سيتّخذ الموقف المشابه لمواقفهم إن عرضت له حالة مماثلة أم لا. يقول الشيخ:

---

(١) فقد ورد عن الإمام الصادق سلام الله عليه: أحبّ إخواني إليّ من أهدى إليّ عيوبي. تحف العقول: ٣٦٦.

(٢) أحد كبار فقهاء الشيعة ومراجع التقليد في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، تلمّذ على الشيخ الأنصاري ومن بعده تلمّذ هو ومجموعة زملاء له - منهم الآخوند الخراساني- على المجدّد الشيرازي، وصاروا كلّهم مراجع تقليد، وبقي الشيخ محمد طه نجف مرجعاً أعلى للتقليد حتى وفاته ثمّ انتقلت المرجعية بعده إلى الآخوند الخراساني.

بدَرَ في ذهني يوماً تساؤل مفاده: كيف أضمن أن يكون كلّ ما أقوم به من أعمال مطابقاً للموازين الشرعية الواقعية؟ حيث كنت أخشى مثلاً أنّي قد أعطيت ما لزيد لعمرو، أو حكمت بوقفية ملك وحرمت أصحابه الشرعيين منه أو العكس، فستطول حسرتي، فماذا ينبغي لي أن أعمل لكي أتخلّص من هذا الهمّ، وفكّرت مع من أطرح هذه القضية، هل أطرحها على بعض العلماء الموجودين في النجف الأشرف، ولكنّي أجبت نفسي بالقول إنّ أيّاً منهم لا يشفي غليلي لأنّه مثلي يعرف نفس الأدلّة المتداولة التي أعرفها وهي الكتاب والسنّة والعقل والإجماع، ولو طرحت إشكالي على أيّ منهم لأجابني بالجواب الذي أعرفه أيضاً، وهو: إنّ الواجب استفراغ الجهد وإنّ أحكامنا ظاهريّة، وهكذا.

ـ هذا مع العلم أنّ الشيخ كان حينذاك مرجعاً للتقليد والفتوى والحلّ والفصل وقبض الأموال ودفعها ونصب المتولّين في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلى غير ذلك. ولاشكّ أنّه كان يراعي في تلك الأعمال كلّ الموازين الشرعية التي يعرفها وكان محتاطاً فيها، وكانت صحيحة حسب ما تقوده الأدلّة، ولكنّه رغم ذلك كان يخشى أن ينكشف له بعد الموت أنّ بعضها كان باطلاً بسبب قصوره، وإن كان معذوراً لأنّه لم يكن مقصّراً في استفراغ الجهد للوصول إلى وظيفته الشرعية وتكليفه كمرجع ـ. يقول الشيخ:

فقرّرت التوسّل بالإمام أمير المؤمنبن سلام الله عليه، ومرّت مدّة طويلة لم تنقطع توسّلاتي بالإمام سلام الله عليه ولكنّي لم أحصل

على نتيجة أو جواب، ولو بصورة غير مباشرة، كأن يحصل في داخلي نور أو ألتفت إلى شيء أو أحد فأفهم أنّ أعمالي صحيحة فأطمئنّ، أو ليست صحيحة فأتوقّف، ولكنّي لم أقطع الأمل من الإمام فتوسّلت للمرة الثانية والثالثة والعاشرة والعشرين والخمسين والمئة... ولا نتيجة!

فقلت مع نفسي: لعلّ هناك مصلحة في التأخير؛ فلا ينبغي أن أيأس بل اللازم أن أواصل الدعاء والإلحاح في الطلب، وبقيت على ذلك زماناً حتى أصِبت بلَوعة. وفي أحد الأيّام وعندما كنت على عادتي في روضة الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه عند ضريحه المقدّس، خاطبته عاتباً: سيدي لقد طال توسّلي بكم ولم تجيبوني، وأنا لم أطلب منكم المال لأنّي تعلّمت من رواياتكم أنّ من يريد شيئاً فعليه أن يطلبه من مظانّه، وعلى طالب المال أن يتاجر، كما أنّي لم أطلب العلم الظاهري، فإنّي أعرف جوابكم لمسألتي حسب العلم الظاهري، وهو أنّ عليك أن تذهب وتتعلّم حتى تزداد علماً، ولم أطلب منكم شفاء مرض في بدني، لترشدوني إلى طبيب يعالجني أو تمنّوا علي بالشفاء، سوى أنّ لي حاجة لا يستطيع قضاءها إلا أنتم أهل البيت، فلقد أفنيت عمري على أعتابكم أدرس أحاديثكم، واليوم وقد مرّت عليّ ثلاث سنوات أطلب فيها منكم جواباً لسؤالي لأعرف هل أنا مرضيٌّ عندكم؟ ولم أحصل على جواب منكم؟!

تأثّرت كثيراً حتى لقد أصابتني حمّى شديدة وعدت إلى البيت

ولم أستطع تناول العشاء، وكنت ما زلت رغم إحساسي بالعارضة والإعياء، أعيش حالة التضرّع والتوسل إلى الله تعالى وكان دعائي يخرج من القلب وليس من اللسان، حتى غلبني النوم، فرأيت في عالم الرؤيا الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه وقال لي: أطلب حاجتك من ابني المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

فاستيقظت وتذكّرت أنّه كان ينبغي لي من البداية أن أتوجّه بحاجتي إلى الإمام المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف لأنّه إمام عصرنا، فتوجّهت إليه بالزيارة والدعاء، ولم تمرّ عليّ ثلاثة أيّام حتى حضر عندي شخص ظننت بعد ذهابه أنّه إمامي الحجّة عجّل الله تعالى فرجه الشريف، سألني أسئلة فأجبته عليها ـ والقصّة مفصّلة ـ إلى أن التفت إليّ وقال: أنت مرضيّ عندنا.

صحيح أنّ الشيخ كان معذوراً لأنّه لم يكن مقصّراً، ولكن هل يُعطى المعذور ما يُعطى البصير العارف المطيع الممتثل من الدرجات؟

فإذا كان الشيخ طه نجف قد بلغ درجة بحيث تشرّف بلقاء الإمام عجّل الله تعالى فرجه الشريف وسمع منه هذا الكلام، فعلينا أن نراجع أنفسنا مخافة أن نكون مبتلين بخصال نعاب عليها فتحول بيننا وبين درجة القرب من الإمام المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

فربّ خصال معيبة فينا ولا نعلم بها أو نعلم بوجودها ولكنّا لا نعلم أنّها معيبة، نسأل الله تعالى أن يخلّصنا منها، وأن نكون - قبل ذلك - أهلاً لإجابة الدعاء؛ لأن هناك شروطاً كثيرة لابدّ أن تتوفّر في الداعي حتى يكون أهلاً لأن تستجاب دعوته، وقد عدّ السيّد ابن طاووس ستة عشر شرطاً لاستجابة الدعاء؛ فربّ شخص لا توجد مصلحة في إجابة

دعوته، الأمر الذي أفصح عنه الإمام الحجّة عجّل الله تعالى فرجه الشريف فيما ورد عنه في دعاء الافتتاح من قوله: ولعلّ الذي أبطأ عنّي هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور.

لنكسب رضا إمامنا عجّل الله تعالى فرجه الشريف

ويلزم أن نعمل ونسعى لكسب رضا إمامنا المهدي المنتظر عجّل الله تعالى فرجه الشريف وأن نكون من الممتثلين لأوامره في عصر غيبته أيضاً؛ لأنّ أوامره هي أوامر آبائه الطاهرين وأوامر جدّه الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله وأوامر الله تعالى.

صحيح أنّ القيام بالطاعات والانتهاء عن المعاصي والصبر عليها ليس بالأمر السهل دائماً، ولكن من دون ذلك لا يتحقّق رضا الإمام عجّل الله تعالى فرجه الشريف ولا تستجاب الدعوات.

فلابدّ للمؤمن أن يخصّص وقتاً من كلّ يوم للاستغفار ومحاسبة النفس؛ لئلاّ يتعدّى حالة القصور إلى التقصير والعياذ بالله؛ فقد تصدر من الإنسان معصية ولكنّه لا يلتفت إليها وتفوته إمّا لحسن ظنّه بنفسه أو لكثرة مشاغله أو إنسائه الشيطان فهذا ديدن الشيطان، فكيف يقدر الإنسان أن يقاوم إن لم يحاسب نفسه كلّ يوم، كما أوصى بذلك الأئمة الأطهار سلام الله عليهم. فثمّة روايات مستفيضة في هذا الباب، منها ما روي عن الإمام أبي الحسن الماضي سلام الله عليه: «ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كلّ يوم...»[1].

---

(١) الكافي: ٢ / ٤٥٣ باب محاسبة العمل ح ٢.

فلابدّ للمؤمن أن يكون يقظاً حذراً دائماً ويسعى لرفع الحواجز عن حوله، وأن يكون دعاؤه من الأعماق، وليس من الذين «يقرأون القرآن لا يتجاوز تراقيهم»[١] أو الذين يقرأون القرآن والقرآن يلعنهم[٢].

أو من الذين يغمضون أعينهم في كسب المال ولا يعيرون اهتماماً في كيفية كسبه كما كان حال ذلك الذي قال للإمام: «...وأغمضت...»[٣].

فعلينا أن نكون يقظين حذرين ناشدين رضا الإمام الحجّة عجّل الله تعالى فرجه الشريف، وعلينا التأسّي بعلمائنا الأبرار رضوان الله عليهم في هذا المجال.

كان الميرزا حسين الخليلي والسيّد إسماعيل الصدر رحمهما الله من تلاميذ المجدد الشيرازي رضوان الله عليه، وكلاهما بلغا مقام المرجعية الدينية، وكانا أيّام درسهما على السيّد المجدّد زميلين يتباحثان معاً. واتّفق في إحدى الليالي أن بات السيّد الصدر عند الشيخ الخليلي، فأيقظه الشيخ ساعتين قبل الفجر ودعاه للذهاب إلى حرم الإمامين العسكريّين سلام الله عليهما، قال السيّد الصدر: ولكن باب الصحن مسدود في مثل هذا الوقت. فقال الشيخ: لا عليك، سيفتحونها عندما نصل.

---

(١) الكافي: ٦١٤ باب ترتيل القرآن. والترقوتان هما العظمان المكتنفان بالحلقوم.

(٢) روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قال: ربّ تال للقرآن والقرآن يلعنه. مستدرك وسائل الشيعة: ٤ / ٢٤٩ باب ٧ ح ٢.

(٣) عن علي بن أبي حمزة قال كان لي صديق من كتاب بني أمية فقال لي استأذن لي على أبي عبد الله سلام الله عليه فاستأذنت له فلما دخل سلّم وجلس ثمّ قال: جعلت فداك إني كنت في ديوان هؤلاء القوم فأصبت من دنياهم مالاً كثيراً وأغمضت في مطالبه، فقال أبو عبد الله سلام الله عليه: لولا أنّ بني أميّة وجدوا من يكتب لهم ويجبي لهم الفيء ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقّنا، ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وجدوا شيئاً إلا ما وقع في أيديهم... بحار الأنوار: ١٣٨ / ٤٧ باب ٥. مرّ تفصيل القصّة في صفحة ٣٦ .

وبعد أن أدّيا نوافل الليل في الروضة المقدّسة، قال الشيخ: لنذهب إلى السرداب المقدّس لزيارة الإمام الحجّة عجّل الله تعالى فرجه الشريف ثمّ نعود بعد الأذان إلى الروضة المقدّسة لأداء فريضة الصبح.

قال السيّد في جوابه: لكن السرداب مغلق الآن. فأجابه الشيخ: لا بأس نزور الإمام من عند الشباك المطلّ على السرداب، والموجود في صحن الإمام الهادي سلام الله عليه.

وبالفعل ذهبا عند الشبّاك وشرعا بزيارة الإمام المنتظر عجّل الله تعالى فرجه الشريف، وكانت أضوية السرداب مطفأة، ولم تكن المصابيح الكهربائية موجودة في ذلك الزمان، بل كانت المصابيح النفطية أو الشموع.

يقول السيّد الصدر: لقد لاحظت أثناء زيارتي نوراً لا يشبه نور المصابيح متنقّلاً في السرداب؛ ففركت عيني لاحتمال أن يكون قد غشيني نعاس أو خيال وما أشبه، إلاّ أنّي كنت متأكّداً من رؤيتي للنور وهو يتحرّك داخل السرداب، وكان ضوءه أنور من ضوء المصابيح.

يقول السيّد: أخبرت الشيخ بذلك فقال: هذا النور هو الذي أيقظني وهو الذي يأتي بي كلّ ليلة إلى هذا المكان.

الفرق بين العيب والعائبة والنقص

في هذه الفقرات الثلاث نرى أنّ الإمام السجّاد سلام الله عليه يسأل الله تعالى ثلاث حاجات، ولكنّه في سؤاله عن كلّ حاجة يستعمل كلمة غير التي يستعملها في السؤال عن الحاجة الأُخرى، فمع أنّ الإمام يطلب من الله تعالى في هذه الفقرات إصلاح الحال وما تنطوي عليه النفس من نقائص، وتغييرها إلى ما هو أحسن، ولكنّه يعبّر عن النقص الأوّل **بالخصلة المعيبة** ويطلب من الله تعالى إصلاحها، ويعبّر عن النقص الثاني **بالعائبة** التي يؤنّب بسببها ويسأل الله تعالى تحسينها، ويعبّر عن النقص الثالث **بنقصان الأكرومة** ويطلب من الله تعالى إتمامها.

فالخصلة التي تعاب بحاجة إلى إصلاح، والعائبة التي يؤنّب بسببها المرء ويلام تحتاج إلى تحسين، والأكرومة الناقصة تتطلّب إتماماً.

ولا شكّ أنّ الألفاظ التي استعملها الإمام تنطوي على بلاغة عالية وعلى عالم من المعاني والمفاهيم.

يمكن تقريب المطلب عبر أمثلة:

- شخص سيّئ الخلق، كالعبوس المتجهّم.
- شخص حسن الخلق ولكنّه خارج عن حدّ الاعتدال، ككثير

المزاح والهزل.

• شخص حسن الخلق مع بعض الناس دون بعض.

فهذه ثلاث حالات.

أمّا الشخص الأوّل (سيّئ الخلق) فهو بحاجة إلى إصلاح؛ لأنّ سوء الخلق فساد، والفساد يتطلّب إصلاحاً.

وأمّا الشخص الثاني (المبتلى بالإفراط رغم وجود الفضيلة عنده) فهو بحاجة إلى تحسين وضعه وحاله، لأنّ الإفراط عيب[١] وليس فساداً لكي يُقلع بالمرّة؛ بل عنده فضيلة ولكن علق بها بعض الشوائب؛ فلابدّ من تحسينها وتشذيبها فقط.

وأمّا الشخص الثالث (الحسن الخلق مع بعض دون بعض، أو الذي يمارس الفضيلة أحياناً دون أُخرى)، فهو ينطوي على أكرومة ولكنّها ناقصة؛ فيقتضي إتمامها. ومثالها: الشخص يكون حسن الخلق في المجتمع ولكنّه ليس كذلك مع أهله، أو العكس، فمثل هذا الإنسان ليس سيّئ الخلق مطلقاً ليكون محتاجاً إلى الإصلاح، ولا حسن الخلق مع إفراط ليحتاجَ إلى تحسين، ولكنّه لا يتوفّر على بعض الفضائل وإن كان يتوفّر على بعض آخر، أو يتوفّر عليها ولكن ليس دائماً، أو مع بعض الناس دون بعض، فهو لذلك بحاجة إلى إتمام ما ينقصه.

---

(١) يقول علماء الأخلاق: إنّ كلّ فضيلة هي وسط بين رذيلتين هما الإفراط والتفريط. فالكرم وسط بين البخل والإسراف، والشجاعة وسط بين الجبن والتهوّر، وهكذا. وكلّ شيء جاوز حدّه انقلب إلى ضدّه. ومثال ذلك وضع الملح في الطعام فإنّ زيادة الكمية نقصٌ كما نقصانها. فالفضائل مطلوبة، ولكن ضمن حدودها، فإن تجاوزتها انقلبت إلى أضدادها.

وهكذا يتّضح أنّه كما ينبغي التدبّر في آيات القرآن الكريم، بل قد يجب من باب مقدّمة الوجود - حسب الاصطلاح الأصولي - فكذلك ينبغي وقد يجب التدبّر في أدعية المعصومين عليهم السلام ومواعظهم وأحاديثهم وآثارهم؛ فإنّ التدبّر فيها يكشف عن دقائق ونفائس في طيّ كلماتهم تنير حياتنا.

خذ مثلاً كلمة (عائبة) وهي مؤنّث (عائب) والشيء العائب يحتاج إلى تحسين وترميم؛ كالسفينة إذا خرقت وأصبحت معيبة فإن لم ترمّم نفذ إليها الماء تدريجياً وآل أمرها إلى الغرق، كما نقرأ ذلك في قصّة موسى والخضر عليهما السلام في قوله تعالى حكاية عنهما:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾[1].

وهكذا الحال مع النفس الإنسانية إذا كان فيها عيب وخلل يلام عليه الإنسان، فلابدّ من ترميمها وإزالة ذلك الخلل والعيب؛ ولذلك يقول الإمام سلام الله عليه: «ولا عائبة أؤنّب بها إلاّ حسّنتها».

وإذا كان الأئمّة المعصومون سلام الله عليهم وهم في أعظم مقام يمكن أن يبلغه مخلوق، يطلبون من الله دائماً أن يعينهم على التكامل، فما أحوجنا لأن نتوسّل بالله تعالى في الإطار نفسه، فإنّ الإنسان كلّه نقص وافتقار لله تعالى، ومن ثمّ فهو مدين لله تعالى ويجب عليه أن يتوجّه إليه بالشكر على كلّ النعم سواء في الأمور المادّية أو المعنوية. حتّى نعمة الشكر على ما أنعم عليه، فإنّها تستوجب شكراً، ولذلك لا يتوقّف شكر الإنسان

(١) الكهف: ٧٩.

لله تعالى عند حدّ.

لقد أنعم الله تعالى على الإنسان بالنعم المادّية لكي يستطيع أن يزكّي نفسه، ومنحه القوى لكي يكتسب المعالي والفضائل.

الورع وترويض النفس

يظهر من الروايات أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يستقبل شهر رمضان كلّ عام بخطبة، ولعلّ أشهر تلك الخطب فيه وأجمعها هي تلك التي يتوجّه الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه في آخرها بالسؤال منه صلى الله عليه وآله قائلاً: **ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟**[1]

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد ذكر أُموراً عديدة في خطبته الشريفة ممّا ينبغي للصائم عملها في شهر رمضان، وحثّ المؤمنين عليها، ولكنّه لم يأت على ذكر أيّ واحدة منها في جوابه للإمام، بل أجابه صلى الله عليه وآله قائلاً: **«الورع عن محارم الله»**[2].

ولكن هل يحصل الورع عند الإنسان بمجرّد أن يرغب به؟

بالطبع لا، لأنّ هناك موانع كثيرة تقف في طريقه، كالشيطان والشهوات والنفس الأمّارة بالسوء، إذاً لابدّ من ترويض النفس وتمرينها

---

(١) وهو أنّه سؤال العارف الذي يعرف الشيء ولكنّه يسأل ليفهمه الناس.

ويلاحظ أنّ الإمام لم يقل: «ما أفضل هذه الأعمال؟» بل قال: «ما أفضل الأعمال»؟ أي أعمّ ممّا ذكره النبي صلى الله عليه وآله في الخطبة، فإنّ الجمع المحلّى بـ«أل» ظاهر في العموم.

(٢) راجع الأمالي للصدوق: ١٥٣ ح ٤ المجلس العشرون (تمام الخطبة).

للتغلّب على كلّ الصعوبات والموانع التي تصادفه في كلّ مجالات الحياة لعدم صمود استعدادات الإنسان من دون ممارسة وتمرين.

صفة المتّقين

لقد وصف الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه المتّقين بقوله: «**فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون**»[1]. فرغم أنّهم لم يشاهدوا الجنّة أو النار بأعينهم الباصرة ولكنّهم ممتلئون يقيناً بوجودهما، فترى أحدهم يحلم ويصفح عمّن سبّه أو ظلمه لأنّه يعلم أنّه سينال بذلك درجة في الجنّة، فهو سعيد منعّم حتّى في هذه الحالة، لأنّه كمن يرى الجنّة ودرجة المحسنين فيها بعين البصيرة وإن لم يرها بالعين الباصرة.

إنّ الورع هو الذي يبلغ بالإنسان إلى هذا المقام، ولكن هل يتحقّق هذا دون سعي وعمل؟ إنّ القرآن الكريم صريح في قوله تعالى: ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى**﴾[2]. إنّ الله تعالى هو الذي يفيض على الإنسان وهو الذي يعطيه ولكن ذلك لا يتمّ إلاّ مع السعي والتمرين من قِبل الإنسان نفسه فضلاً عن الدعاء.

لو أنّ شخصاً تثق به أخبرك أنّه مستعدّ لتعويضك عن كلّ ما ستنفقه من أموالك في مجال الخير بل يزيدك عليه شيئاً، فهل تتأخّر عن الإنفاق أم ستبسط يدك؟ لا شكّ أنّك لا تتأخّر عن الإنفاق لأنّك تعلم أنّ هناك

---

(١) نهج البلاغة: ٢٠٣ رقم ١٩٣.

(٢) النجم: ٣٩.

من وعدك أنّه سيعوّضك عن كلّ ما ستخسره من أموال، وما ذلك إلاّ لأنّك تشاهد الشخص الذي تثق به عياناً، وترى أمواله وإمكاناته وتحسّ بعلاقتك المباشرة معه. فهكذا يكون المتّقون في تعاملهم مع الله تعالى؛ لذلك ترى الإنسان المتّقي لا يقول لماذا عمل معي فلان كذا مع أنّي خدَمته، بل لا يفكّر في ذلك، لأنّه يؤمن بقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ﴾[1] بل تراه يتّهم نفسه دائماً، فقد روي عن أمير المؤمنين سلام الله عليه قوله: «**المؤمنون لأنفسهم متّهمون**»[2] أي أنّ المؤمن يتّهم نفسه ويراها مقصّرة دائماً، وما دام الأمر كذلك تراه لا يتألّم ولا يقلق لمجرد أنّ شخصاً ما لم يردّ عليه إحسانه، وأمّا حاله مع سخط الله تعالى فتراه يحتاط حتّى في قول كلمة واحدة ويحذر من أن تصبح له عاملاً إلى مؤاخذة الله عزّوجلّ.

نقل لي سجين سابق: أنّه كان جالساً مع زملائه في السجن لتناول وجبة إفطار الصباح، إذ نودي باسم أحدهم للذهاب إلى المحكمة، وصادف أثناء النداء باسمه أنّه كان يحمل كوب الشاي بيده، فبدأت يده ترتعش خوفاً حتّى فرغ كلّ ما في الكوب من الشاي، ثمّ سقط الكوب من يده إلى الأرض! كلّ ذلك لخوفه من المثول أمام محكمة المخلوق، بعد يقينه بوقوعها.

وهكذا ينبغي أن يكون حال المتّقين في استقرار يقينهم بمحكمة الخالق، فما أعظمها وأعظم أهوالها.

---

(١) الإسراء: ٧.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٦٦ الفصل الأوّل مما أوّله الألف واللام.

من يرى الجنّة لا يبالي بالصعاب

نقل أحدُ مراجع التقليد من أرحامنا أنّه أيّام دراسته وقبل أن يتصدّى للمرجعية، عن أحوال السيّد أبي الحسن الإصفهاني أيّام مرجعيته، قال: كنت قد كتبت استفتاءً للسيّد أبي الحسن ولم أشأ أن أُزاحمه لأخذ الجواب منه في الأوقات التي يكون فيها مشغولاً إمّا بالتدريس أو اللقاءات العامّة والخاصّة. فقرّرت أن أذهب إليه قبيل صلاة الفجر؛ لعلمي أنّه يكون مستيقظاً في ذلك الوقت؛ لأنّه كان يصلّي صلاة الصبح جماعة في روضة أمير المؤمنين سلام الله عليه، فذهبت قبل أذان الفجر بزهاء ساعة إلى بيته فرأيت المصباح مضاءً فطرقت الباب، وعندما خرج الخادم سألته فيما إذا كان السيّد مستيقظاً؟ فردّ بالإيجاب، فطلبت منه أن يخبر السيّد أنّ فلاناً عند الباب. فمكثت هنيهة حتى عاد الخادم واصطحبني إلى داخل الدار، فرأيت السيّد والرسائل متناثرة بين يديه يجيب عليها، ففي بعضها استفتاءات، وفي بعضها الآخر حاجات يطلب أصحابها قضاءها.

فقلت للسيّد: أرسلت لكم منذ أيّام رسالة أستفتيكم فيها عن جملة مسائل كذا وكذا.

فقلّب السيّد الرسائل حتّى استخرج رسالتي ثمّ قال لي: عندما عدت إلى البيت كان بعض الأشخاص - كالعادة - ينتظرونني لقضاء بعض الحوائج أو للإجابة على أسئلتهم، وبعد أن خرجوا رأيت أن أنتهي من الإجابة على هذه الرسائل قبل تناول العشاء، فبقي الطعام على الموقد الذي تراه أمامك على نار هادئة والرسائل لم أستوفِ تمامها بعد ـ والوقت قريب من الفجر ـ ومنها رسالتك هذه. ثمّ تناول رسالتي فأجاب

عليها.

فلا شكّ أنّ السيّد أبا الحسن الإصفهاني لم يكن آنذاك شابّاً بل كان شيخاً قد ضعفت قواه، وكان هذا الجهد المتواصل والبقاء دون عشاء حتّى الفجر لا يخلو من أثر سلبيّ على صحّته، ولكن عندما يكون الإنسان كمن قد رأى الجنّة فهو فيها منعّم، تكون روحه كبيرة تقوى على تحمّل الصعاب، وهكذا عندما يكون الإنسان كمن قد رأى النار فهو فيها معذّب، تراه يحتاط في أُموره كثيراً؛ حذراً من الوقوع في ما من شأنه أن يسخط الله تعالى.

لننتهز الفرص من أجل بناء أنفسنا

لينتهز كلّ منّا جميع الفرص - لا سيّما أيّام شهر رمضان - من أجل بناء نفسه، فإنّه لا حدّ لبناء النفس، ولا يتصوّر أحد أنّه سيصل الحدّ الذي يتوقّف عنده جهاد النفس وبناؤها، ولقد ذكرنا في بداية البحث أنّ الإمام السجّاد سلام الله عليه يطلب في هذه الفقرة من الله تعالى ثلاث خصال في سبيل بناء النفس وتكاملها؛ فإنّه لا حدّ للتكامل والرقيّ أبداً حتّى عند المعصوم، مع أنّ العصمة هي أعلى درجات الرقي بالنسبة لسائر الناس - ولن يبلغوها لأنّها خاصّة بأُولئك الذين اصطفاهم الله لبلوغ هذا المقام - ولكن هذا لا يعني التوقّف عن بناء النفس وتكميلها، فما أحرى بالإنسان أن يسعى لبلوغ منزلة «**فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون**».

بالسعي والتمرين يمكن أن يصل الإنسان إلى مرتبة **فهم والجنّة كمن قد رآها**، لأنّ هذا الأمر لا يتحقّق دفعة واحدة بل يتطلّب الممارسة

والمواظبة من أجل الصعود درجة درجة؛ فإنّ الله تعالى جعل عالم الدنيا عالم الأسباب، فلا يمكن أن ينام الشخص ليلاً ثمّ يستيقظ صباحاً وقد تحوّل تحوّلاً كاملاً دفعة واحدة من الصفر حتّى بلوغ تلك المرتبة.

قد تحصل عند الإنسان حالة من التغيّر بسبب حالات خاصّة أو ظرف طارئ أو نتيجة التحرّز والاحتياط أو التأثّر بموعظة سمعها من خطيب أو وصايا قرأها لأهل البيت سلام الله عليهم، وربما اجتمعت عوامل عدّة في خلق هذا التغيير عند الإنسان، فيشعر أنّ قلبه قد تنوّر بعض الشيء، فينعكس هذا على سلوكه ومشاعره نحو الأفضل، ولكن هذه الحالة قد لا تستمرّ معه أبداً، وسرعان ما تبدأ بالذوبان كقطعة الثلج التي تذوب تدريجياً، وإذا به بعد أسبوع مثلاً يعود إلى سابق وضعه وحاله، وما ذلك إلاّ لفقدانه المموّن الذي يمدّه بالرصيد الذي يستمدّ منه الفيض بإستمرار، أمّا إذا لم يفقده فإنّه سيبقى على تلك الحالة بل يزداد تصلّباً وتماسكاً فيها - كقطعة الثلج التي تحفظ في المجمّدة - وشهر رمضان خير مموّن للإنسان في هذا المجال، فلنستثمر أيّامه ولياليه وساعاته ومناسباته وأدعيته العظيمة. فلنقرأ في كلّ ليلة مثلاً مقاطع من دعاء أبي حمزة الثمالي بتأمّل وتدبّر، متمعّنين عند كلّ مفردة أو جملة أو فقرة منه؛ لأنّ قراءة الدعاء والمواظبة عليها تخلق هي الأُخرى ارتكازاً وحالة في النفس تساهم مع التأمّل والتدبّر في بعض فقراته في البلوغ بالداعي نحو مرحلة (فهم والجنّة كمن قد رآها)، وتعين العبد على أداء أفضل الأعمال في هذا الشهر وهو (الورع عن محارم الله).

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد نبّه المسلمين في خطبته التي استقبل فيها شهر رمضان المبارك على استثمار هذا الشهر استثماراً حقيقياً، ومن

جملة ما قاله صلى الله عليه وآله: **أيّها الناس إنّ أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكّوها باستغفاركم**[1]. وهذا معناه أنّ كلّ عمل نقوم به مهما كان صغيراً فإنّه يرهن أنفسنا. فالنظرة، والكلمة، وكلّ عمل يصدر عنّا يجعلنا رهائن، ولا نستطيع أن نفكّ أنفسنا منها إلاّ بالاستغفار.

ولا يشترط أن تكون الأعمال التي نقترفها كبيرة لكي نصبح رهائن لها، بل كلّ عمل كفيل بأن يرهن صاحبه مهما كان صغيراً؛ قال تعالى: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾**[2]. فمن القطرات يتكوّن ماء المطر ومن القطرات يتكوّن السيل العرم الذي يقلع الأشجار ويجرف البيوت.

إنّ الإنسان مسؤول عن كلّ صغيرة وكبيرة، كما ورد في الحديث الشريف: «**ألا وإنّ الله عزّ وجلّ سائلكم عن أعمالكم، حتى مسّ أحدكم ثوب أخيه بإصبعيه**»[3] فلعلك تضع إصبعك على الثوب تريد معرفة نوعه أو لغاية أُخرى، ولا يكون صديقك راضياً بذلك، فإنّك إن فعلت ذلك ستسأل عنه يوم القيامة.

وفي الحديث أيضاً: «**لا يحلّ مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفسه**»[4]. يقول العلماء: إنّ النكرة في سياق النفي تفيد العموم، وبما أن جملة «مال امرئ مسلم» نكرة، وعبارة «لا يحلّ» نفيٌ، إذاً تكون جملة «لا يحلّ مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفسه» مفيدة للعموم، ويندرج تحتها

---

(١) الأمالي للصدوق: ١٥٣ ح ٤ المجلس العشرون.

(٢) الزلزلة: ٧ – ٨.

(٣) راجع ثواب الأعمال: ٢٨٠ – ٢٩٥ (ضمن خطبة طويلة).

(٤) فقه القرآن: ٢ / ٣٣ باب المكاسب المباحة.

أيضاً المورد المذكور في الحديث المتقدّم (حتى مسّ أحدكم ثوب أخيه) وإن كان في مستواه الأدنى وليس الأعلى، كالسرقة والعياذ بالله.

أي أنّ الإنسان سيسأل يوم القيامة حتّى عن النفخة ينفخها، كما لو نفخ في وجه إنسان يتأذّى من ذلك فإنّه سيعاقب عليه، وعكسه لو نفخ في نار قدر إطعام المشاركين في عزاء الإمام الحسين سلام الله عليه مساهمة منه في تعظيم شعائر الله تعالى فإنّه سيثاب على ذلك.

وهكذا تجد الإنسان الورع يحتاط في كلّ أعماله؛ لأنّه هو والجنّة كمن قد رآها فهو فيها منعّم، وهو والنار كمن قد رآها فهو فيها معذّب.

الورع واجب في كلّ حال

ثمّ إنّ الورع واجب دائماً وليس في شهر رمضان فقط، وهو واجب على كلّ مكلّف.

أمّا كيف صار الورع واجباً فجوابه: لمّا كان ترك المحرّمات واجباً مطلقاً، وكان الورع - وهو تحصيل ملكة ترك المحرّمات - مقدّمة وجودية له، والمقدّمة الوجودية للواجب المطلق واجبة (من باب إذا وجب شيء وجبت مقدّمته)، إذاً يكون الورع واجباً على المكلّف.

وهذا من قبيل ما ورد في عبارات الفقهاء: «يجب على كلّ مكلّف أن يكون في عباداته ومعاملاته مجتهداً أو مقلّداً أو محتاطاً»، فإنّه أيضاً وجوب نشأ من نفس الطريق وهو كونه مقدّمة وجودية للواجب المطلق.

ثمّ إنّ الورع لا يأتي من فراغ وهكذا اعتباطاً، كما تقدّم، ولا يكفي الدعاء أيضاً في حصوله بل لابدّ من أن يسعى الإنسان لتحصيله عبر الممارسة والمواظبة والاستفادة من المناسبات التي وفّرها الله تعالى

للإنسان المؤمن كمناسبة شهر رمضان المبارك مثلاً، فلنحاول أن نختار في كلّ يوم من هذا الشهر الفضيل ـ وهكذا في سائر شهور السنة ـ إحدى الإرشادات الدينية، ونعزم ونصمّم على تطبيقها، فإنّ الأمر بحاجة إلى عزيمة، وكما ورد عن الإمام الرضا سلام الله عليه: «**فإنّما هي عزمة**»[1] والتاء في قوله «عزمة» للمبالغة وليست للتأنيث.

وروي عن الإمام أبي الحسن الماضي عليه السلام أنّه قال: «**ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كلّ يوم**»[2].

وعبارة (كلّ يوم) غير مختصّة بشهر رمضان كما هو واضح، ولكن لنفعل ذلك في شهر رمضان على الأقلّ أو لنبدأ منه.

ولقد روي في هذا المجال أيضاً عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، ووبّخوها قبل أن توبّخوا**»[3].

حذار ألاّ ننتصح بما ننصح

ولنحذر نحن - أهل العلم خاصّة - أن نكون يوم القيامة مصداقاً لما ورد في الحديث الشريف: «**أعظم الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثمّ خالفه إلى غيره**»[4].

ولو لم ترد هذه الرواية أمكننا إدراك ذلك الأمر بالتأمّل، كما يفترض

---

(١) بحار الأنوار: ٦٨ / ٢٥٩، باب٧٣ رقم ٣.

(٢) الكافي: ٢/ ٤٥٣ ح٢ باب محاسبة النفس.

(٣) الفضائل لابن شاذان: ١٥٤ ـ ضمن حديث طويل ـ.

(٤) مستدرك الوسائل: ١ / ١٢٥ ح ١٠.

بنا الاهتداء والاقتداء بأقوال وأفعال الأئمّة سلام الله عليهم الذين يعلّموننا ما هو الخطأ وما هو الصواب، ويمكننا القول إنّ هذا ممّا يمكن استفادته حتّى من عموم رواياتهم الأُخر.

حقّاً ما أعظم حسرة الإنسان وهو يرى نفسه متردّياً خاسراً؛ لعدم استرشاده بالنصح الذي قدّمه لغيره، في حين يرى أنّ من نصحه قد أخذ بنصحه ونجا وفاز يوم القيامة.

إنّ الطريق إلى «فهُم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون» طويل جدّاً، لكن هذا لا يعفينا من المسؤولية أبداً، بل علينا أن نسير فيه دوماً، ولقد وعد الله تعالى عباده الساعين والمتوكّلين عليه بالتوفيق، وهو تعالى صادق الوعد، فلنترفّع عن صغائر الأُمور ونضاعف من اهتمامنا بأُمور الآخرة عسى الله تعالى أن يأخذ بأيدينا ببركة أهل البيت سلام الله عليهم ويجعلنا من المستفيدين من شهر رمضان المبارك لكي نرى أنفسنا بعد انصرامه وقد تغيّرنا نحو الأفضل، وازددنا ورعاً وتقوى واقتراباً من حال الذين هم والجنّة كمن قد رآها...

اللّهُمَّ صَلِّ عَلى محمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَبْدِلْني مِنْ بِغْضَةِ أَهْلِ الشَّنَئانِ المحَبَّةَ، وَمِنْ حَسَدِ أَهْلِ البَغْيِ المَوَدَّةَ ، وَمِنْ ظِنَّةِ أَهْلِ الصَّلاحِ الثِّقَةَ، وَمِنْ عَداوَةِ الأَدْنَيْنِ الوِلايَةَ، وَمِنْ عُقُوقِ ذَوِي الأَرْحَامِ المَبَرَّةَ، وَمِنْ خِذْلانِ الأَقْرَبِينَ النُّصْرَةَ، وَمِنْ حُبِّ المُدارِينَ تَصْحِيحَ المِقَةِ، وَمِنْ رَدِّ المُلابِسِينَ كَرَمَ العِشْرَةِ، وَمِنْ مَرارَةِ خَوْفِ الظّالِمِينَ حَلاوَةَ الأَمَنَةِ.

- ☑ إبدال الشنآن والبغي إلى المحبّة والمودّة
- ☑ إبدال الظنّة والعداوة إلى الثقة والولاية
- ☑ إبدال العقوق والخذلان وتطوير المداراة
- ☑ طلب فنّ المعاشرة، والأمن من الظالمين



إبدال الشنآن والبغي إلى المحبّة والمودّة

هذه فقرة أُخرى من دعاء مكارم الأخلاق يفتتحها الإمام السجّاد سلام الله عليه بالصلاة على النبي وآله الأطهار سلام الله عليهم، ثمّ يطلب من الله تعالى تسعة مطالب في تسع جمل نتناول في هذا الفصل المطلبين الأوّلين منها، حيث يقول الإمام: «وأبدلني من بغضة أهل الشنآن المحبّة ومن حسد أهل البغي المودّة».

ما المقصود بالشنآن، ومن هم أهل الشنآن؟

البغض والعداوة وسوء الخُلُق أمور مذمومة، ولكلّ منها معنى، فقد يكون الشخص مبغضاً ولكنّه ليس معادياً، وقد يجمع الخصلتين ولكن من دون سوء خُلُق، وقد يجمع سوء الخُلُق إلى البغض والعداوة، ولذا فُسّر الشنآن لغةً بالبغض والعداوة مع سوء الخُلُق؛ كما فسّروا قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[1].

وقد يكون الإنسان نفسه محفّزاً لمن يشنأه نتيجة أعماله السيئة،

---

(١) الكوثر: ٣.

فيكون من مصاديق قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾[1]، وقد يبتلى الشخص بأهل الشنآن من غير أن يكون جالباً لهم بسوء خلق وغير ذلك، ومثاله: لو رُزق بجمال أو حسن خُلُق أو ذهن وقّاد أو نعم أُخرى، فيشنأه أهل الشنآن لذلك.

عندما نتأمّل في دعاء الإمام السجّاد سلام الله عليه نجد أنّه عدل عن استعمال كلمة الشانئ أو الشانئين إلى «أهل الشنآن»، ولابدّ أن نتدبّر قليلاً لمعرفة السبب. فتارة يكون الشنآن عفوياً، وتارة يكون بمنزلة الحرفة عند بعض الناس، كما أنّ للعلم والتجارة وغيرهما أهلاً بحيث يصدق عليهم أنّهم علماء أو تجّار، ولا يصدق على من تعلّم مسألة أو بعض المسائل الشرعية أنّه من أهل العلم، أو من ربح في صفقة واحدة أو صفقتين اتّفاقاً، أنّه من أهل التجارة؛ إذ لا يقال للشخص أنّه من أهل العلم مثلاً ما لم يكن جنّد نفسه للدراسة حتّى عدّت كالحرفة له.

لذلك يطلب الإمام سلام الله عليه من الله تعالى أن يبدله المحبّة ليس فقط من بغضة أيٍّ كان ولا أيّ شانئ، بل يطلب من الله تعالى أن يبدله من بغضة أهل الشنآن الذين طبيعتهم وشغلهم وديدنهم الشنآن.

كيف نتعامل مع أهل الشنآن؟

ماذا بوسعكم أن تفعلوا للتخلّص من أُناس هذه شيمتهم؟ إلاّ أن يتوجّه الإنسان إلى الله تعالى بالدعاء ويقول له كما علّمنا الإمام السجّاد سلام الله عليه: «**اللهمّ وأبدلني من بغضة أهل الشنآن المحبّة**».

---

(١) النساء: ٧٩.

يُنقل أنّ شخصاً مرض وأوشك على الموت فقال لابنه: اذهب وادعُ لي فلاناً وفلاناً - وسمّى له بعض الأشخاص - وعندما حضروه التفت إليهم وهو مسجّىً على فراش الموت قائلاً: إنّ لكم جميعاً عليّ حقوقاً وأرجو أن تحلّلوني منها، فإنّي قد أُفارقكم الساعة.

تعجّب القوم وسألوه مستغربين: لا نعرف لنا عليك حقوقاً، فهلاّ عرّفتنا بها.

قال: دعوكم من هذا وتفضّلوا عليّ بالعفو لأنّي أُوشك على الموت.

ولكنّهم أصرّوا على معرفة حقوقهم. ولمّا رأى إصرارهم التفت إلى الأوّل وقال: أتذكر حينما احترق بستانك واتّهمتَ فلاناً من الناس وحكم عليه القاضي، أنا الذي حرقتها وليس ذلك المسكين.

وزاد فضول الشخص لمعرفة تفاصيل القضية، فالتمسه أن لا يبخل بسردها عليه. فقال له: لقد دار نقاش محتدم في أحد الأيّام بينك وبين زيد، فهدّدك بحرق نخيلك، وكنتُ أسمع كلامكما فجئت في منتصف الليل وقمت أنا بإحراقها، وحيث إنّ زيداً كان قد هدّدك أُلبست في حقّه التهمة وأُودع السجن.

ثمّ التفت إلى الثاني وقال له: إنّ المشكلة التي نزلت بك في يوم كذا أنا افتعلتها. وهكذا أخذ يعدّد لهم مكايده واحدة بعد الأُخرى.

إنّ الدعاء والتوجّه إلى الله تعالى هو الكفيل بأن يخلّص الإنسان من شرور أشخاص كهذا، لأنّ كثيراً من الناس لا يدرون من الذي يتربّص بهم ليوقعهم في حفر المشاكل والمصائب.

هذا في حين إنّ دعاءً صغيراً - قد لا يستغرق دقائق - يتوجّه به الإنسان إلى الله تعالى كفيل بأن ينجيه من الوقوع في مشاكل قد تدوم

عقوداً ولا يعرف كيف الخلاص منها. وفي يوم القيامة يدرك الإنسان أنّه لو كان قد دعا ربّه بذلك الدعاء لما ابتلي هذه المدّة الطويلة، ولكن ماذا يجدي وقد ذهبت السنوات من عمره سدىً، ولات حين مندم.

دعم الدعاء بالعمل

الدعاء والعمل يكمل أحدهما الآخر ولا ينفع أحدهما من دون الثاني إلاّ إذا كان الإنسان عاجزاً إلاّ عن الدعاء؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ﴾[2].

وفي هذا المجال ـ إبدال بغضة أهل الشنآن بالمحبّة ـ كما في غيره من المجالات ، ينبغي للإنسان بمقدار علمه أن يسعى إلى جانب الدعاء، لكي يبدل أهل الشنآن إلى محبّين؛ كما في قوله تعالى: ﴿اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[3].

ففي هذه الآية الكريمة نكتة لطيفة يمكن استفادتها من كلمة «ادفع»؛ لأنّ الدفع في اللغة كالوقاية من المرض،كما أنّ الرفع كالعلاج منه. فمثلاً إذا دخل لصّ داراً فإنّه عند محاولة إخراجه يكون هذا سعياً لرفع السرقة، وأمّا إذا اُقفلت الأبواب بوجه اللصّ قبل دخوله الدار فهذا يعني دفع السرقة قبل وقوعها والحؤول دون دخول اللصّ إلى الدار.

---

(١) النجم: ٣٩.

(٢) الفرقان: ٧٧ .

(٣) فصّلت: ٣٤ .

وفي المقام يرشدنا الله تعالى إلى دفع السيّئة (أي الحيلولة دون وقوعها) بالتي هي أحسن منها كفعل الخير والصلة وما أشبه.

أمّا النتيجة من الدفع بالتي هي أحسن، فقد أشارت إليها الآية نفسها في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، أي أنّه سيحبّك بقلبه ويدرأ عنك بجوارحه وطاقاته.

ولا يخفى أنّ الإحسان إلى المسيئين يحتاج إلى عزيمة قوية؛ ولذلك عبّرت الآية نفسها عن هذه الخصلة بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1].

وبقدر ما يكون الصبر على الإساءة تكون النتيجة مُرضية، وإنّ هذا التوفيق الإلهي وإن كان يحتاج إلى حظّ عظيم إلاّ أنّ مفتاحه بيد الإنسان نفسه.

الاقتداء بعلمائنا الأعلام

في تاريخ علمائنا الأبرار ـ فضلاً عن سيرة أهل البيت سلام الله عليهم ـ الكثير من القصص التي يمكن للإنسان أن يستضيء بها.

لقد ذُكر في أحوال الخواجه نصير الدين الطوسي رحمه الله (صاحب كتاب تجريد الاعتقاد) أنّ شخصاً كتب له رسالة وجّه له فيها سبّاً لاذعاً، كما تجاوز عليه بقوله (ياكذا)، فأجابه الشيخ وكان عالماً ووزيراً مقتدراً: وأمّا قولك أنّني كذا فهذا غير صحيح لأنّ الكذا يمشي على أربع وأنا أمشي على اثنين، والكذا فصله «نابح» وأنا فصلي «ناطق»!

---

(١) فصلت: ٣٥ .

لنراجع أنفسنا ونرى هل نستطيع أن نكون هكذا في الخُلُق الرفيع الذي تحلّى به هذا الشيخ العالم الذي لم يكن عاجزاً - لا من حيث قوّة القلم والبيان ولا من حيث السلطة - أن يقابله بأشدّ من قوله؟ ولكنّه تلميذ مدرسة أهل البيت الذي تعلّم منهم الصبر والأخلاق الرفيعة.

كما نقل لي أحد الأشخاص - وكان هو الواسطة بين السيّد أبي الحسن الإصفهاني قدّس سرّه وشخص آخر لا أعرفه كان يكيل السباب والشتائم للسيّد، أي كان شانئاً له - قال:

في أحد الأيّام قلت للسيّد أبي الحسن الإصفهاني - وكان قد بلغه أمر الرجل - : ماذا نصنع معه؟ قال: أنت صديقه، فلا بأس أن تغتنم إحدى المناسبات لنذهب معاً إلى زيارته.

فقلت له: سيّدنا أتزوره؟

قال: نعم.

فسررت كثيراً لذلك لأنّي كنت أُحبّ أن تحلّ المشكلة، لأنّ ذلك الشخص كان صديقاً لي وكان شخصية اجتماعية أيضاً، فكنت أستاء كثيراً من تصرّفاته تلك، خصوصاً وأنّ السيّد كان مرجعي في التقليد، فضلاً عن العلاقة به.

وامتثالاً لطلب السيّد في زيارته كنت كلّما ذكرت اسم السيّد عنده لأُقنعه بزيارته له، كان يردّ ولا يدع مجالاً لذلك الحديث، حتّى مرض في أحد الأيّام، فأخبرت السيّد الإصفهاني بالأمر، وقلت له: إنّها فرصة مناسبة. وجئت للرجل وقلت له: أنت مريض والناس يعودونك، فربما يعودك السيّد أبو الحسن الإصفهاني.

فإذا به يلتفت إليّ قائلاً: بعد أن بلغه منّي ما بلغ، لا أظنّه يفعل!

قلت: أنت تعرف السيّد فهو يزور الجميع، ويعود المرضى.

ثمّ التفتُّ إليه أخرى وقلت: هب أنّ السيّد جاء لعيادتك، ماذا أنت صانع؟

قال: أستقبله بما يكره، ولا أقوم له!!

قلت له: افرض أنّه ليس من وصايا الإسلام الأكيدة احترام المؤمن، ولنفرض أنّك لا تلتفت إلى أنّه عالم دين، ومن سلالة البيت النبوي الطاهر، ولكن هل يسوغ لك أن تخدش حرمة شخص جاء لزيارتك وحلّ ضيفاً عليك، وأنت رجل عربيّ؟!

فتأمّل هنيهة، ثمّ قال: إذاً لا أُكلّمه، ولا أقوم احتراماً له!

فذهبت إلى السيّد وأخبرته بالأمر، وجئنا سويّة لعيادة الرجل، وحينما دخلنا تظاهر أنّه لا يستطيع القيام من شدّة المرض، مع أنّه كان يستطيع! وأخذ يتثاقل في جواب السيّد ولا يجيب إلا بقدر الضرورة، ولكن السيّد ظلّ يلاطفه ويسأل أحواله وهو يجيب بكلّ برودة.

واستمرّ السيّد يلاطفه بأخلاقه الحسنة حتى انجلت الغبرة عن صدره، بحيث عندما همّ السيّد بالمغادرة قام الرجل لمشايعته إلى الباب!

وسألته بعد ذلك: كيف وجدتَ السيّد؟ قال: بعد إمام الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف لا شخص أفضل منه على الإطلاق!

وهكذا صار هذا الشخص وليّاً حميماً للسيّد بعد أن كان عدوّاً لدوداً؛ لأنّ السيّد قدّس سرّه عمل بقول الله تعالى: ﴿ اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

أهل البغي وكيفية التعامل معهم

يقول الإمام سلام الله عليه بعد ذلك: «ومن حسد أهل البغي المودّة».

البغي أصله من الحسد، ثمّ سمّي الظلم بغياً؛ لأنّ الحاسد يظلم المحسود، والحسد منشأه القلب، ولكن لا يحاسب عليه الإنسان إلا إذا انعكس أثره على الجوارح؛ ولذلك ورد في حديث الرفع المروي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «رُفع عن أمّتي تسع ... والحسد والطيرة و... ما لم ينطق بشفة ولا لسان»[1].

وأمّا قوله سلام الله عليه: «أهل البغي» فيعني من ديدنهم البغي، كما تقدّم في قوله عن أهل الشنآن.

وأمّا المودّة فهي المحبّة الظاهرة؛ فقد يحبّ الإنسان شخصاً ولكنّه لا يظهر هذا الحبّ فهذا لا يسمّى مودّة، أمّا إذا كان يحبّه ومع ذلك يظهر ذلك الحبّ فهذه هي المودّة.

وفي هذا الدعاء يطلب الإمام من الله تعالى أن يخلّصه ليس من حسد الباغي العادي فقط بل من حسد أهل البغي أي من بنى أمره على البغي، ويبدل حسده ليس إلى محبّة فقط بل إلى مودّة أيضاً وهي الحبّ مع إظهاره.

هنا أيضاً لا يكفي الدعاء وحده بل لابدّ للمؤمن أن يسعى بعمله لتجنّب أهل البغي وتبديل حسدهم إلى مودّة؛ فإنّ الإمام سلام الله عليه يطلب من الله تعالى أن يخلّصه من السلبيات الموجودة في المجتمع ويلفت

---

(١) تحف العقول: ٥٠.

نظر المؤمنين إليها أيضاً.

أمّا كيف نتصرّف مع أهل البغي، فلنا في أئمّة الهدى صلوات الله عليهم قدوة، فلنقتد بأئمّتنا وعلمائنا من بعدهم؛ لأنّ ردّ الصاع بصاعين سهل إذا كانت لدى الشخص المقدرة، ولكنّ الصبر أصلح وأجدر أن يعمل به، وإن كان أصعب.

لا شكّ أنّ بلوغ هذه الدرجة العالية يحتاج إلى رياضة نفسية مستمرّة. لذا علينا بالمواظبة على قراءة هذه الأدعية بإمعان وتدبّر، والسعي للعمل بما توجّهنا إليه، والطلب من الله تعالى أن يوفّقنا في ذلك.

إنّ الإمام المعصوم يطلب من الله تعالى حاجات، ويعلّمنا أيضاً - نحن المسلمين - كيف ندعو الله تعالى ونطلبها، ومن هذه الحاجات ما هي دنيوية، ومنها ما هي أُخروية؛ إذ الدنيا والآخرة عالمان متشابكان كتشابك أصابع اليدين، فلا ينال الإنسان الجنّة إلا بعمله في هذه الحياة الدنيا.

إنّ الإمام السجّاد سلام الله عليه يسأل الله تعالى أن ينجّيه من أُمور قد حدّدها، وأن يبدلها إلى أضدادها أو نقائضها. فالإمام سلام الله عليه لم يطلب من ربّه الكريم أن ينجّيه من البغضة والحسد والظنّة والعداوة فقط، وإنّما يرتجي منه سبحانه أن يبدّل تلك الخصال عند أهلها إلى نقائضها وأضدادها بأرفعها وأسماها. يقول الإمام سلام الله عليه: «**ومن حسد أهل البغي المودّة**».

إنّ من أهمّ الأمور التي يطلبها الإمام من ربّه تغيير حالة حاسده وإبدال حسده إلى مودّة، فالحاسد بطبيعته يتربّص الدوائر بمحسوده

ويتحيّن له الفرص للبغي وإلحاق شتّى أنواع الأذى به.

وكان يمكن للإمام أن يقول: (ومن حسد الباغين) ولكنّه عدل إلى عبارة «أهل البغي»، لأنّ الباغي قد يصدق حتّى على من صدر منه البغي مرّة أو مرّتين، أمّا أهل البغي فهم الذين ديدنهم الظلم وشيمتهم البغي وعادتهم إيذاء الآخرين. وهذا معناه أنّ الإمام يطلب من الله تعالى أن يعالج له أصعب الحالات السلبية التي قد يبتلى بها الناس عادة.

إنّ الإمام يطلب من الله تعالى أن يبدّل هذه الحالة التي تمثّل أدنى درجات السلبية إلى المودّة وهي أعلى درجات الحبّ والتي تعتبر الخصلة المناقضة لحسد أهل البغي.

إبدال الظنّة والعداوة إلى الثقة والولاية

يقول الإمام السجّاد سلام الله عليه بعد ذلك: «ومن ظنّة أهل الصلاح الثقة»، والظنّة - بكسر الظاء - : التهمة.

وههنا لابدّ من وقفة أيضاً؛ تارةً يتّهم الإنسانَ شخصٌ فاسق ويظنّ به سوءاً فهذه حالة عادية؛ لأنّ من طبيعة الفسّاق أن يظنّوا بالناس السوء.

وتارةً يكون المتّهمون للإنسان والظانّون به سوءاً هم أُناس عاديون أي ليسوا فسّاقاً ولا على درجة مشهودة من الصلاح والفضل، وهذه الحالة قد تهون أيضاً.

ولكن ماذا لو أنّ التهمة وظنّة السوء صدرت تجاه الإنسان من أناس صالحين؟ لا شكّ أنّ الأمر يختلف في هذه الحالة.

فكيف إذا كان المتّهِم للإنسان من وصفهم الإمام بأهل الصلاح، أي شيمتهم الصلاح؟ هنا تكون الطامّة الكبرى؛ وذلك لأنّ أهل الصلاح لا يتّهمون أحداً جزافاً، ولا يتسرّعون في إصدار الأحكام بلا رويّة، بل يحتاطون في أُمورهم كثيراً ويحملون أفعال الناس على محامل حسنة ما استطاعوا، لتقيّدهم بالشرع وأحكامه، وعملهم بما روي من أنّه احمل فعل

أخيك على سبعين محملاً.

وكما أنّهم لا يتّهمون أحداً جزافاً، كذلك فهم لا يثقون بأحد سراعاً، بل إنّهم يرجعون إلى مقاييسهم الشرعية والعرفية، ولهذا لو اتّهم أهل الصلاح أحداً ما، حصل الظنّ بأنّ هناك سبباً وراء ذلك.

ثمّ إنّ الإمام سلام الله عليه لا يكتفي بطلبه من الله تعالى أن يدفع عنه تهمة من يُحسَب لتهمهم حساب ـ وهم الذين دأبوا على الصلاح حتّى عُرفوا بأهل الصلاح ـ بل يطلب إبدالها إلى الثقة وحسن الظنّ.

كما نلاحظ أيضاً وجود الفاصلة الكبيرة والبون الشاسع بين الظنّة والثقة، حيث يطلب الإمام من الله تعالى استبدال الظنّة بالثقة.

إبدال عداوة الأدنين إلى الولاية

فإذا انتقلنا إلى الجملة الثالثة من هذا المقطع من الدعاء نرى أنّ الإمام سلام الله عليه يعلّمنا أيضاً أن ندعو الله تعالى ونطلب منه أحسن الطلبات وأعلاها بعد التخلّص من أسوأ الحالات وأدناها فيقول: «ومن عداوة **الأدنين الولاية**» أي أبدلني من عداوة هؤلاء القوم ولاية ومحبّة.

فلفظة الأدنين جمع الأدنى وهو اسم التفضيل من الدناءة والدنوّ[١]؛ ذلك أنّ الشخص قد يكون قريباً ظرفيّاً فيقال عنه دان، ويجمع على «أدنين»، وقد يكون إنساناً سيّئاً أي فيه دناءة وحقارة؛ فيقال عنه دنيء.

---

(١) وربما لوحظ المعنيان في كلمة (دنيا)، لأنّ الدنيا تلي الآخرة، فهي أقرب بالنسبة لنا من الآخرة، فيقال إنّها دنيا أي دانية قريبة بالنسبة لنا، وإنّها دنيئة المنزلة أيضاً قياساً إلى سموّ الآخرة ورفعتها، فمن هذا الباب سمّيت (دنيا)..

ولا ريب أنّ الإمام سلام الله عليه يقصد المعنى الثاني في قوله: أدنين، لأنّه سيشير إلى ذلك المعنى الذي يكون المعنى فيه ظرفيّاً في قوله بعد ذلك: **ومن خذلان الأقربين.**

والتفضيل - في اسم التفضيل - يكون في اللغة بواسطة أحد ثلاثة أنحاء: هي حرف الجر «من» و«الإضافة» و «أل» التعريف، فيكون مقيّداً في الحالتين الأُوليين، ومطلقاً في الحالة الثالثة. فلو قلنا: (زيد أدنى من عمرو) فهذا لا يعني بالضرورة أنّه الأدنى مطلقاً، فقد يكون الأرفع بالنسبة لغيره ولكنّه أدنى من عمرو خاصّة، وهكذا إذا قلنا: (زيد أدنى ثقيف) فإنّه لا يعني أيضاً أن يكونَ الأدنى مطلقاً، وإن توسّعت نسبة دناءته، حتّى بلغت تقاس بقوم، ولكنّه قد لا يكون كذلك بالنسبة لقوم آخرين.

أمّا إذا قلنا: (الأدنى) كما في عبارة الدعاء فإنّ التفضيل هنا يفيد الإطلاق، أي يكون زيد أدنى من كلّ ما يُتصوّر؛ لعدم تقييده بشخص ما أو بقوم أو مكان أو زمان أو غير ذلك.

إذا اتّضح هذا نقول: إنّ الإمام سلام الله عليه في هذه الجملة أيضاً لم يكتفِ بطلبه من الله تعالى أن يخلّصه من العداوة فقط، بل يطلب تبديلها إلى محبّة، بل قمّة المحبّة وهي الولاية - كما سنبيّن لاحقاً - كما أنّ الإمام لم يكتف بطلب ذلك الاستبدال على المستويات العادية بل ترقّى إلى طلب إبدال أشدّ الحالات سوءاً بأفضل الحالات حسناً.

بيان ذلك: إذا كان الشخص الدنيء يبحث عن المشاكل عادة ويسبّب بطبعه متاعب للآخرين، فإنّ الأدنى يكون أشدّ كلَباً، لذا فالإمام

سلام الله عليه يعلّمنا كيف نطلب من الله تعالى أن يبدّل هـذه العـداوة - التـي هي ليست عداوة كلّ أحد ولا عداوة الداني فقط. ولا حتّـى عـداوة مـن هو أدنى بالنسبة لقومه بل عداوة الأدنى مطلقاً - إلى محبّة بل إلى ولاية.

معنى الولاية في الدعاء

إنّ الولاية غير الصداقة والصداقة غير الصحبة، فتارةً يكون الشخص صاحباً لك أو رفيقاً وزميلاً، وتارةً يكون صديقاً، والصداقة أعلـى درجـة من الصحبة، لأنّ الصديق من صدَقك، ولا يشترط في الصاحب والرفيـق ذلك؛ عن سعيد بن الحسن قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «أيجـيء أحدكم إلى أخيه فيدخل يده في كيسه فيأخذ حاجته فلا يدفعه؟» فقلت: ما أعـرف ذلك فينا. فقال أبو جعفر عليه السلام: «فلا شيء إذاً». قلـت: فـالهلاك إذاً. فقال: «إنّ القوم لم يعطوا أحلامهم بعد»[1].

وأعلى من الصداقة المودّة، وأعلى منها الولاية - بفـتح الـواو - لأنّ الولاية ليست صرف المحبّـة حـسب، بـل المحبّـة المقرونـة بالـصداقة والمودّة، وإظهارها مع الانصياع التامّ لمن تتولاّه.

أمّا الولاية - بالكسر - فهي الحكومة، علـى أي مـستوى كـان، فـإذا قبلتَ ولاية أحد عليك فهذا معناه أنّك قبلـت أن يكـون رئيـساً أو قائـداً لك؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ...﴾[2].

الخلاصة: إنّ الإمام في هذا المقطع من الدعاء يطلب مـن الله تعـالى

---

(١) الكافي: ٢ / ١٧٣ ح ١٣ باب حق المؤمن على أخيه وأداء حقّه.

(٢) المائدة: ٥٦.

أن يبدّل عداوة الأدنين – وهي أشدّ العداوة – إلى الولاية وهي أعلى المحبّة.

ضرورة التدبّر في كلمات الدعاء

ثمّة نقطة ينبغي الالتفات إليها، وهي أنّ هذه الأدعية المرويّة عن الأئمّة المعصومين صلوات الله عليهم ليست دعوة منهم لترك الأُمور على الله تعالى يعالجها بطريقة إعجازية دون أن يحرّك الداعي نفسه باتّجاه معالجتها؛ بل الأمر على العكس من ذلك، فإنّ هذه الأدعية تنهض بدور بيان السلبيات الموجودة في المجتمع لكي يعيها المتديّنون ويسعوا لتلافيها.

أذكر مسألة تنفعنا في إيضاح المطلب، وهي: أنّ هناك بحثاً ونقاشاً بين العلماء في قضية الأوامر غير الاختيارية التي يكلّف الله بها عباده وكيفية توجيهها. ومثال تلك الأوامر قول الله تعالى في كتابه المجيد خطاباً لنبيّه الكريم صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[1]، فإنّ منطوق هذه الآية يبيّن أنّ الله تعالى يأمر المسلمين بمودّة آل البيت النبوي الطاهر، والسؤال هو: إذا كانت المودّة تعني المحبّة مع إظهارها، وإذا كان الإظهار أمراً اختيارياً، فإنّ المحبّة نفسها ليست فعلاً اختيارياً بل هي مناط قلبيّ، لأنّك إذا كنت لا تحبّ أحداً فلا معنى لأن تؤمر بحُبّه إذاً فما هو معنى ووجه هذا الأمر مع أنّ التكاليف لا تتعلّق بالأُمور غير الاختيارية؟

(١) الشورى: ٢٣.

يجيب العلماء على هذا السؤال بقولهم: إذا كان المسبّب غير اختياريّ وكان السبب اختيارياً، فإنّ الأمر بالمسبَّب يعني الأمر بالسبب، والمودّة - في المقام - كذلك فإنّها وإن كانت أمراً غير اختياري لأنّ الإنسان إذا رأى خيراً من أحد تعلّق به قلبه دون اختياره، كما هو الحال في البغض أيضاً فإنّ الإنسان إذا رأى شرّاً من أحد أبغضه، إلاّ أنّ أسباب الحبّ والبغض اختيارية يمكن أن يتوفّر عليها الإنسان.

فيكون معنى الأمر الإلهي بحبّ أهل البيت سلام الله عليهم هو العمل بما من شأنه أن يؤدّي بالإنسان إلى حبّهم، كقراءة فضائلهم والاطّلاع على سيرتهم العطرة؛ لأنّ الإنسان إذا عرف أهل البيت سلام الله عليهم فإنّه لا يمكنه أن لا يحبّهم إلاّ أن يكون سقيم الفطرة فينكر ذلك رغم وقوفه على عظمتهم، كما قال الله تعالى واصفاً منكري آياته: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾[1] فإنّهم متيقّنون من صحّتها في قلوبهم وهذا أمر غير اختياريّ، ولكنّهم لا يُظهرون ذلك جحوداً.

ويمكن أن نضرب مثلاً آخر وهو الهلال في شهر رمضان المبارك، فإنّ المكلّف مأمور بأن يصوم لرؤيته ويفطر لرؤيته؛ لذلك إمّا أن يستهلّ بنفسه أو يسأل مرجع تقليده مثلاً حتّى يحصل له اليقين أو الظنّ بأنّ الهلال قد هلّ فيعمل بوظيفته؛ فاليقين أو الظنّ الحاصل ليس أمراً اختيارياً ولكن الأسباب التي أدّت إليه اختيارية؛ ولذلك يتوجّه إليها الأمر.

بيد أنّ نفس أمر القرآن الكريم، يكفي سبباً لحصول المحبّة بذي

---

(١) النمل: ١٤.

قربى النبي صلى الله عليه وآله.

قضية الدعاء والطلب من الله تعالى تشبه المثالين اللذين تقدّما - أي الأمر بالحبّ في المثال الأوّل، والظنّ أو اليقين في المثال الثاني - فكما أنّ الأمر بهما يعني الأمر بتهيئة مقدّماتهما، فكذلك عندما يعلّمنا المعصومون أن نطلب أُموراً من الله تعالى فإنّ في ذلك دعوة لنا لكي نعمل في ذلك الاتّجاه، وإلاّ لا معنى لأن تطلب من الله شيئاً وأنت تعمل على خلافه لأنك بذلك تحول دون تحقيقه، وليس معنى الدعاء أن يحقّق الله المطالب كلّها بطريقة إعجازية.

فعندما يدعو الإنسان ربّه لأن يجنّبه عداوة الأدنين، فعليه أيضاً أن يتجنّب ما من شأنه أن يثير تلك العداوة. ففي المجتمع عادة يوجد أُناس دنيئون ديدنهم إيذاء الآخرين، فعلى العاقل أن لا يجعل نفسه عرضة لإيذائهم، وأن لا يعمل ما من شأنه أن يثير عداوتهم[١].

إذاً مفهوم الدعاء في قول الإمام سلام الله عليه: «وأبدلني... من عداوة الأدنين الولاية» يُظهر ـ إضافة إلى عنصر الطلب من الله تعالى ـ وجوب أن يضمّ إليه العمل على تجنّب الخصال السيّئة من قبل الداعي نفسه.

وهكذا الأمر بالنسبة لقوله سلام الله عليه: «ومن ظنّة أهل الصلاح الثقة»، فإنّ الأحاديث الشريفة وتعاليم النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين من

---

(١) نُقل عن شخص أنّه كتب رسالة جوابية لشخص دنيء ضمّنها عبارة تغيظه، فكانت النتيجة أن ألحق به ذلك الدنيء أضراراً كبيرة، وعندما سئل الشخص: لماذا كتبت تلك العبارة؟ أجاب: أردت أن أُغيظه لأنّي كنت أعرف أنّه يتأذّى منها كثيراً فتعمّدت إيذاءه!

فمثل هذا الشخص لم يعمل ما من شأنه أن يجنّبه عداوة الأدنين.

آله سلام الله عليهم تدعو الإنسان المسلم وتحثّه للعمل على اتّقاء مواضع التّهم[١] عامّة، فكيف بظنّة أهل الصلاح.

فقد روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان مع إحدى نسائه، فمرّ به رجل فدعاه صلى الله عليه وآله، فجاء، فقال: «**يا فلان، هذه زوجتي فلانة**». فقال: يارسول الله من كنت أظنّ به فلم أكن أظنّ بك. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم**»[٢].

ربما لم يكن هذا الشخص متّهماً للنبيّ صلى الله عليه وآله، وربما كان من المنافقين الذين يتربّصون بالنبيّ، فقطع صلى الله عليه وآله الطريق عليه بذلك؛ ليعلّمه ويعلّمنا كيف نتّقي مواضع التّهم.

إذاً لا يكفي أن يقول المرء: «اللهمّ جنّبني مواضع التّهم» أو «أبدلني من ظنّة أهل الصلاح»، وهو لا يتّقي مواضع التّهم، وإنّما عليه أن يسعى بعمله لتجنّب توجّه التّهمة إليه من أبسط الناس فضلاً عن تهمة أهل الصلاح، الذين لا يتّهمون أحداً جزافاً، وإذا فعلوا فإنّ تهمتهم لا يقدر على إزالتها أو مسحها إلاّ الله، بمعنى أن يحاول الإنسان ما أمكنه تجنّب كلّ ما من شأنه أن يسبّب تهمة أهل الصلاح له، وإذا ما صدر منه ما يجعل أهل الصلاح يظنّون به أو يتّهمونه يسرع بالطلب من الله تعالى أن يبدّل ذلك الظنّ إلى ثقة، بحوله وقوّته.

---

(١) نهج البلاغة: ٤ / ٤١ رقم ١٥٩. وفيه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومنّ من أساء به الظنّ.

(٢) الكافي: ٨ / ١١٣.

ما أعظم الذين وثقهم المعصومون صلوات الله عليهم

لابدّ أن يكون للصلاح أهل يحملونه ويعملون به، ولابدّ أن يكون لأهل الصلاح رأس وذروة وسنام يستضيئون به ويستزيدون، ولا أجدر من أئمّة أهل البيت النبويّ المعصومين سلام الله عليهم، فهم خيرة أهل الصلاح وأئمّتهم وقادتهم وعظماؤهم، فلو أُطلقت هذه الكلمة (أهل الصلاح) فالمصداق الحقيقي لها والأولى بها هم سلام الله عليهم.

كما أنّ هناك جملة ممّن حاز على ثقتهم صلوات الله عليهم سواء كانوا على مستوى أفراد أو جماعات. فمن الذين حازوا هذا الشرف، عائلة كبيرة من الأشعريين عاصروا الأئمّة منذ الإمام السجّاد أو الباقر سلام الله عليهما حتّى صاحب الأمر عجّل الله تعالى فرجه الشريف، والعشرات منهم كانوا من أصحاب الأئمّة والعديد منهم جيّدون بل جيّدون جداً، منهم زكريا بن آدم المدفون في المقبرة القريبة من مرقد السيّدة فاطمة المعصومة[1] ومن عبّر عنه الإمام المعصوم عليه السلام بقوله: **المأمون على الدين والدنيا**[2].

فما أعظم مقام هذا الشخص! ففرق بين أن يقول هذه الكلمة شخص عادي بحقّ آخر وبين أن تصدر من إمام معصوم يعرف خفايا الأمور وظواهرها، ونحن نعتقد استناداً إلى الروايات سواء بالأدلّة المطابقية أو التضمّنية أو الالتزامية أنّ الإمام المعصوم هو نفس النبيّ صلى الله عليه وآله باستثناء النبوّة؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾[3].

---

(١) في مدينة قم المقدّسة.

(٢) انظر الاختصاص للمفيد: ٨٧.

(٣) آل عمران: ٦١.

صحيح أنّ درجاتهم تختلف ولكنّهم نور واحد ومن طينة واحدة، لا يتخلّف عن ذلك أيّ منهم.

فحينما ينعت الإمام صلوات الله عليه زكريا بن إبراهيم بأنّه «**مأمون على الدين والدنيا**» أو يصف «العمري» وابنه بأنّهما «ثقتان»[1] فإنّه يريد التصريح بنزاهتهم ووثاقتهم، وهذه مرتبة عظيمة.

ينقل أنّ الشيخ البهائي رحمه الله سئل: أيّهما أفضل؛ زكريا بن آدم أم الشيخ الصدوق؟ فأجاب الشيخ البهائي: زكريا بن آدم. هذا رغم قلّة ما وصلنا منه عن الأئمّة وكثرة ما وصلنا من الشيخ الصدوق من كتب ملأت أدراج المكتبات وبيوت الشيعة، وقد لا أُبالغ إن قلت بأنّه لا توجد عبادة نؤدّيها ولا كثير من الأحكام والإرشادات والأدعية والزيارات والأخلاق والآداب إلاّ وقد وصلنا جزء منها عن طريق الشيخ الصدوق؛ فكم هو جليلٌ إذاً.

لكن الشيخ البهائي مع ذلك قال: إنّ زكريا أعظم من الشيخ الصدوق، وبرّره بأنّ الإمام المعصوم قال عنه بأنّه: «**المأمون على الدين والدنيا**» ولم يرد مثل ذلك بحقّ الشيخ الصدوق.

يقال: فرأى الشيخ البهائي في منامه الشيخ الصدوق وهو يعاتبه قائلاً: لو قال الذي قلته غيرك لعذر، أمّا أنت العالم فكيف تقول ذلك؟ فقال الشيخ البهائي: ما قلت الذي قلت إلاّ لقول المعصوم في زكريا. فقال:

---

(١) روي عن أبي محمد عليه السلام، أنّه قال لأبي علي حين سأله عن العمري وابنه: العمري وابنه ثقتان، فما أدّيا إليك عني فعنّي يؤدّيان، وما قالا لك فعنّي يقولان، فاسمع لهما وأطعهما فإنهما الثقتان المأمونان. الكافي: ١ / ٣٢٩ ح١ باب في تسمية من رآه الإمام.

ولكنّي لم أكن معاصراً للمعصوم لتستظهر تزكيته لي، فالمقارنة غير صحيحة. فتوقّف الشيخ البهائي بعد ذلك عن هذه المفاضلة.

ولكن شاهدنا أنّ تزكية المعصوم لشخص يوجب الاطمئنان الكامل به وبعظمة منزلته.

وعلى أيّة حال، فإنّ بإمكان الإنسان أن يكسب ثقة أهل البيت سلام الله عليهم حتّى في هذا الزمن، فهذا ليس بالمستحيل ولا بالصعب جدّاً، ولعلّه في هذا الزمان أسهل من زمن زكريا بن آدم، لا أقول إنّه ليس صعباً أبداً، ولكنّي أُريد القول إنّه ممكن تحقيقه ولكنّه يتطلّب الجدّ والإرادة.

قد يستطيع الإنسان أن يحوز على ثقة الناس العاديين ولكن حصوله على ثقة الإمام المعصوم ليس بتلك السهولة؛ لأنّ الإمام يعرف خفايا الإنسان وما يظهره.

المعصومون يشهدوننا

يحكى أنّ أحد الأشخاص كان ذا التزام دينيّ ظاهريّ ذهب لزيارة الإمام الرضا سلام الله عليه لطلب الحوائج منه. وكانت حوائجه كثيرة إلاّ أنّ أيّاً منها لم يتحقّق. يقول الشخص نفسه: ولكنّي قبيل خروجي من الروضة المباركة طلبت من الإمام سلام الله عليه أن يبيّن لي منزلتي عنده، وإذا بشخص يناديني باسمي الحقيقي الذي كنت أُخفيه عن سائر الناس ولا يعرفه إلاّ الخواص جدّاً، فاستغربت من ذلك، ثمّ إنّه أنبأني بأنّ منزلتي ومقامي كذا وكذا ـ ويبدو أنّه كان مقاماً بائساً ـ .

ويقال إنّ شخصاً كان في زيارة للإمام الرضا سلام الله عليه فبدر إلى ذهنه هذا السؤال: إذا كان ردّ السلام واجباً فهل الإمام يردّ جواب كلّ زائر

يسلّم عليه منفرداً أم يجيب بجواب واحد للجميع كأن يقول: عليكم السلام جميعاً؟ فظهر له الإمام في عالم المكاشفة وهو يردّ سلام كلّ مسلّم باستقلال، ومنهم الشخص الذي بدر إلى ذهنه هذا التساؤل. وهذا معناه أنّ الأئمّة يشهدوننا ويعرفون عن كلّ منّا كلّ شيء، فقد روي عنهم سلام الله عليهم قولهم: «**نحن صنائع الله**»[1].

وإنّ الأئمّة صلوات الله وسلامه عليهم لا يثقون بأحد هكذا اعتباطاً، كما لا يتّهمون أحداً جزافاً ألبتّة لأنّهم أهل الصلاح بل قادة أهل الصلاح.

بمقدور كلّ مؤمن أن يحوز ثقة المعصوم

إذاً بمقدور كلّ مؤمن أن يحوز على ثقة أهل البيت سلام الله عليهم، شرط أن لا يقصّر. فمن عرف عظمتهم وقدّم ما في وسعه في سبيلهم، وهو سبيل الله تعالى، كسب ثقتهم حتّى يصل إلى مرتبة أمثال زكريا بن آدم وغيره؛ لأنّ الله تعالى لم يحصر مقاماً ما ـ غير مقام العصمة ـ لأحد دون آخر.

فلنسعَ لكسب ثقة الإمام المعصوم، ولنتنافس في ذلك خاصّة في الأشهر الحرم؛ لأنّ كلّ عمل حسن فيها فهو أفضل منه في غيرها، وكلّ عمل قبيح في غيرها فهو فيها أكثر قبحاً.

---

(١) انظر: نهج البلاغة: ٣٨٥ رقم ٢٨ من كتاب له عليه السلام إلى معاوية جواباً. وفيه قوله عليه السلام: فإنا صنائع ربّنا، والناس بعد صنائع لنا...

إبدال العقوق والخذلان، وتطوير المداراة

العقوق - لغةً - من العقّ وهو الشقّ والقطع والحفرة الواسعة في الأرض، وأطلق «عاقّ الوالدين» على الولد الذي يؤذي والديه بشقّ عصا طاعتهما أو لايصلهما، فينشقّان عنه بسبب سوء موقفه تجاههما. فالعقوق يستعمل في الوالدين، كما تستعمل القطيعة في الأرحام غالباً؛ لكن هنا أُطلق العقوق تجاه الأرحام: «ومن عقوق ذوي الأرحام».

إنّ الحالة الغالبة بين الأرحام هي أن يعقّ بعضهم بعضاً، بسبب المشاكل والتوقّعات أو اختلاف الأذواق أو تضارب المصالح الشخصية، فتحصل بينهم هوّة وهذه الهوّة قد تزداد بمرور الزمن، وهذا في الأرحام شيء غير نادر، اللهمّ إلاّ أن يسارع ذوو الأرحام في معالجة ذلك والسعي في إصلاح ذات البين.

والعلاج في العقوق - كما هو في جميع البلايا - له ركنان، الأوّل: الدعاء، والثاني: السعي. فعلى الإنسان - كما قلنا مراراً - أن يسعى ويدعو، لا أن يدعو دون سعي، أو يسعى دون دعاء.

إنّ الإمام السجّاد سلام الله عليه يسأل من الله تعالى - ونحن ينبغي أن

نقتدي به لأنّه إمامنا المفترض الطاعة - أن يبدّل عقوق ذوي أرحامه بالمبرّة، أي: يارب لا تجعلني ممّن يعملون ما من شأنه حصول القطيعة. ومعلوم أنّ المبرّة تعني الصلة وهي الطرف الضدّ للعقوق تماماً.

ولن يتسنّى ذلك بسهولة ما لم يسع الفرد إلى دفع أو رفع وإزالة المشاكل التي توجب العقوق والشقاق. فلا ينبغي أن نقع في الغفلة أو التغافل عن أُولي أرحامنا بداعي سوء الظنّ أو النظر في المصالح الماديّة البحتة، أو تتقطع سبل التواصل معهم بسبب الخجل أو ما أشبه.

وعمدة القول في معنى هذا الطلب هو أن يتوسّل المرء بربّه ليعافيه عن الابتلاء بعقوق ذوي الأرحام، لما فيه من التفكّك الأُسري والاجتماعي، فضلاً عن سخط الله تعالى.

نصرة الأقربين

ثمّ يدعو الإمام بالنصّ التالي: «**ومن خذلان الأقربين النصرة**». ومعلوم أنّ الأقربين أعمّ اصطلاحاً من أُولي الرحم، ولذلك يطلق على مَن يعيش الإنسان معهم بصورة أشمل وأوسع، كالجيران وطلبة المدرسة، وزملاء العمل، فأفراد هذه الأصناف قد يعيش بعضهم مع بعض ويقترب بعضهم من بعض حتّى تصل درجات التأثير المتبادل فيما بينهم حدّاً كبيراً.

وقد يكون هؤلاء الأقربون أُولي رحم أي نسبيّين أو غرباء لا رابطة بينهم، أو أنّهم قرابة من حيث السبب.

والخذلان عادة يصدر من هؤلاء الأقربين تجاه بعضهم، كأن لا

يتساعدون لحلّ مشكلة ما قد أصابت أحدهم، نظراً إلى أنّ ديدن الناس غالباً الاجتماع حول ذي الثروة أو النفوذ، ويكونون منفضّين عن الفقير باستثناء بعض من هو مثله أو أدون منه. والإمام سلام الله عليه يحرّضنا بدعائه هذا على أن نطلب من ربّنا الكريم أن يبدل خذلان الأقربين بمحبّتهم لنا ليتحقّق عنصر تبادل المنفعة بيننا.

إذاً، فهنا قضيّتان مهمّتان: قضية الدعاء، وقضية السعي نحو تفعيل مضمونه؛ بمعنى أنّ الفرد كما يحبّ أن ينصره الأقربون عند حاجته إليهم، كذلك عليه أن يضع في حسبانه تقديم النصرة لهم عند الضرورة وغيرها، لدفع أكبر نسبة ممكنة من احتمالات الخذلان عند الحاجة، فهو إذا خذل قريبه حين يحتاجه، فليتوقّع خذلان قريبه له كذلك.

مداراة الناس

يقول الإمام سلام الله عليه: «ومن حبّ المدارين تصحيح المقة». أي المحبّة.

لقد حثّ الإسلام على مبدأ المداراة بين الناس وجعل للمدارين جزاءً موفوراً. حتى جاء في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «من مات مدارياً، مات شهيداً»[1]. والمتواتر عن السيرة النبوية الشريفة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله – وهو سيّد الأخلاق الحميدة، الذي وصفه الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2] – كان يعامل الناس معاملة هي الغاية في الحكمة والطيبة حتّى ليظنّ كلّ منهم

(١) الدعوات: ٢٢٠.

(٢) القلم: ٤.

أنّه أحبّ الناس إلى النبي فكان بذلك المصداق الأكمل للمداراة.

فإن كان المرء لا يحبّ أحداً، فلا يلزمه أن يظهر هذا الإحساس له أو يبديه في وجهه، وهذا من الأمور المستحبّة، حتّى ورد في النبويّ الشريف أنّ نصف العقل مداراة الرجال[1]. فيعاملهم معاملة يتصوّرون أنّه يحبّهم، وهذا ليس من النفاق في شيء، بل هو من مقتضيات العقل وأُصول الأخلاق الرفيعة؛ إذ لا شكّ في وجود الاختلاف والتفاوت في الأذواق والأساليب والتوجّهات بين الناس، ولكن ليس من الضروري أن يظهر المرء كلّ ما في قلبه للآخرين، بل من الضروري أن يبدي احترامه لأذواقهم وأساليبهم وتوجّهاتهم وآرائهم، كما يمكنه أن يعكس وجهة نظره ورأيه أو طبيعة ذوقه وما يرتئيه من أُسلوب بالصورة المناسبة والحكيمة، لكي لا يقع الشقاق والفُرقة.

وهذا النصّ من الدعاء الشريف يشير إلى أهميّة طلب المرء من ربّه أن يساعده في تحويل المودّة الظاهرية ـ التي نعبّر عنها بالمداراة من قبل الناس له ـ إلى حبّ باطني حقيقي يضاعف الترابط الاجتماعي ويكرّس العلاقة الطيبة بينه وبين باقي أفراد المجتمع.

وبذلك يُفهم من سياق النصّ وكأنّ الإمام سلام الله عليه يقول: إلهي، اجعل من الحبّ الظاهري الذي يبدو بسبب مداراة الناس لي، حبّاً واقعياً في قلوبهم.

---

(١) الكافي: ٢ / ١١٧ ح ٥ ، وفيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: مداراة الناس نصف الإيمان والرفق بهم نصف العيش.

الاستفادة من بلاغة المعصومين عليهم السلام

وهنا تجدر الإشارة إلى أهمية وضرورة الاستفادة من بلاغة الأئمّة عليهم الصلاة والسلام، لنتعلّم من أساليبهم الحكيمة ما يعود علينا بالفائدة والنجاح في التواصل مع الآخرين.

فمن البلاغة مثلاً عدم التكرار في الكلام، أي أنّ المعنى الواحد إذا كان بحاجة إلى التكريس والتكرار، فمن الأجدر أن لا يُكرّر اللفظ نفسه، بل يُذكر في قوالب لفظية مختلفة، لكي يكسبه جمالاً على جمالٍ، ويجعله أكثر وقعاً في نفس المخاطَب[1].

وهذا الجمال يشمل فيما يشمل جمال الألفاظ وحسن التعبير وبلاغة البيان، كما يعلم سلام الله عليه أنّ العبد ملزم بمعرفة موقعه وحقيقته كمخلوق تجاه خالقه. ورغم أنّ الله غنيّ عن ألفاظه، إلاّ أنّ الإنسان ينبغي أن ينتخب الأجمل والأروع والأبلغ في الكلام.

---

(١) مما يُذكر في هذا المجال: أنّ فصحاء العرب وبلغاءهم اجتمعوا في الجاهلية ليصوغوا جملة تكون رادعة للقتل والتناحر، وبعد نقاش ومداولة طويلة، أقرّوا عبارة (القتل أنفى للقتل) بعد أن أُعجبوا بها كلّ الإعجاب من حيث اللفظ وقلّة عدد الحروف وعمق المعنى، ولكنّ الله عزّ وجلّ أنزل على رسوله الكريم صلى الله عليه وآله آية القصاص التي قال فيها: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقَصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٧٩) فأمر النبيُّ صلى الله عليه وآله أصحابَه أن تكتب هذه العبارة من الآية ﴿فِي الْقَصَاصِ حَيَاةٌ﴾ وتعلّق على جدار الكعبة إلى جانب عبارة كفّار قريش التي كانت معلّقة في المكان نفسه، وجاء فصحاء القوم فرأوا الآية، ورأوا أنّ لفظها أبلغ وأجزل، ومعناها أتمّ وأجمل من عبارتهم فرفعوا لوحتهم، وذلك لأنّهم لاحظوا أنّه لا تكرار في الآية فضلاً عن عمق المعنى المؤدّى بكلمة (القصاص) وأرجحيّتها على كلمة (القتل)، وفضلاً عن وجود كلمة (الحياة) ومعطياتها التي تفتقر إليها عبارتهم، ممّا جعلهم يرضخون لبداعة الأسلوب القرآني وإعجازه.

ولذلك؛ فإنّ الإمام سلام الله عليه لم يكرّر عبارته تلك ولم يقل: «من حبّ المدارين تصحيح المحبّة»، بل استخدم لفظة (المقة) لتكريس جمال الأُسلوب في مناجاته مع الله تعالى.

لنتعلّم من القرآن ومن أهل البيت

ونحن من جانبنا ينبغي أن نتعلّم من القرآن الكريم ومن أهل البيت عليهم الصلاة والسلام جمال التعبير، لأنّ اللفظ بمثابة الإناء، والمعنى محتواه. فإذا كان الإناء جميلاً ومحتواه أيضاً، كان ذلك مدعاةً إلى القبول والإقبال، أمّا إذا كان الإناء غير جميل، فلن تكون ثمّة ضمانة في تقبّل المحتويات وإن كانت على شيءٍ من الجمال في نفسها. وعلى ذلك؛ فإنّ للتعبير الجميل مدخلية في استساغة المعنى، حتّى في حال المناجاة مع الربّ العظيم تبارك وتعالى، لأنّه جميل يحبّ الجمال.

طلب فنّ المعاشرة، والأمن من الظالمين

يقول الإمام سلام الله عليه بعد ذلك: «**ومن ردّ الملابسين كرم العشرة**».

في هذه العبارة يعيد الإمام الكرّة نفسها في استخدام الأُسلوب الأمثل من ذكر الكلمات الأبلغ في التعبير. فالملابسون هم المعاشرون أنفسهم، ولكنّ الإمام لم يقل: (ومن ردّ المعاشرين كرم العشرة) أو (من ردّ الملابسين كرم الملابسة) مع أنّ الملابسة هي المعاشرة أو كناية عنها. وذلك لإمكان أن تصل المعاشرة بين الناس حتّى يكون مستوى القرب فيما بينهم كقرب الإنسان من لباسه. وبسبب هذا التقارب والاقتراب تنكشف النواقص والمساوئ في الأخلاق والفعال، ولذلك تكثر المخاوف من حصول الخلاف فيما بينهم، وذلك لأنّ ديدن الملابسين الخلاف.

من هنا، يجدر بالإنسان أن يطلب من ربّه الكريم أن يحول بينه وبين وصول الخلافات وردود الأفعال التي تسيء إلى عشرته مع الملابسين له، ويحرص على أن تكون العلاقة بينه وبين القريبين منه والملابسين له علاقة طيّبة وكريمة لا علاقة تتبّع العثرات لإبدائها في

النقد الهدّام أو الاغتياب والانتقاص أو الحسد، فالعشرة لها كرامة، أو هكذا ينبغي أن تكون؛ وكأنّ الإمام سلام الله عليه يريد أن يقول: فامنحهم ياربّ هذا الكرم، لئلاّ يردّوا عليّ ما يزعمون أنّها من نواقصي.

وهنا – كما سبق في نظائره – يلزم أن يعمل الإنسان أمرين:

الأوّل: أن يبادر هو قبل أيٍّ كان إنى أن يكون فرداً كريماً في معاشرته للآخرين، فلا يردّ عليهم باللؤم وسوء الأدب، وإنّما يعاملهم بالحسنى ما استطاع.

الثاني: أن يطلب من ربّه التكرّم عليه بأن يساعده على تحويل ردّ الملابسين – المعاشرين – له، ويبدل صدودهم بعشرة كريمة؛ ملؤها السماحة والإنصاف والعقلانية.

الأمن من الظالمين

ثمّ يطلب الإمام الأمن والاستقرار مناجياً ربّه تبارك وتعالى فيقول: «ومن مرارة خوف الظالمين حلاوة الأمنة».

ومعلوم أنّ للخوف مرارة أشدّ وقعاً من مرارة الآلام البدنية التي تُخلّ بنوم المريض، فيهجر لها نومه وتسلبه راحته، ولكنّها رغم ذلك تبقى آلاماً بدنية فقط بينما الخوف ذو مرارة وآلام تمسّ الروح والبدن معاً. جاء في الحديث الشريف: «نعمتان مجهولتان: الصحّة والأمان»[1] ممّا يعني لزوم أن يستشعر الفرد نعمة الأمن وهو ينعم في ظلّه ويطلب من ربّه أن لا يبتليه بظلم الظالمين، فيضطرّه إلى مكابدة مرارة الخوف منهم.

---

(١) شجرة طوبى: ٢ / ٣٦٨ المجلس الخامس والأربعون.

قد يكون الشعور بالخوف حالة إيجابية وبنّاءة إذا تعلّق بوقوع العقاب من طرف العادل، و ذلك لأنّ الإنسان المحكوم إذا قدّر له العيش تحت مظلّة حاكم أو رئيس عادل، فإنّه سيحدّث نفسه أنّ من الخطأ الخوف، لأنّ العقوبة التي يمارسها الحاكم العادل إطارها التشريع وغايتها الإصلاح، وإلاّ فإنّ الحاكم العادل رجل مأمون الجانب لا يبتغي لنفسه نفعاً جرّاء حكمه؛ بينما الحاكم الظالم أو ربّ العمل الظالم أو المعلّم الظالم أو البائع الظالم أو غيرهم يختلف حاله عن ذلك بكثير، إذ لا يُعلم سبب ظلمه أو مقداره أو زمنه مادام يصبّ في نفع الظالم نفسه. لذلك يطلب المرء من ربّه أن لا يبتليه بهذا البلاء وأن يجعله بمأمن من جميع الظالمين.

قصّة فيها عبرة

ممّا ينقل في هذا المجال أنّه في إحدى البلدان عزم رئيسها على إرسال قاضٍ إلى إحدى المناطق، إلاّ أنّ حاكم تلك المنطقة سرعان ما قام بقتله، وحتّى يتبيّن للرئيس السبب في ذلك، قام بإرسال قاضٍ آخر، ولكنّ الحاكم ألحقه بالقاضي الذي سبقه. وهذا الأمر أدّى ببعض القضاة إلى الامتناع عن التوجّه إلى ممارسة القضاء في تلك المنطقة. غير أنّ أحدهم، بعد فترة تبرّع بقبول المنصب لقاء أجرٍ باهض جدّاً، مدّعياً أنّه سيعمل في سبيل الكشف عن أسباب مقتل القاضيين اللذين سبقاه، ومن ثمّ يُعلم رئيسه ليقضي على الحاكم وفي الوقت نفسه يكسب ثقة الرئيس بعلمه وعمله لكي يضمن لنفسه بعد ذلك منصباً أرفع وأجراً أعلى. وحين توجّه إلى تلك المنطقة أخذ القاضي بمسامرة ومجالسة حاكمها في محاولة منه ليعرف أسباب قتله القاضيين السابقين، ولما اطمأنّ له

الحاكم بعدما أخذ بمجامع عقله وقلبه، قال له: إنّه لم يقتل القاضي الأوّل إلاّ بعد أن رأى في منامه ذات مرّة أنّه عدوّ لدود له، وحينما استيقظ مرعوباً، أمر بقتله فوراً. أمّا القاضي الثاني فرأى فيه رؤيا وكأنّه حلّ مكانه حاكماً، ففزع، ولذا ألحقه بصاحبه.

فلما سمع القاضي الثالث هذا الكلام لم يجد بدّاً حينها إلاّ الهروب والعودة إلى رئيسه، فأخبره مؤكّداً له بأنّه ربما يتمكّن من ضبط كلّ شيء من ذلك الحاكم، سوى رؤياه، فإنه لا يقدر أن يتحكّم فيها وقد يرى رؤيا لهذا الثالث ويلحقه بسلفيه.

إذاً ليس كلّ خوف له مرارة. أمّا الخوف من الظالم فإنّ له مرارة شديدة، لأنّه لا يُعلم ماذا سيصدر عنه، ولأي سبب سيعاقب، وكيف ومتى سيعاقب ويعتدي. ولا يكفي أن يحتاط المرء في تجنّب ما نهى عنه، ما لم يسأل الله عزّ وجلّ أن يحرسه بعينه التي لا تنام، ويرعاه في الشدّة والرخاء.

فالإمام بعد أن يطلب من ربّه أن يبدله عن عقوق أرحامه بمبرّتهم، وعن ردّ الملابسين بكرم العشرة، وعن بغضة أهل الشنآن بالمحبّة، طلب من الله تعالى أن يبدل مرارة خوفه من الظالم إلى شعور بالأمان، أي عدم العيش تحت ظلّ الظالم.

انظروا إلى دقّة التعابير في دعاء الإمام سلام الله عليه: فإنّ ظاهر عبارة الإمام تدعو إلى تغيير حالة أُولئك يعني الأرحام والملابسين وأهل الشنآن و... سوى الظالم، فإمّا أن لا يراني ويسوؤني، أو اجعلني اللهمّ في مكان وزمان بعيدين عن الظالم، لأنّ وجود الظالم يعني وجود الخوف من ظلمه.

الدعاء دعوة للتغيير وتحصيل ملكة العدالة

ومقطع الدعاء هذا يتضمّن بين طيّاته أن على الإنسان أن يهجر الظلم ويمتنع عنه تجاه نفسه أولاً، وتجاه الآخرين ثانياً، فينبغي أن يعي مدى لزوم تحصيل ملكة العدالة في نفسه، وهو واجبٌ عقلي أيضاً.

فإذا أراد الفرد عدم ارتكاب المعصية، فاللازم أن يخالف هواه، ومن أولويات ذلك أن يخلق وينمّي ملكة العدالة في نفسه.

ولعلّ من أحسن الفرص أمام الإنسان لتنمية هذه الملكة، وتقويتها هي الأشهر الحرم ذات الفضيلة على باقي الشهور، فكما يمكن للراغب أن يستثمر هذه الأشهر في مضاعفة ثواب الصلاة والصيام والصدقة، كذلك يمكنه أن يستثمرها في الارتقاء بمستوى أخلاقه الحميدة وحسن سلوكه الذي يجرّ صاحبه جراً إلى الجنّة، وفي الحديث: «ما وضع في ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخُلُق...»[1].

لا شكّ أنّ حسن الخلق ـ الذي هو أحد أركان ملكة العدالة ـ كما يلزم أن يكون داخل نطاق الأُسرة كذلك يلزم في خارجها، ولا شكّ أنّ استدامته ليس بالأمر السهل، تبعاً لوجود الموانع الصعبة والشديدة والتي منها وساوس الشيطان، والنفس الأمّارة بالسوء التي ترهق الإنسان. ويتيسّر ذلك بالعزم والإستعانة بالعلي القدير.

إنّ من لم يطرد الشيطان، ولم يبذل قصارى جهده في ذلك وعجز عن كبح جماح نفسه الأمّارة بالسوء فإنه يخسر دنياه وآخرته، فكثيرٌ من

---

(١) كشف اللثام: ٢ / ٥٣٣.

هؤلاء الطغاة والظلمة الذين حكموا تعسّفاً ماتوا من فرط شهوات أنفسهم الأمّارة بالسوء، فترون القليل منهم قد عمّر، فلم تدع لهم شهواتهم وتكالبهم على الدنيا مجالاً للعمر في الدنيا طويلاً، وقد ورد في الروايات أنّ الذي يأكل أكثر من حاجته، يُصاب بكذا وكذا، فعن النبي صلى الله عليه وآله: «**إيّاكم والبطنة، فإنّها مفسدة للبدن، ومورثة للسقم، ومكسلة عن العبادة**»[1].

إنّ الأنبياء والرسل عليهم السلام، وعلى مقدّمتهم رسول الله صلى الله عليه وآله وكذلك أئمّة أهل البيت عليهم السلام كانوا أعرف الناس بالدعاء والتضرّع إلى الله تقدّست أسماؤه، وكانوا أكثر الناس سعياً لتكريس معاني الدعاء، فكانوا يتحمّلون المشاقّ والجوع والأذى والقتل من أعدائهم بل حتى من أقاربهم وأصدقائهم ومن بعض أتباعهم! وكم سعى رسول الله صلى الله عليه وآله وجاهد وعانى ودعا إلى جانب ذلك، لكي يرسم للإنسانية النموذج الربّاني الأمثل.

فمن اللازم على المؤمن أن يجعل من الدعاء عاملاً مهمّاً في شحذ همّته وإقدامه على ما ينبغي له أن يقوم به من الطاعات، وما ينتهي عنه من المحرّمات، إذ الدعاء عامل دفع إلى عمل الخير من جانب، وعامل كبح للشهوات من جانب آخر.

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٦ / ٢١٠ ح ٦.

اللهُمَّ صَلّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ

وَاجْعَلْ لي يَداً عَلى مَنْ ظَلَمَني،

وَ لِسَاناً عَلى مَنْ خَاصَمَني، وَظَفَراً بِمَنْ عَانَدَني، وَ هَبْ لي

مَكْراً عَلى مَنْ كَايَدَني، وَقُدْرَةً عَلى مَن اضْطَهَدَني،

وَتَكْذيباً لِمَنْ قَصَبَني، وَسَلامَةً مِمَّنْ تَوَعَّدَني، وَ وَفِّقْني

لِطاعَةِ مَنْ سَدَّدَني وَمُتابَعَةِ مَنْ أرشَدَني.

- ☑ دفع الظلم والمخاصمة
- ☑ الظفر بالمعاندين
- ☑ المكر على الكائدين والقدرة على المضطهِدين
- ☑ تكذيب القاصبين والسلامة من المتوعّدين
- ☑ طاعة المسدّد ومتابعة المرشد

دفع الظلم والمخاصمة

يقول الإمام السجّاد سلام الله عليه: «اللهُمَّ صَلّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاجْعَلْ لي يَداً عَلى مَنْ ظَلَمَني، وَلِسَاناً عَلى مَنْ خَاصَمَني».

مقدّمة يحسن بيان الفرق بين الظلم والمخاصمة، ونذكر في المقام أمرين:

الأوّل: إنّ الظلم عادةً يكون من طرف واحد، أمّا المخاصمة فغالباً ما تكون من طرفين، ويجوز أن يخاصم الإنسان غيره من دون أن يعاديه.

الثاني: إذا كان الظلم صادراً من الطرفين لم يكن إذاً من موارد الدعاء، إذ لا معنى لأن يطلب أحد الظالمين من الله تعالى أن يهبه القدرة على الظالم الآخر؛ لأنّ الله تعالى لا يحبّ الظالمين.

وهذا المعنى غير متصوّر بالنسبة للإمام المعصوم الذي لا يرتكب ذنباً فكيف بالظلم وهو ذنب عظيم، فضلاً عن أن يطلب من الله تعالى مثل هذا الطلب، وهو يعلم أنّ الله تعالى لا ينصر ظالماً على ظالم بوسيلة

الدعاء[1]، بل إنّ كلا الظالمَين في النّـار، كمـا ورد: **القاتل والمقتول في النـار** وفي الحديث عن النبي صلّى الله عليه وآلـه: «... قيل: يا رسول الله هـذا القاتـل، فما بال المقتول؟ قال: **لأنّه أراد قتلاً**»[2].

بعد هذه المقدّمة نقول: إنّ الإمام سلام الله عليه طلـب مـن الله تعـالى أن يمنحه القوّة لدفع الظلم عنه — وهو ما يصدر عادةً من طرف واحد وهـو الظالم — وكنّى عن القوّة هنا باليـد، وحيـث إنّ المخاصـمة تكـون بـين طرفين يحاول كلّ منهما إفحام الآخر، فإنّ الإمام يطلب من الله تعالى في هذه الحالة أن يمنحه القوّة التي تجعله متفوّقاً على خصمه وهي قوّة الردّ التي عبّر عنها باللسان.

---

(١) صحيح أنّ الله تعالى قد يسلّط ظالماً على ظالم في بعض الموارد ليري الظالم ظلمه من خلال ظالمه، مصداقاً لقول رسول الله صلّى الله عليه وآله: **من أعان ظالماً سلّطه الله عليه**. الخرائج والجرائح: ٣/ ١٠٥٨. ولكن هذا لا يعني كرامة له من الله أو استجابة لدعائه بل يكون من قبيل قول الإمام الصادق عليه السلام: «**ما انتصر الله من ظالم إلاّ بظالم وذلك قول الله عزّ وجلّ: (وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضاً)** الكافي: ٢ / ٣٣٤ ح١٩ والآية ١٢٩ من سورة الأنعام.

(٢) الوسائل: ١١/ ١١٣ ح١ باب تحريم قتال المسلمين على غير سنّة- كتاب الجهاد.

الظفر بالمعاندين والمكر بالكائدين

ينبغي الالتفات بدءاً إلى نقطة مهمّة هي: أنّه ليس كلّ إنسان منحرف عن الحقّ يكون معانداً؛ إنّما المعاند هو الذي عرف الحقّ فزاغ عنه مصراً[2]. قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[1] الأمر الذي استوجب خلودهم في النار، كما نقرأ في دعاء أمير المؤمنين سلام الله عليه الذي رواه كميل رحمه الله: «وأن تخلّد فيها المعاندين».

إنّ كثيراً من المنحرفين عن منهج أهل البيت سلام الله عليهم قد غرّر بهم وغسلت أدمغتهم الدعايات المضلّلة والكاذبة لوعّاظ السلاطين ومن حذا حذوهم فمنعت أبصارهم من رؤية الحقّ، لذلك نسمع عن كثيرين منهم ما إن اطّلعوا على الحقيقة حتّى سارعوا إلى الأخذ بالهدى. وما أكثر القصص في هذا المجال والتي تنتهي بالمستبصر بترديد قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[2].

---

(١) النمل: ١٤.

(٢) روي أن رجلا من نسل عمر بن الخطاب كان يشتم علي بن أبي طالب عليه السلام إذا =

وما أكثر الذين بلغوا ـ من بين هؤلاء المستبصرين ـ مراحل عالية في الإيمان والقرب من الله تعالى، حتّى تفوّقوا على كثير من غيرهم، وأفضل مثال على ذلك بعض شهداء كربلاء[١] الذين يقف الملايين أمام قبورهم إجلالاً وإكراماً يفادونهم قائلين: «بأبي أنتم وأُمّي»، وما ذاك إلاّ لأنّهم لم يكونوا معاندين، وما إن انكشفت لهم الحقيقة حتّى مالوا إليها وساروا معها حتّى الشهادة، فاستحقّوا بها الفوز العظيم الذي حظي به سائر شهداء كربلاء.

أمّا المعاند فهو الذي لا يرضخ للحقّ رغم معرفته به؛ قال تعالى في وصف علماء اليهود المعاندين – الذين يعرفون الرسول صلّى الله عليه وآله ومع ذلك ينكرونه –: ﴿يَعْرِفُونَهُ كمَا يَعْرِفُونَ أبْنَاءَهُم﴾[٢].

= رأى موسى بن جعفر عليه السلام، ويؤذيه إذا لقيه. فقال له بعض مواليه وشيعته: دعنا نقتله، فقال: لا، ثمّ مضى راكباً حتى قصده في مزرعة له فوطأها بحماره، فصاح لا تدس زرعنا، فلم يصغ إليه، وأقبل حتى نزل عنده فجلس معه وجعل يضاحكه، وقال له: كم غرمت على زرعك هذا؟ قال: مائة درهم. قال: فكم ترجو أن تربح؟ قال: لا أدري. قال: إنّما سألتك كم ترجو؟ قال: مائة أخرى. قال: فأخرج ثلاثمائة دينار فوهبها له. فقام فقبّل رأسه، فلما دخل المسجد بعد ذلك وثب العمري فسلّم عليه وجعل يقول: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) الأنعام: ١٢٤. فوثب أصحابه عليه وقالوا: ما هذا؟ فشاتمهم، وكان بعد ذلك كلما دخل موسى خرج يسلّم عليه ويقوم له. فقال موسى لمن قال ذلك القول: أيّما كان خيراً، ما أردتم أو ما أردت؟ مقاتل الطالبيين:٣٣٢.

(١) مثل زهير بن القين، الذي ذُكر في كتب السير أنّه كان عثماني الهوى، أي من الذين يطالبون إمام الهدى علي بن أبي طالب بدم عثمان، غير أنّ التاريخ أثبت أنّه لم يكن معانداً للحقّ، وأنّ انحرافه لم يكن عن تقصير بل كان عن قصور. ومثله الحرّ بن يزيد الرياحي الذي كان في جيش يزيد ووقف أمامَ أبي عبد الله الحسين عليه السلام حتى أورده أرض كربلاء.

(٢) البقرة: ١٤٦.

أمام أشخاص كهؤلاء ـ ليسوا منحرفين فقط بل معاندين لا تجدي معهم الموعظة ـ يطلب الإمام السجّاد سلام الله عليه من الله تعالى أن يُظفره بهم وينصره عليهم؛ فيقول: «**وظفراً بمن عاندني**».

المكر على الكائدين

هاهنا أيضاً ثلاث نقاط ينبغي الالتفات إليها:

النقطة الأُولى: إنّ الإمام سلام الله عليه في الموارد التالية غيّر عبارة الطلب، فبعد أن كان طلبه في الموارد الثلاثة المتقدّمة بعبارة: «**اجعل لي**» عدل عنها إلى عبارة: «**هب لي**». ولعلّ هذا يعود للاختلاف في نوع المطلوب؛ لأنّ الأُمور الثلاثة السابقة كانت تحتاج إلى عمل خارجي، ولذلك عبّر عنها الإمام سلام الله عليه بقوله: «**اجعل لي**» أمّا هنا فإنّ المكر وما بعده يتطلّب الفهم والفكر، ولذلك قال الإمام سلام الله عليه: «**هب لي**».

النقطة الثانية: إنّ المكر يختلف في الاستعمال العرفي عن معناه اللغوي، فالمكر في اللغة يعني: التدبير على العدوّ، أي أنّ الماكر يُنزل المكروه بالممكور به من حيث لا يعلم، بمعنى تقدير ضرر الغير من غير أن يعلم به.

وهو غير الحيلة، التي تُستعمل في نفع الغير أيضاً.

ومكر الله ـ كما في قوله تعالى ـ : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1] عبارة عن إيصال الجزاء الى الماكر واستدراجه من دون أن

---

(١) آل عمران: ٥٤.

يعلم[1].

فنسبة المكر لله تعالى تأتي من باب الازدواج في الكلام كما في قوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾[2] فالأول عدوان والثاني ليس بعدوان ولكنّه سمّي به ليُعلم أنّه عقاب عليه وجزاء به[3].

من هذا نستخلص أنّ المكر الذي يطلبه الإمام سلام الله عليه من ربّه تعالى يتحدّد في استيهابه حسن التدبير في مواجهة الكائدين له حتى يسقطوا هُمْ في شرّ فعالهم فلا ينالوا سوى الخسران المبين.

النقطة الثالثة: صحيح أنّ من معاني المكر التدبير على العدوّ في محاولة إيقاعه في المشكلة، ويجوز في الحرب المكر والخدعة، كما روي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: أنّه قال: «الحرب خدعة»[4]، ولكن استعمال المكر والخدعة لا يعني اللجوء إلى الكذب والفتك، لأنّهما من سيّئ الأعمال، فإنّ الكذب من أعظم الكبائر، كما أن الإيمان «قيّد الفتك»[5].

فمثال الخدعة في الحرب أنّ الشخص يقوم بعمل من شأنه أن يوحي لخصمه بأمر ما وهو يَنوي خلافه، وقد يُحاول تضليل عدوّه قبل الحرب أو في أثنائها يبتغي بذلك تقليل الخسائر أو تعجيل النصر أو ما أشبه، التي يدعو إليها العقل ويحبّها الله تعالى، كما ورد من فعل النبي

---

(١) راجع الفروق اللغويّة: ٢٠٦ـ ٢٠٧ رقم ٨١٤ و ٨١٥ الفرق بين الحيلة والمكر.

(٢) البقرة: ١٩٤.

(٣) راجع لسان العرب: ٥/ ١٨٣ مادّة مكر.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٣٧٨ رقم ٥٧٩٤ من ألفاظ رسول الله صلى الله عليه وآله التي لم يسبق إليها.

(٥) أعلام الورى: ٢٢٥.

صلّى الله عليه وآله في كتب السير، أنّه سار قبل غزوة بدر في خلاف الجهة التي كان يتوقّعها الناس يريد صلّى الله عليه وآله بذلك تضليل العدو ولئلاّ يشعر به الجواسيس، فتبقى المبادرة بيده من دون ظلم أحد، ولكن لا يجوز أن يُمنح العدوّ الأمان ليسلّم نفسه فإذا سلّم نفسه بادروا لقتله غيلة أو صبراً؛ لأنّ هذا يعدّ فتكاً؛ والإسلام لا يرضى به.

أمّا مخادعة العدو يُراد ستر المذهب عنه، فهذا مطلوب على كلّ حال، كما روي عن الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّه قال: **«فاخزن لسانك كما تخزن ذهبك وورقك»**[1].

(١) مستدرك الوسائل: ٩/ ٢٤ رقم ٩.

القدرة على المضطهدين

يقول الإمام بعد ذلك: «وقدرة على من اضطهدني»، وقبل بيان المعنى العام لهذه الجملة ننوّه إلى أنّ كلمة «اضطهاد» مشتقّة من لفظة «ضهد» وهي في الأصل «اضتهاد» ثمّ أُبدلت تاؤها طاءً، لأنّها من المواضع التي تبدل فيها التاء إلى طاء ـ في اللغة العربية ـ تخلّصاً من الثقل وصعوبة التلفّظ بالتاء التي تأتي بعد الضاد في الكلمة[1].

والاضطهاد في اللغة هو ظلمٌ خاص، وهو الظلم الذي يقع على الإنسان بسبب عقيدته، ثمّ توسّع استعماله من باب المجاز فصار يشمل كلّ ظلم.

فكأنّ الإمام سلام الله عليه يقول: إلهي، هب لي القدرة على من يريد ظلمي بسبب عقيدتي وتوجّهاتي الحقّة، لئلاً يتمكّن من ذلك.

والملفت للانتباه هنا أنّ الإمام عندما طلب من الله تعالى العون مقابل الظلم قال: «اجعل لي يداً على من ظلمني» فاستعمل كلمة «يد» للتعبير عن القوّة والقدرة. ولكنّه هاهنا — في مقابل الاضطهاد، وهو الظلم الواقع على المرء بسبب العقيدة والمبدأ — استعمل لفظة القدرة نفسها، فقال: «وقدرة على من اضطهدني»، ولا شكّ أنّ وراء هذا الاختلاف تكمن معانٍ دقيقة، حريّ بأهل العلم الوقوف عندها والتأمّل فيها.

---

(١) قال ابن مالك في ألفيّته: طا، ت «افتعال» رُدّ إثر «مطبقٍ»

أي إذا جاء تاء الافتعال بعد حرف من حروف الإطباق كالضاد مثلاً، وجب إبداله طاءً. انظر شرح ابن عقيل: ٢ / ٥٨١ — ٥٨٢ في إبدال حرف التاء طا.

تكذيب القاصبين

يقول الإمام سلام الله عليه بعد ذلك: «وتكذيباً لمن قصبني» أي أعاب عليّ.

من الواضح أنّه لا يخلو أيّ إنسان[1] من عيب؛ لأنّ الله تعالى خلق الدنيا هكذا، لكي يمتحن بها العباد. فإذا كان الإنسان غنيّاً أُصيب بعيوب كالكبر والغرور والبخل وغير ذلك، وإن كان فقيراً ابتلي بالعيوب التي يسبّبها الفقر، وربما انتقصه بعض الناس بسبب الفقر نفسه وعدوّه عيباً فيه، وهكذا هو الإنسان في كلّ حالاته. وبما أنّ بعض الناس لا يكفّون ألسنتهم عن أحد، لذلك يطلب الإمام السجّاد سلام الله عليه من الله تعالى أن يهبه إمكانية تكذيب من يُعيّر وينتقص من غير حق.

السلامة من المتوعّدين

الوعد إمّا أن يكون في خير كما لو وعد الإنسان ابنه: إذا نجحتَ في الامتحان فسأعطيك جائزة، وإمّا أن يكون في الشرّ وهو الوعيد ومنه التوعّد، وهو الذي يطلب الإمام سلام الله عليه من الله تعالى أن يسلّمه منه.

---

(١) سوى أولئك الذين عصمهم الله وجعلهم حججاً على عباده.

عظة أخلاقية

لقد طلب الإمام سلام الله عليه في دعائه من الله تعالى أن يخلّصه من شرور الظالمين والمخاصمين والكائدين والمعاندين والمضطهدين والقاصبين والمتوعّدين، ولكن ينبغي أن نذكر أنّ هناك عدواً أعدى منهم كلّهم، ولو تمكّن هذا العدوّ من الإنسان ألحق به عذاباً لا يزول أبداً، وذلك العدو هو النفس الأمّارة بالسوء. أتدرون ماذا تصنع النفس بالإنسان إن هو مكّنها من عقله؟ سوف تقوده إلى نار سجّرها جبّارها لغضبه.

إنّ الله تعالى خلق الخلق ليرحمهم؛ فقال عزّ من قائل: ﴿إلاّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1] أي ليرحمهم، إلاّ أنّ الإنسان بتصرّفاته واتّباع هوى نفسه الأمّارة بالسوء يجلب غضب الله عزّوجلّ. فلابدّ إذا من التفكير بصورة جادّة لهذه المشكلة.

إنّ الدعاء جزء مهمّ من العلاج، غير أنّ الجزء الأهمّ فيه يتمثّل في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسانِ إلاّ مَا سَعَى﴾[2]. فلابدّ من الاستعانة بالرياضة الروحية المشروعة، فعن الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه: «**وإنّما هي نفسي أروّضها بالتقوى**»[3] وفي الحديث الشريف أيضاً: «**ليس منّا من لم يحاسب نفسه كلّ يوم ...**»[4].

وروي أنّه بينا موسى بن عمران عليه السلام يعظ أصحابه إذ قام رجل

---

(١) هود: ١١٩.

(٢) النجم: ٣٩.

(٣) نهج البلاغة: ٤١٦ من كتاب له سلام الله عليه إلى عثمان بن حنيف.

(٤) الكافي: ٢ / ٤٥٣.

فشقّ قميصه فأوحى الله عزّوجلّ إليـه: «ياموسى قل لـه: لا تشقّ قميصك ولكن اشرح لي من قلبك»[١].

فلنفكّر قليلاً من أجل ضبط ما قد يصدر من هذه النفس التي أودعها الله فينا ليختبرنا أندسّها أم نزكّيها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[٢] ويكون الناس بعد ذلك كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللّه﴾[٣]. فَرُبَّ أخوين عاشا معاً في محيط واحد ولكـن اختلفا فـي الدرجات اختلافاً شاسعاً. ومـن الأمثلـة علـى ذلـك: محمّـد بـن الفـرج الرخجي، وأخوه عمر الرخجي. فلقد كـان محمـد الرخجـي مـن أوثـق أصحاب الإمامين الجواد والهادي عليهما السلام، ولعله الآن في روضـة الخلـد مع الذين فيها يحبرون، بينما صار أخوه عمـر بـن الفـرج الرخجـي فـي حصب جهنّم مع الذين فيها يصطرخون، لأنّه كان من أشـدّ أعـداء أهـل البيت سلام الله عليهم. وقد تجد إنساناً آل أمره إلى أن يكون من أهل التابوت[٤] بينما ابنه في زمرة الأبرار المؤمنين. يقول أمير المؤمنين سلام الله عليه في حـقّ محمّد بن أبي بكر: محمّد ابني من صلب أبي بكر[٥].

---

(١) منتهى الآمال: ٢ / ٥٥٥.

(٢) الشمس: ١٠.

(٣) آل عمران: ١٦٣.

(٤) قال جابر بن عبد الله: قلت لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام... : يا مولاي، لمن تكلّم، ولمن تخاطب وليس أرى أحداً؟ فقال: يا جابر، كشف لي عن برهوت فرأيت شيبويه وحبتر وهما يعذّبان في جوف تابوت في برهوت، فناداني: يا أبا الحسن، يا أمير المؤمنين، ردّنا إلى الدنيا نقرّ بفضلك، ونقرّ بالولاية لك. فقلت: لا والله، لا فعلت، لا والله، لا كان ذلك أبداً، ثمّ قرأ قوله تعالى: ﴿ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنّهم لكاذبون﴾. بحار الأنوار: ٢٧/ ٣٠٦، ح ١١.

(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦ / ٥٣ رقم ٦٧ من كلام له سلام الله عليه لما قلّد محمد بن أبي بكر مصر.

لابدّ من ترويض النفس

إنّ النفس لا تتغيّر نحو الأفضل أو الأسوأ دفعةً واحدة، وإنما بالتدريج؛ فعن أميرالمؤمنين سلام الله عليه أنّه قال: «النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة حسن الأدب، والنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبد يجهد بردّها عن سوء المطالبة، فمتى أطلق عنانها فهو شريك في فسادها، ومن أعان نفسه في هوى نفسه فقد أشرك نفسه في قتل نفسه»[1]. ولذا شدّد على ترويض النفس حتى لا تتمادى في غيّها، فقال سلام الله عليه: «مَنْ لَمْ يَسُسْ نَفْسَهُ أضَاعَها»[2] أي كما تخدعكم خادعوها وجرّعوها الخير رويداً رويداً، ابتداءً بالأسهل فالأسهل وهكذا. فمثلاً لو لم يكن الشخص من أهل صلاة الليل فلا يفرض على نفسه أداءها بمستحبّاتها كلّها في أوّل الأمر، بل ليكتف بأقلّ ما تطاوعه به نفسه أولاً ثمّ يزيد شيئاً فشيئاً لئلاّ تفلت بعد ذلك؛ فإنّ من لم يرفق بمطيّته في السير، لا هو يصل إلى غايته ولا وسيلة تبقى له. عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[3]. فعلينا التدرّج بالنفس، والاستنارة بكلمات المعصومين سلام الله عليهم وسيرتهم لئلاّ تنعطف بنا أنفسنا فنزيغ.

ورد في رسالة الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه إلى واليه على البصرة عثمان بن حنيف: «ألا وإنّ لكلّ مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه... ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفّة

---

(١) محاسبة النفس: ١١.

(٢) غرر الحكم: ٢٣٩ رقم ٤٨٢٧ الإدبار عن نفسك الأمّارة بالسوء.

(٣) منية المريد: ٢٠٠ رقم ١٧ إيصاء الطالب بالرفق.

وسداد»[١]. فلنحاول الاقتداء بأئمّتنا ما أمكننا ذلك، وإن عجزت أنفسنا عن بلوغ ما هم عليه صلوات الله عليهم فلا يبقى لنا سوى الورع والإجتهاد والعفّة والسداد، عسى أن نفوز بمرضاة الله تعالى.

روي عن أبي جعفر الباقر سلام الله عليه أنّ امرأة ادّعت على أبيه (علي بن الحسين سلام الله عليهما) عند والي المدينة أنّ لها عليه أربعمائة دينار. فقال الوالي: ألك بيّنة؟ قالت: لا ولكن خذ يمينه. فقال والي المدينة يا علي، إمّا أن تحلف وإمّا أن تعطيها. فقال لي: يا بنيّ قم فأعطها أربعمئة دينار. فقلت: يا أبه جعلت فداك، ألست محقّاً؟ فقال: بلى يابنيّ، ولكنّي أُجلّ الله تعالى أن أحلف به يمين صبر[٢].

علينا أن نقتدي بالأئمّة سلام الله عليهم ونتّخذ سبيل التسامح والعفو ونغفر لإخواننا ونعذرهم؛ فإنّ بروز المشكلات بين الإخوة والمتعاشرين كالأرحام والزملاء والزوجين والأساتذة والتلاميذ والأصدقاء أمر طبيعي يولّده القرب والاحتكاك؛ فلذا لا ينبغي تضخيمها بل ينبغي التسامح بشأنها، واللازم الاقتداء بأئمّتنا الذين كانوا المثل الأعلى في الأخلاق الفاضلة، ولا يتأتّى هذا كلّه إلاّ بالترويض والتدرّج مع النفس كما قلنا.

كما ينبغي لنا أن ننتهز كلّ الفرص والمناسبات التي منّ الله تعالى بها علينا، مثل شهر رمضان المبارك، والأيّام التي نحن مقبلون عليها من أيّام شهر ذي الحجّة الحرام[٣] لاسيّما العشر الأُول منه، ففي الحديث عن النبي

---

(١) نهج البلاغة: ٤١٦ ـ ٤٢٠ رقم ٤٥.

(٢) الكافي: ٧ / ٤٣٥.

(٣) الأشهر الحرم: ذو القعدة، ذو الحجة، محرّم، ورجب.

صلّى الله عليه وآله: «ما من أيّام العمل الصالح فيها أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من أيّام العشر».[1] والتي تكرّر ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَيَّامٌ مَعْلُومَاتٌ﴾[2] و ﴿أَيَّامٌ مَعْدُودَاتٌ﴾[3]. فهذه الفرص نادرة فلنغتنمها ونأخذ بزمام أنفسنا بأيّة نسبة استطعنا.

فلنتأمّل في هذه العبائر من دعاء الإمام ونتصوّر أنّ مصاديقها الأجلى هي نفس الإنسان، ولنطلب من الله تعالى أن يهبنا القدرة على أنفسنا لكي نوفّق ونكون من الذين اتّخذوا طريق التدرّج في الصعود والرقيّ بلوغاً إلى أعلى الدرجات ببركة محمّد وآله الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الفرق بين الطاعة والمتابعة

صحيح أنّه يمكن التوسّع في هاتين الكلمتين وأشباههما في استعمال إحداها مكان الأخرى مجازاً، مثل جعل كلمة الطاعة مكان المتابعة أو العكس، وكذا بالنسبة للتسديد والإرشاد؛ ولكن إذا أخذنا بنظر الاعتبار مجيء هذه الكلمات معاً في سياق واحد فإنّ الدقّة تقتضي اختلاف معانيها، خاصّة وأنّ الأئمّة الأطهار سلام الله عليهم هم أُمراء الكلام وأسياد البلاغة وأرومة الفصاحة، وما يسردونه من نظم كلامهم لابدّ وأن يكون موافقاً لفصيح الكلام وفنونه. ومن يراجع كتب اللغة يجد فرقاً واضحاً في استعمال هذه الكلمات وفق معانيها.

---

(١) يعني: عشر ذي الحجّة. إقبال الأعمال: ٣١٧.

(٢) الحج: ٢٨.

(٣) البقرة: ٢٠٣.

فمن موارد الطاعة إستعمالها في الامتثال بلا تأمّل، والعكس صحيح، فالامتثال دون تأمّل يعني الطاعة بعينها، أمّا المتابعة فتعني دوام الامتثـال. في الحديث المرويّ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه قـال: «إذا رأيت شحّاً مطاعاً وهـوىً متّبعاً، وإعجاب كلّ ذي رأي برأيه فعليك بنفسك ودع عنك أمر العامّة»[1].

الفرق بين السداد والرشد

أمّا الفرق بين السداد والرشد فالظاهر من الرجوع إلى كتب اللغـة أنّ السداد يعني التوجيه نحو الصواب كما في دعاء الافتتـاح للإمـام الحجّـة بن الحسن عجّل الله تعالى فرجه: **وأنت مسدّد للصواب بمنّك.**

إذاً فالمراد من المسدّد في دعاء الإمام زيـن العابـدين سلام الله عليه هـو الدالّ على الصواب الذي لا يعاب عليه.

أمّا الرشد فهو الأمر الذي لا زيغ فيه ولا غواية، وهو أقرب إلى الحقّ منه إلى الهداية، لأنّ الهدى بيان طريق الرشد ليسلك دون طريـق الغـي. هذا إذا أُطلق. فإذا قيّد استعمل في غيره[2]؛ كما في قولـه تعـالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ. كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[3]. فإنّ أصحاب الأفكار الباطلة يهدون إلى الباطل، أمّا الرشد فلا يستعمل إلاّ في الموارد التي تنعدم فيها نسبة الزيغ والغوى. ولذا فمتابعة

---

(١) مصباح الشريعة الإمام الصادق سلام الله عليه: ١٩

(٢) الفروق اللغوية: ١٠٩ ، رقم ٤٢٩ .

(٣) الحج: ٣ـ ٤.

المرشد هو سبيل نحو الصلاح والرشد والصواب، وحقّ من يعمل عليه أن ينجو، وحقّ من يعمل على خلافه أن يهلك.

إنّ الإمام يطلب من الله تعالى أن يجعله مطيعاً لمن يسدّده لا يناقشه فيما يصوّبه اليه، متابعاً لمن يرشده لا يعصيه فيما يدلّه عليه، مثله كمثل طاعة المريض للطبيب الثقة الحاذق فيما إذا أشار عليه بتناول الدواء أو اجتناب بعض الأُمور لأنّه مطمئنّ إلى أنّه إنّما يسدّده إلى ما ينفعه، ويرشده لما يصلحه.

والملفت للنظر هنا أنّ الإمام سلام الله عليه لم يستعمل صيغة المضارع في الجملتين بل استعمل صيغة الماضي فقال: «طاعة من سدّدني ومتابعة من أرشدني». ولا شكّ أنّ وراء ذلك نكتة خاصّة تتلخّص في أن يوفّقه لامتثال أمر المسدّد والمرشد سواء عرف المصلحة فيما يأمرانه أم لا.

وإنّ المصداق الحقيقي والواقعي لهذه الجملة. هم أهل البيت سلام الله عليهم. فلا يوجد أحد على مرّ التاريخ تبع أهل البيت ثمّ ضلّ بل لا يوجد أحد تبع أهل البيت سلام الله عليهم ولم يتبيّن له وجه الحقّ. إنّهم صلوات الله عليهم يرشدوننا إلى الصواب ويسدّدوننا لما فيه الصلاح.

اللهُمَّ صَلِّ عَلى مُحمَّدٍ وَآلِه، وَحَلِّني بِحِلْيَةِ الصّالِحِينَ، وَأَلْبِسْني زِينَةَ المتَّقِينَ في بَسْطِ الْعَدْلِ، وَكَظْمِ الْغَيْظِ، وَإطْفَاءِ النَّائِرَة، وَضَمِّ أَهْلِ الْفُرْقَةِ، وَإصْلاحِ ذاتِ الْبَينِ، وَإفْشاءِ العَارِفَةِ، وَسَترِ العَائِبَةِ، وَلِينِ العَرِيكَةِ، وَخَفْضِ الجَناحِ، وَحُسْنِ السِّيرَةِ، وَسُكُون الرِّيحِ وَطِيبِ المُخالقَةِ، وَالسَّبْقِ إلى الْفَضِيلَةِ، وَقَوْلِ الحَقِّ وَإنْ عَزَّ، وَاسْتِقْلالِ الخَيرِ؛ وَإنْ كَثُرَ مِنْ قَوْلي وَفِعْلي، وَاسْتِكْثارِ الشَّرِ؛ وَإنْ قَلَّ مِنْ قَوْلي وَفِعْلي، وَأَكْمِلْ ذلكَ لي بِدَوامِ الطَّاعَةِ...

☑ بسط العدل، وكظم الغيظ، وإطفاء النائرة

☑ ضمّ أهل الفُرقة، وإصلاح ذات البين

☑ إفشاء العارفة، وستر العائبة، ولين العريكة

☑ خفض الجناح، وحسن السيرة

☑ طيب المخالقة، والسبق إلى الفضيلة

☑ وقول الحق وإن عَزَّ

☑ واستقلال الخير من الذات، واستكثار الشر؛ وإن قل

☑ دوام الطاعة

بَسْط العَدْل، وَكَظْم الغَيْظ، وإطْفاء النَّائِرَة

قد يحسّ الإنسان بحاجته واضطراره بعمق وشدّة، فيكون طلبه حين يدعو الله تعالى طلباً حقيقياً ويدعوه من أعماقه، وقد لا يحسّ بهما بمثل تلك الشدّة، فيكون طلبه حينئذ طلباً عاديّاً، أي ليس صادراً من الأعماق.

فالمبتلى بمرض خطير أو ألم شديد مثلاً إذا دعا الله تعالى وطلب منه الشفاء، يكون دعاؤه بكلّ وجوده لأنّه يحسّ بالاحتياج، وكذلك الذي يعاني من تثاقل الديون عليه أو زحمة الهموم، فهذا أيضاً عندما يدعو الله تعالى ويلتمس منه الخلاص في قضاء ديونه وإجلاء همّه فإنّما يدعو عن إحساس بالاحتياج فيكون دعاؤه حقيقياً، لصدوره من أعماقه.

فلو فرضنا شخصين كلّ منهما مدين لغيره بالمال، ولكن المدين الأوّل لم يواجه من دائنه أيّ ضغط عليه، بخلاف الثاني، حيث دائنه يهدّده إن لم يسدّد المبلغ حتّى غد، وربما يضطرّه لأن يرفع ضدّه شكوى تؤدّي به إلى السجن، فكلا الشخصين يدعو ويقول: «اللهم اقضِ عنّي الدّين». ولكن دعاء الثاني أعمق لأنّه يصدر عن الإحساس بالحاجة أكثر ولا حيلة له في قضائها إلاّ عن طريق الدعاء، فيلحّ في الدعاء

والطلب.

والإلحاح في الطلب من أسباب استجابة الدعاء، كما أنّ المستفاد من الروايات بل صريح بعضها أنّه كلّما كان الدعاء صادراً من أعماق القلب كان أقرب إلى الإجابة[1]. فلنحاول أن نروّض أنفسنا إذاً على حالة الإحساس بالاحتياج دائماً؛ ليكون دعاؤنا صادراً من أعماق القلب، فيكون أقرب إلى الإجابة.

حلية الصالحين وزينة المتّقين

يقول الإمام: «**وحلّني بحلية الصالحين وألبسني زينة المتّقين**».

الحلية كلّ ما يُتحلّى به لإظهار جمال الشيء، فما هي حلية الصالحين؟ وما هو لباس المتّقين؟ لاشكّ أنّه لا يراد به ما يستر البدن، بل المقصود من لباس المتّقين التقوى نفسها. وكما أنّ اللباس المادّي يستر البدن ويغطّي عيوبه، فإنّ لباس المتّقين يستر الشهوات والقبائح في نفس الإنسان والتي تمثّل مركز المشكلات له. إنّ المتّقي إنسان كبقية الناس له شهوات، إلا أنّه يعيش في عملية تجاذب دائم بينها وبين عقله، بيد أنّ غيره تكون شهواته وقبائحه ظاهرة، والسوء باد في عينيه وعلى لسانه وعمله، أمّا المتّقي فشهواته وسوءاته مستورة، قد سترها بلباس متين ورصين ليس رثّاً ولا وسخاً ولا ممزّقاً بل كلّه زينة وتقوى.

ولعلّ الإمام سلام الله عليه أشار إلى هذا المعنى توافقاً لما جاء في القرآن

---

(١) فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **إنّ لله عزّ وجلّ لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه، فإذا دعوت فأقبل بقلبك، ثمّ استيقن بالإجابة**. الكافي: ٢ / ٤٧٣ ح١، باب الإقبال على الدعاء.

الكريم من قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾[1].

ثمّ يستطرد الإمام سلام الله عليه لبيان مفردات حلية الصالحين وزينة المتّقين فيعدّد مجموعة من الصفات، كلّ منها ينطوي على عالم من المعاني التي لا يستوعبها أمثالنا إلاّ بمقدار، الأمر الذي يحتّم على أهل العلم المتابعة والتأمّل والتدقيق في ما تنطوي عليه هذه الكلمات السامية. وأوّل طرق التدقيق هذه تكمن في تتبّع آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والتدبّر فيها، بحثاً عن الموارد التي استعملت فيها لتكون الاستفادة أعمق.

بسط العدل

البسط في اللغة مقابل القبض؛ قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾[2].

روي عن الإمام الصادق سلام الله عليه أنّه سئل عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ففتح كفّه وفرّج بين أصابعه وقال: «لا تفعل هكذا». ثمّ ضمّ أصابعه بعضها إلى بعض وقال: «**بل اجعلها هكذا، فلا تقبض أصابعك إلى كفّك حتّى لا يخرج منها شيء ولا تفتح كفّيك وتفرج بين أصابعك حتّى لا يبقى لك فيها شيء، فلا إفراط ولا تفريط، بل حدّ وسط، فما وقع من كفّك أو خرج فدعه يخرج، وما بقي فيه فدعه يبقى لك**

---

(١) الأعراف: ٢٦.

(٢) الإسراء: ٢٩. وهذا تعبير أدبيّ رفيع فيه إشارة إلى أنّ عنق الإنسان مساوٍ لحياته ـ كما جاء أيضاً في قوله تعالى: ﴿فكّ رقبة﴾ (البلد: ١٣) والمقصود تحرير إنسان ـ فكأنّ البخيل عندما يريد أن ينفق كمن يراد قطع عنقه، وهذا يعني أنّ البخيل يجعل المال كلّ حياته.

ولا تفرّط به»[١].

وهذا يعني أنّ الشارع قد نهى في الإنفاق الماديّ عن كلّ البسط في بعض الموارد التي يتعقّبها ضرر وإخلال، ولذلك عدّه من التفريط، بينما في الفضائل والقيم حسّن الشارع كلّ أنواع البسط ومدحها، ولذلك نرى الإمام هنا مع البسط كلّ البسط، فقال: «**في بسط العدل**». أي مطلقاً؛ لأنّ العدل ليس فيه إفراط بل كلّه ممدوح مأجور فعله، ومن ثمّ فعلى الإنسان أن يسعى لبسط العدل ونشره مهما وسعه.

والعدل يعني وضع الشيء في موضعه، فالله سبحانه وتعالى قد سنّ العدل في الأمور التكوينية والتشريعية على حدّ سواء، وما من شيء قد قام في السماوات والأرضين إلاّ بعدل بارئه سبحانه وتعالى.

إنّ العدل قائم في الأمور التكوينية كلّها، ففي الحديث: «بالعدل قامت السماوات والأرض»[٢]. فهذه الشمس الهائلة والأرض والنجوم والوجود كلّه يجري بتمام العدل، فلا إفراط ولا تفريط ولو بمقدار أنملة واحدة، وهكذا الأمر لو نظرنا الى أبداننا نجد ملايين الخلايا كلّها تسير بالعدل. ومعروف في الطبّ القديم والحديث أنّ الإنسان إذا كان متوازن المزاج لا يمرض؛ لمتانة القوّة الدفاعية فيه، وعدم المقتضي لإصابته بمرض. علاوة على ما تقدّم فإنّ في العدل تتجلّى زينة المتقين بأبهى صورها؛ لذلك عُدّ من مفرداتها.

---

(١) تفسير العياشي: ٢/ ٢٨٩ ـ مورد الآية ـ

عن ابن سنان عن أبي عبد الله سلام الله عليه في قوله تعالى: **﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾** قال: فضمّ يده وقال: هكذا، فقال: **﴿ولا تبسطها كلّ البسط﴾** وبسط راحته وقال: هكذا.

(٢) عوالي اللآلي: ٤/ ١٠٣.

فعلى المؤمنين أن يبسطوا العدل، وأن يبدأوا بأنفسهم حتى يصلوا بعدلهم إلى من سواهم قولاً وعملاً. روي عن الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّه قال: «سياسة العدل ثلاث: رقّة في حزم، واستقصاء في عدل، وإفضال في قصد»[1]. وفي حديث آخر: «العدل أساس به قوام العالم»[2]. أمّا إذا جانب المؤمن العدل وصار فعله لا يطابق قوله، فأوّل من يزهد فيه أهله خصوصاً إذا كان من أهل العلم، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أزهد الناس في العالِم بنوه ثمّ قرابته»[3]. طبعاً المراد من العالم هذا غير ما نحن فيه، إلاّ أنّ الشاهد في كلمة الزهد خاصة. لهذا ترى أهل البيت سلام الله عليهم قد اعتنوا أبلغ العناية في بسط العدل من خلال مطابقة الأعمال للأقوال، فتجد من كان قريباً منهم مشدوداً في السعي نحو ما يرشدون إليه؛ لما يرى من صدقهم ومطابقة سيرتهم العملية والقولية ووفرة سعيهم لله تعالى.

كظم الغيظ وحدوده

ومن مفردات حلية الصالحين وزينة المتّقين أيضاً كظم الغيظ، ففي النفس شهوات لها ألسنة من لهب تستعر نيرانها بمجرّد أن تثار بأدنى إثارة. فلو قال شخص لغير المتّقي كلمات وظنّها لا تناسبه فإنّ أثر الغيظ وألسنة نار الغضب تظهر على وجهه ولسانه وتصرّفاته، أمّا المتّقي فيستر غيظه ويكظمه بلباس التقوى.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٢٨٤.

(٢) بحار الأنوار: ٧٥/ ٨٣ ح٨٧.

(٣) دعائم الإسلام: ١/ ٨٢.

إذا قيل لزيد من الناس: لِمَ لَم تكظم غيظك؟ يقول: لكلّ شيء حدود، فكم أصبر، وإلى متى أكظم غيظي؟

صحيح أنّ لكلّ شيء حدوداً، ولكن من الذي يعيّن الحدود؟ هل نحن الذين نعيّن الحدود وفق ما تمليه علينا غرائزنا، فنضيّقها ونوسّعها كيفما نشاء، أم الأئمّة المعصومون عليهم السلام؟

أليس الإمام السجّاد إمامنا؟ أوليس المفترض أن يقتدي كلّ مأموم بإمامه؟ إذاً فلنصمّم على أن نقتدي به ونتعلّم منه حدود كظم الغيظ من خلال سيرته سلام الله عليه لكيلا نقع في المحذور.

روي : إنّ قوماً كانوا عند علي بن الحسين عليهما السلام فاستعجل خادماً بشواء في التنور، فأقبل به مسرعاً، فسقط السفود[1] من يده على ولدٍ للإمام فأصاب رأسه فقتله، فوثب علي بن الحسين عليه السلام، فلما رأى ابنه ميتاً، قال للغلام: «أنت حرّ لوجه الله تعالى، أما إنّك لم تتعمّده». ثمّ أخذ في جهاز ابنه[2].

حقّاً، ما أسعد الناس لو ولي حكمهم هؤلاء الأطهار، وكم كانوا سيتعلّمون منهم.

أوليست هذه القصّة أعظم من جبال الدنيا ذهباً، لأنّ جبل الذهب ينفد ويفنى أمّا مضامين هذه القصّة ودورها في بناء الذات فلا تنفد ولا تفنى.

---

(١) السفود: حديدتان يوضع بينهما اللحم ويسدّان من أسفلهما ثمّ يوضعان في التنور لكي يستوي اللحم ويشوى.

(٢) مسكّن الفؤاد: ٦١.

ولننظر إلى أنفسنا ونتفحّصها هل نحن مقتدون بهم سلام الله عليهم؟ أو نقول: إلى متى نكظم غيظنا؟ ونحن مختلفون مع بعضنا على مبلغ من المال أو على مشكلة صغيرة أو شيء تافه.

إنّ هذه السفاسف التي يختلف عليها الناس غالباً لا سوق لها في حوزة الأتقياء من أهل الآخرة بل لا اعتبار لها عندهم، ولنعلم أنّ من لا يكظم غيظه تتحطّم أعصابه ويسوء خلقه أكثر من غيره ممّن يكظم غيظه، فيخسر بذلك ثواب الدنيا والآخرة، أمّا كظم الغيظ ففيه ربح الدنيا والآخرة وهو أمر ممكن وإن كان لا يخلو من صعوبة.

إطفاء النائرة

العداء نقيض الولاء وقد يكون في الباطل أو الحقّ، والذي عناه الإمام في دعائه هو عداء الباطل، فإنّ غير المتّقي إذا عاداه أحد، فلا يخلو أن يكون هذا العداء إمّا باطلاً أو حقّاً، فتراه إمّا أن يردّ العداء بمثله، وإمّا أن يسكت في أحسن الأحوال. أمّا المتّقي -الذي يرسم الإمام السجّاد سلام الله عليه لنا صورته - فهو لا يكتفي بالسكوت على من اعتدى عليه، بل يحاول إرضاءه، لأنّه يسعى جاهداً أن لا يدخل شخص مسلم بسببه النار، فيحاول إطفاء نائرته مسارعاً بإسداء الخير إليه.

روي عن محمد بن جعفر وغيره، أنّه قال: وقف على الإمام عليّ بن الحسين سلام الله عليهما رجل من أهل بيته فأسمعه وشتمه، فلم يكلّمه، فلما انصرف قال لجلسائه: «قد سمعتم ما قال هذا الرجل، وأنا أحبّ أن تبلغوا معي إليه حتى تسمعوا ردّي عليه».

قال: فقالوا له: نفعل، ولقد كنا نحبّ أن تقول له ونقول.

قال: فأخذ نعليه ومشى وهو يقول: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] فعلمنا أنّه لا يقول له شيئاً.

قال: فخرج حتى أتى منزل الرجل فصرخ به. فقال: قولوا له: «هذا عليّ بن الحسين».

قال: فخرج إلينا متوثّباً للشرّ وهو لا يشكّ أنّه إنّما جاءه مكافئاً له على بعض ما كان منه. فقال له علي بن الحسين عليهما السلام: «يا أخي إنّك كنت قد وقفت عليّ آنفاً فقلت وقلت، فإن كنتَ قلتَ ما فيَّ فأستغفرُ اللّه منه، وإن كنتَ قلتَ ما ليس فيَّ فغفر اللّهُ لك».

قال: فقبّل الرجل ما بين عينيه، وقال: بل قلتُ فيك ما ليس فيك، وأنا أحقّ به[2]!

فهل هذا التصرّف من قِبل الإمام أفضل أم ردّه بمثل باطله أو معالجة الأمر من خلال السكوت عليه؟ خصوصاً وأنّ تركه دون الأخذ بيده يبقيه على ما هو عليه حتى يموت ناصبياً ويدخل نار جهنّم.

لا تقل وما شأني به فليدخل جهنّم، فهذا لا يعدّ اقتداءً بالإمام عليه السلام.

إذاً فلنسأل الله تعالى أن يثبّتنا على الاقتداء بمن اصطفاهم على خلقه محمّد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين ونسأله أن يلبسنا زينة المتّقين، فندعو ونعمل ونطبّق ونبدأ بأنفسنا أوّلاً.

---

(١) آل عمران: ١٣٤.

(٢) الإرشاد: ١٤٥، باب ذكر طرف من أخبار علي بن الحسين عليهما السلام.

ضمّ أهل الفُرْقة، وإصْلاح ذات البَين

الفرقة تعني الانفصال، فالناس إذا كانوا مجتمعين على أمر فلا توجد فرقة فيما بينهم، أمّا إذا اعتزل بعضهم بعضاً وصار بعضهم منفصلاً عن بعض فهذا يعني حدوث فرقة بينهم.

ويطلق أهل الفرقة على من ديدنه الافتراق، أمّا من حليته الصلاح وزينته التقوى فإنّه يحاول أن يجمع ويضمّ إليه جميع أهل الفرقة حتى يعيدهم إلى صفّ الحقّ، والإمام سلام الله عليه يطلب من الله تعالى ويعلّمنا بدوره أن نطلب منه سبحانه الإعانة في هذا الأمر وهو ضمّ أُولئك الذين يفصلون أنفسهم عن الآخرين متّبعين أهواءهم. هذه الخصلة الأولى.

أمّا الخصلة الثانية التي يطلبها الإمام فهي إصلاح ذات البين، فممّا يعنيه البين هو الصلة والحال التي عليها أفراد المجتمع، وهو نقيض الفرقة. فإصلاح ذات البين يعني: صيانة الألفة والمحبّة من خلال إدامتهما ومعالجة أيّ شرخ ممكن حدوثه قبل اتّساعه مهما كان حجمه سواء بين الإخوة، أو الزوج والزوجة، أو الأصدقاء، أو بين الأُستاذ وتلميذه، أو الأب وابنه أو غير ذلك.

أمّا الذات ففسّرت بالحقيقة. فالمعنى إصلاح حقيقة البين. وقال بعض الأُدباء: إنّ «ذات» كلمة زائدة ككثير من الكلمات التي تزاد في التعابير اللغوية، خاصّة في اللغة العربية لغرض التأكيد وغيره.

هل هما خصلتان أم خصلة واحدة؟

وهل تعود هاتان الجملتان إلى خصلة واحدة؟

يقول اللغويون وبتبعهم الأصوليّون: إنّ الأصل في الواو هو المغايرةُ، إلا إذا كانت هناك قرينة على وحدة الأمرين. فمثلاً: لو قيل: جاء زيد وأبو عمر، فالمتبادر للذهن أنّ شخصين جاءا، وليس المقصود أنّ الجائي واحد وهو زيد الذي كنيته أبو عمرو. نعم قد تأتي الواو لبيان المعطوف عليه نفسه بتعبير آخر، ولكن الأمر بحاجة إلى قرينة.

إذاً يقتضي أن يكون «ضمّ أهل الفرقة» و «إصلاح ذات البين» أمرين متغايرين، ولكن هذا لا يمنع أن يكون بينهما عموم وخصوص من وجه، لكن بعض العلماء قالوا: إنّ «ضمّ أهل الفرقة» يتناول الدائرة الواسعة أي المجتمع، أمّا «إصلاح ذات البين» فالمقصود به الدائرة الأصغر وهي الأُسرة والعشيرة والأقرباء، وهذا له وجه لا بأس به في نفسه، وقد يستوحى ذلك من كلمة «فرقة» و «بين».

وعلى كلّ حال، فإنّ من الأُمور التي ينبغي للإنسان المؤمن أن يعنى بها في المجتمع، أي على الصعيد العامّ والواسع، أن يكون ديدنه الحيلولة دون حدوث الفرقة والاختلاف، كما عليه أن يسعى أيضاً من أجل الإصلاح على صعيد العلاقات الاجتماعية الصغرى كالعلاقات بين الإخوة والأقارب والزملاء، فهاتان الخصلتان ـ ضمّ أهل الفرقة، وإصلاح ذات البين ـ تعدّان من حلية الصالحين وزينة المتّقين.

ضمّ بالحق وتفريق الباطل

هنا قد يتبادر إلى الذهن سؤال، وهو: هل الإمام السجّاد سلام الله عليه يدعو للاجتماع وعدم الفرقة دائماً من دون نظر إلى الحقّ والباطل؟ حاشا أن يكون الإمام يريد ذلك؛ لأنّ الإمام السجّاد عدل القرآن، والقرآن يقول: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾[1] وهذا معناه أنّ الناس كانوا مجتمعين على الضلال والباطل، فبعث الله تعالى الرسل ليمزّقوا وحدة الباطل فيهم ببيّنات الوحي والتنزيل. أجل، الوحدة من الفضائل ولكن إذا كانت في إطار الحقّ والفضيلة لا في إطار الباطل والرذيلة.

ثمّة عبارة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام بحقّ أهل الشام يجدر الوقوف عندها - كما هو الحال مع كلّ كلمات المعصومين سلام الله عليهم - يقول مخاطباً فيها أهل العراق: «... **والله لقد خشيت أن يدال هؤلاء القوم - يعني أهل الشام - عليكم، بإصلاحهم في أرضهم، وفسادكم في أرضكم، وأدائهم الأمانة لمعاوية، وخيانتكم، وبطاعتهم له، ومعصيتكم لي، واجتماعهم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقّكم...**»[2]. فلا يقال للإمام سلام الله عليه ما دام الاجتماع أمراً حسناً فلماذا يلامون عليه؟ فالاجتماع في نفسه مطلوب، إلاّ أنّه ينبغي أن تكون الغاية حقّة. والتوجّه للباطل إذا كان من فرد واحد فهو ضلالة واحدة، فإذا اتّجه اثنان إلى الباطل فهذه ضلالتان، وهكذا كلّما زيد اجتماع أهل الباطل زاد عدد الضالّين، فأين هو الحسن

---

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) الغارات: ٢ / ٤٨٧.

فيه. فضمّ أهل الفرقة ممدوح ومطلوب إذا كان إلى جهة الحقّ، لأنّ الاجتماع على الحقّ ضروريّ، ولو حاد فرد واحد عنه فعلى المؤمن أن يسعى لإرجاعه وضمّه ثانية.

ولنمثّل بمثال في هذا المجال من سيرة أهل البيت سلام الله عليهم حيث يروى أنّ هناك رسالة مهمّة من الإمام السجّاد سلام الله عليه بعث بها إلى الزهري[1] مرويّة في كتب الخاصّة والعامّة[2]، يقول الإمام عليه السلام فيها: «وأن

---

(١) هو من علماء العامّة المعروفين ومن التابعين، وكان ممّن يحضر عند الإمام السجّاد سلام الله عليه.

يجلّه العامّة كثيراً ويذكرونه بعبارات المدح والإطراء، فيقولون مثلاً: لقي من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله كذا، وروى عنهم الحديث، ويقولون: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق: أنّه لا يوجد من هو أعلم من الزهري، ومن كان طالباً للدين فليأخذه من الزهري و... .

أمّا نحن الإمامية فرأيُنا فيه مختلف، ونعتقد أنّ حضوره عند الإمام السجّاد سلام الله عليه كان من أجل العلم فقط - لا العمل - كما تنبئ عن ذلك سيرته، وفي الحديث: «**من إزداد علماً ولم يزدد هدىً، لم يزدد من الله إلاّ بعداً**» (مجموعة ورّام: ١/ ٢٢٠ باب ما جاء في أهل العلم المغترّين)، وروي عن أبي عبد الله سلام الله عليه أنّه قال: «**يُغفَر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد**» (الكافي: ١/ ٤٧ ح١ باب لزوم الحجّة على العالم). فقد روى أصحابنا أنّ الزهري هذا كان ملازماً لقصر عبد الملك بن مروان وبني مروان عشرات السنين، وأنّه كان يذمّ أمير المؤمنين عليه السلام!

وإذا كان الجهلة يُعذَرون في ذلك، فإنّ الزهري العالم لا يعذر البتّة، وليس اشتغاله بتعليم وتأديب أبناء حكّام الجور بنافع له - فقد ذكروا أنّه كان معلّماً لأولادهم وأنّه كان يعلّمهم أحكام الصوم والصلاة - لأنّه كان يصبّ في تقوية حكم الظالمين.

(٢) فمن كتب الخاصّة «بحار الأنوار» نقلاً عن «تحف العقول»، كما رواها عدّة من محدّثي العامّة في كتبهم. وهي رسالة مهمّة جداً تستحقّ تأليف كتاب في شرح كلّ كلمة منها. رواها العامّة لأهميّتها فلم يشأوا أن تخلو كتبهم من رسالة بهذه الأهميّة، ولكنّهم مع الأسف لم يذكروا أنّها من الإمام السجّاد عليه السلام بل قالوا: كتب إليه بعض الصالحين، أو أخ في الدين، وابن عساكر يروي أنّها لأبي حازم الأعرج. وأبو حازم الأعرج هو من موالي أمير المؤمنين سلام الله عليه وصحابيّ جليل من أصحاب الإمام السجاد عليه السلام، وفوق هذا فإنّه الثقة الصالح على ما في كتبهم لترجمته.

تُسأل عما أخذت بإعانتك على ظلم الظَّلَمَة... جعلوك قطباً أداروا بك رحى مظالمهم وجسراً يعبرون عليك الى بلاياهم»[١]. فعمل الإمام هنا في الحقيقة ضمٌّ لأهل الفرقة، وإن كان في ظاهره تفريقاً ومنعاً عن الانضمام؛ لأنّه تفريق للباطل ومنع عن الانضمام إليه.

ولنا في الإمام الحسين سلام الله عليه مثل آخر، فإنّ علماء السوء قالوا عنه إنّه شقّ عصا المسلمين، لأنّ يزيد كان حاكماً مسلماً وكان المسلمون يمارسون حياتهم وطقوسهم الدينية ولا وجود لخلاف فيما بينهم ولكن الحسين سلام الله عليه ـ بزعمهم ـ هو الذي أوجد الخلاف!! ونقول: إنّ هذا الخلاف والافتراق الذي أوجده الإمام الحسين سلام الله عليه هو من أهمّ الواجبات ـ بل كان أهمّ الواجبات في زمانه سلام الله عليه ـ فإنّ الافتراق عن حكومة الحقّ ـ كحكومة الإمام أمير المؤمنين والإمام الحسن سلام الله عليهما ـ هو الضلال الذي يجب السعي لضمّ أهل الفرقة عنه، أمّا إحداث الفرقة في صفوف أهل الباطل فهو من الفضائل والواجبات.

لقد كان صفوان الجمّال من خيرة أصحاب الإمام الكاظم سلام الله عليه، فأكرى جماله لهارون العبّاسي لسفر الحجّ، فبلغ ذلك الإمام عليه السلام فقال له كلمة عظيمة؛ قال: «كلّ شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً». ولاشكّ أنّ هذا تقريظ عظيم من الإمام ممّا يكشف عن منزلة صفوان، ولكن الإمام استنكر عليه إكراءه جماله لهارون. فقال صفوان: يابن رسول الله، هذا يريدها للحجّ. فقال له الإمام: «أتحبّ بقاءهم حتى يخرج كراك؟ قلت: نعم. قال عليه السلام: فمن أحبّ بقاءَهم فهو منهم»[٢].

---

(١) تحف العقول: ٢٧٥.

(٢) انظر رجال الكشي: ٤٤١ ترجمة صفوان بن مهران الجمال.

هذا والإمام كان يعلم أنّ هارون سيعرف السبب، وبالفعل جاء هارون في اليوم الثاني فاعتذر له صفوان بأنّه باعها كلّها.

بل الأمر قد يتعدّى ذلك حتى إلى بناء مسجد، فقد روي عن الإمام الصادق سلام الله عليه قوله: «لا تعنهم على بناء مسجد»[1] هذا والإمام يعلم عظمة المسجد والصلاة فيه، ولكنّه يعلم كذلك أنّهم سيتّخذون منه شعاراً لتقوية ظلمهم من خلال إشعار الناس بأنّهم أهل تقوى وصلاح؛ فيلتفّون حولهم ويدينون لهم، والدين منهم براء، وإلاّ فإنّ الإمام الصادق سلام الله عليه هو القائل: «من بنى مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنّة»[2] شريطة أن يكون مسجداً قد أُسّس على التقوى والصلاح، لا على الظلم والفساد.

بين الصلاح والإصلاح

تقدّم أنّ ضمّ أهل الفرقة يقع في الدائرة العامّة من المجتمع، أمّا إصلاح ذات البين فالمقصود به الدائرة الأصغر كالعائلة والعشيرة.

وربّ سائل يسأل عن الإصلاح الذي ورد في الدعاء والفرق بينه وبين الصلاح الذي عناه الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه في إحدى وصاياه: «أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله، ونظم أموركم، وصلاح ذات بينكم فإنّي سمعت جدّكما صلّى الله عليه وآله، يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصيام»[3] أي المستحبّة.

---

(١) الفصول المهمّة: ٢/ ٢٤٠، ح٢، باب ١٠.

(٢) تهذيب الاحكام: ٣/ ٢٦٤ ح٦٨.

(٣) نهج البلاغة: ٤٢١ رقم ٤٧ من وصية له سلام الله عليه للحسن والحسين سلام الله عليهما.

هنا نكتة بلاغية وهي أنّه وردت في بعض النصوص عبارة «إصلاح ذات البين» فيما وردت في بعض آخر منها عبارة «صلاح ذات البين» والمؤدّى واحد؛ إنّ الإصلاح إمّا أنّه نتيجة الصلاح ـ لأنّك إذا رفعت الفساد وأصلحت بين اثنين، فإنّ نتيجته هو الصلاح ـ أو يراد به دفع الفساد قبل وقوعه، كما لو أحسست أنّ خلافاً ما سيحدث بين زيد وعمرو فبادرت إلى عمل ما من شأنه الحيلولة دون وقوعه، فيطلق على عملك هذا صلاحاً وليس إصلاحاً لأنّه لم يكن فساد في البين لتصلحه وإنّما حُلت دون وقوعه، بينما الإصلاح أمر يعقب الإحداث دائماً، لغاية العلاج فيه، والذي بين الصلاح والإصلاح كالذي بين الوقاية والعلاج.

للإمام الحسن سلام الله عليه جملة عظيمة تنفعنا في مجال «إصلاح ذات البين»[1]، يقول الإمام لجنادة: «واعلم أنّه تطلب الدنيا والموت يطلبك»[2]. فلو آمن الإنسان بهذه الكلمة وكانت حاضرة عنده دوماً لسهل عليه السعي في طلب الفضائل، ولأمن على نفسه الصراع من أجل ركام الدنيا، لأنّه يعلم أنّ كلّ ما يطلبه من الدنيا لا محالة زائل، فإنّ ذكر الموت وحده كفيل بأن يحدّ من شهوات النّفس.

---

(١) ولكن قبل ذلك لا بأس بالإشارة إلى أنّ السابع من شهر صفر هو يوم شهادة الإمام الحسن سلام الله عليه كما ذكر ذلك جمهرة من أعاظم علماء الشيعة - وهناك قول آخر هو أنّ شهادته كانت في آخر صفر، وهناك أقوال أُخرى أيضاً - ولكنّي لم أعثر في كتب المتقدّمين كالكليني والطوسي والكفعمي وغيرهم أنّ ولادة الإمام الكاظم سلام الله عليه كانت في السابع من صفر، نعم ذكر ذلك بعض المتأخّرين وهو ضعيفٌ.

(٢) كفاية الأثر: ٢٢٦ باب ما جاء عن الحسن سلام الله عليه.

حذار من التسويف

جاءني شخص وسألني عن الحجّ، قال: كنت مستطيعاً منذ عشرة أعوام ولم أحجّ، ولكنّي كتبت في وصيتي أن يحجّ أولادي بالنيابة عنّي، فقلت له: إنّ التسويف في الفرائض يعدُّ من الكبائر، إلى أن اقتنع بأن يحجّ بنفسه، وإن استلزم أن يقترض في ذلك، وإن كان هو مستطيعاً كما تبيّن لي، وبعد أن أبدى استعداده ـ وكان في شهر ذي القعدة ـ انصرف.

وبعد أسبوع أتوا لأذهب الى الصلاة على جنازته، وعندما وصلت المكان كان أبناؤه موجودين، وقالوا لي: لم يكن به شيء ولكن أُصيب بسكتة قلبية. فأخبرت أكبر أولاده أنّ عليهم أن ينفّذوا ما كتبه لهم في وصيّته التي أخبرني عنها قبل موته بأسبوع، وذلك بأن يبعثوا شخصاً خلال هذه السنة أي في غضون أيّام أو أسابيع لكي يحجّ نيابة عنه، فهذا يعدّ من أوجب الواجبات.

إنّ على الإنسان أن يضع الموت نصب عينيه دائماً، فإذا فعل ذلك خفّت حدّة شهواته واستطاع أن يعمل على ضمّ أهل الفرقة وإصلاح ذات البين بنحو أحسن، ولا يكترث للأعذار غير الصحيحة.

ورد في الحديث الشريف: «... **فإنّك لا تدري ما اسمك غداً**»[١].

(١) عدة الداعي: ٨٤.

إفْشاء العَارِفَة، وسَتر العائبَة

يطلب إمامنا زين العابدين وسيد الساجدين سلام الله عليه في طيّ دعائه هذا الذي نستنير به والموسوم بدعاء مكارم الأخلاق أن يحلّيه الله تعالى بحلية الصالحين ويلبسه زينة المتقين، والتي من جملة مصاديقها ما قد سلف بيانه، فيقول تتميماً لمبتغاه: **وإفشاء العارفة، وستْر العائبة، ولين العريكة.**

الإفشاء: النشر والإذاعة والإظهار. والعارفة: المعروف، والتاء فيها باعتبار الخصلة؛ فإفشاء العارفة يعني نشر المعروف.

أمّا العائبة ـ وهي مؤنث العائب، والتأنيث فيها باعتبار الخصلة ـ فهي ضدّ العارفة والمعروف. وأمّا السَّتر فالإخفاء؛ فيكون معنى إفشاء العارفة: نشر المعروف وعدم إخفائه، ومعنى ستر العائبة: إخفاء المنكر وعدم إظهاره. وهاتان الخصلتان من صفات الله تعالى؛ ففي الدعاء المرويّ عن الإمام الصادق سلام الله عليه: **«يا من أظهر الجميل وستر القبيح»**[1].

---

(١) تهذيب الأحكام: ٣/ ٨٤ ح١٢.

أمّا كيف يكون إفشاء العارفة وستر العائبة؟ الجواب:

أولاً: بالعمل بالمعروف، والانتهاء عن المنكر؛ فإنّ العمل بالمعروف يُعدّ أصدق مصاديق إظهاره، كما أنّ الانتهاء عن المنكر يعدّ كذلك من مصاديق إماتته وإخفائه. فالواجب إذاً يحتمّ على المؤمن أن يلبس رداء المعروف واجبه ومندوبه، وينزع رداء المنكر محرّمه ومكروهه.

ثانياً: أن نذكر الذين يعملون المعروف ونمدحهم، فنقول مثلاً: فلان وقور وفلان مخلص وهكذا. فهذا يعدّ نشراً للعارفة، وأن نستر على الذين زلّوا ولا نشيع ذكر ما عملوا من المنكرات.

ثالثاً: أن لا ننسى معروف الآخرين إلينا ونذكره، وننسى معروفنا إليهم فلا نذكره؛ روي عن الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّه قال: «إذا صنع اليك معروف فاذكره، إذا صنعت معروفاً فانسه»[1]. أي إذا أحسن إليك شخص ما، فمن إفشاء العارفة أن تذكر لغيرك أنّ فلاناً قد أحسن إليك. أمّا إذا أحسنت إلى غيرك، فليس من العارفة أن تذكر ذلك أينما حللت وارتحلت لتقول مثلاً: «لولاي لكان وضع فلان كذا وكذا» لأنّ هذا يعدّ من العائبة.

الاقتداء بسيرة العلماء

لقد كان السيّد محمد تقي الخونساري رحمه الله مرجعاً للتقليد في مدينة قم يوم دخلها السيّد البروجردي وكلاهما كانا من تلامذة المرحوم الآخوند (صاحب الكفاية) رحمه الله.

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٢/ ٣٦١ ح١٥ باب تحريم كفر المعروف.

ففي إحدى الزيارات المتبادلة بينهما قال السيّد الخونساري للسيد البروجردي: كنت أحضر درسكم في النجف الأشرف، فأنت أستاذي.

وربما كانت المدّة التي تتلمذ فيها السيّد الخونساري عند السيّد البروجردي رحمه الله قصيرة جداً، ولكن السيّد الخونساري كان يرى أنّ من إفشاء العارفة وأداء حقّ التعليم أن يذكر ذلك ويبيّنه، وإن كان مرجعاً للتقليد. الأمر الذي يبيّن أنّ إفشاء العارفة بحاجة إلى عزم وإيثار وإيمان وتوكّل على الله تعالى؛ فإنّ النفس لا تدع الإنسان عادة يتنازل أمام أصدقائه ومعارفه.

ففي مثل هذه الحالة، وبعد أن ذكر السيّد الخونساري ذلك، ترون ماذا سيكون موقف السيّد البروجردي تجاه ما أعلنه السيّد الخونساري؟ هل يؤيّد كلامه وهو يعلم أنّه ليس من العارفة أن يذكر الإنسان إحسانه إلى غيره؟ أم ينكر الحقيقة، وذلك لا يصحّ أيضاً.

لقد بادر السيّد البروجردي إلى حلّ وسط، فجعل نفسه كمن لا يتذكّر ـ أي أعطى انطباعاً لذلك، دون أن يقع في الكذب ـ تخلّصاً من حراجة الموقف. ولكن السيّد الخونساري أعاد الكلام ثانية وأكّده.

فقال السيّد البروجردي: لعلّي لا أتذكّر[1].

فتبسّم السيّد الخونساري وقال: يحقّ لك أن تنسى لأنّ كثيرين من

---

(١) ولا يخفى أنّ هذا التظاهر بعدم التذكّر إنّما هو من باب التواضع للمؤمن ومحاولة عدم خدش كرامته، فلا يندرج تحت كتمان الحقّ كما حكي عن أنس بن مالك حين استشهده أمير المؤمنين عليه السلام على جملة من البدريين بخصوص ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله في غدير خم، فقال: كبرت سنّي ونسيت. فقال له الإمام: إن كنت كاذباً فضربك الله ببيضاء لا تواريها عمامة. (الغدير: ١/ ١٩٢ نظر في حديث إصابة الدعوة).

أمثالي درسوا عندكم؛ ولذا من الطبيعي أن لا تتذكّروني، أمّا أنا فمن حقّي أن لا أنسى لأنّي قلّما رأيت أستاذاً مثلكم، ولذلك لا أنساكم.

كما ينبغي لنا أن نتحلّى بحلية الصالحين في إفشاء العارفة، كذلك الحال في ستر العائبة وإخفاء عيوب الآخرين فضلاً عن عيوب أنفسنا.

الإسلام وستر العائبة

فمن يراجع الأحكام الجنائية في الإسلام يلاحظ بوضوح تأكيد الإسلام لهذا المبدأ، في حين لا تجد هذا في القوانين الوضعية أبداً.

تحكي الروايات الشريفة في موارد عديدة أنّ أشخاصاً كانوا يأتون إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ليعترفوا بذنوب قد تستوجب إقامة الحدّ عليهم كالزنا مثلاً، وعلى الرغم من أنّ إقرار العقلاء على أنفسهم حجّة، أي نافذ ومقبول، إلاّ أن الإسلام لا يكتفي بإقرار المذنب على نفسه مرّة واحدة دائماً، بل ثمّة موارد يُحتاج فيها الى تكرار الإقرار أربع مرّات. ولهذا كان النبي صلى الله عليه وآله لا يعيرهم اهتمامه، كأن يُعرض بوجهه الشريف عنهم أو ما شابه ذلك؛ لكي يمهل المذنب ويدفعه على التراجع مادام في الأمر فسحة، ولم يكمل نصاب شهادته على نفسه.

فقد روي أنّ ماعز بن مالك جاء الى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله إنّي زنيت، فأعرض عنه، ثمّ جاء من شقّه الأيمن، فقال: يا رسول الله إنّي قد زنيت، فأعرض عنه، ثمّ جاءه فقال: إني قد زنيت، ثمّ جاءه فقال: إني قد زنيت، قال ذلك أربع مرّات.

وروي أنّه صلى الله عليه وآله قال له: لعلك قبّلت، أو غمزت أو نظرت[١]؛ كلّ ذلك محاولة منه صلى الله عليه وآله للستر على المعترف ودفعه للتراجع والاكتفاء بالتوبة، مما يدلّ على أنّ الإسلام وتعاليم النبي وأهل بيته سلام الله عليهم هي ستر المعايب لا إفشاؤها ونشرها.

كما روي أيضاً أنّ رجلاً جاء للإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه أيّام حكومته ـ الظاهرية ـ وطلب منه أن يطهّره من زنا قد ارتكبه، فقال الإمام: «... **أيعجز أحدكم اذا قارف هذه السيّئة أن يستر على نفسه كما ستر الله عليه**»[٢].

إنّ المجتمع الذي تسري فيه روح ستر العائبة وإفشاء العارفة لهو حقيق بأن ينعم بالطمأنينة والسعادة.

ومن عبر القصص

كان السيّد أحمد الروحانيّ القمّي خطيباً واعظاً يرتقي المنبر، سمعت منه بعض القصص الغنيّة بالمواعظ والعبر، وقد حكى مرّة فقال:

اتّصل بي في أحد الأيّام شخص أعرفه وطلب منّي حضور تشييع جنازة أحد المؤمنين، فاعتذرت منه وقلت له: إنّني لا أعرف المتوفّى ـ وربما كانت لديه التزامات أخرى كان يراها أهمّ، وإلا فإنّ تشييع المؤمن أمر قد حثّت عليه الروايات كثيراً، ولا يشترط فيه معرفة المتوفّى ـ فقال لي: ولكنّه إنسان مؤمن، فأرجو أن تحاول حضور تشييعه وإن لم

---

(١) جواهر الكلام ٤١/ ٢٨٠ ثبوت الزنا بالإقرار أو البيّنة وتعريف الشهادة.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٤/ ٣١ رقم ٥٠١٧ كتاب الحدود الزنا واللواط.

تعرفه.

يقول: فوافقت، ولمّا حضرت التشييع لفت انتباهي شخص من المشيّعين يبكي بكاءً مرّاً دفعني لأن أسأله: هل أنت ابن المرحوم؟

فقال: لا.

قلت: فمن أقربائه؟

قال: لا.

قلت: إذاً فلما هذا البكاء عليه، وما هو السبب.

قال: لذلك قصّة سأحدثك عنها بعد انتهاء التشييع.

وبعد انتهاء التشييع قال: كنت رجلاً فقيراً ومعيلاً وأخجل أن أمدّ يدي إلى أحد، ولم يكن المال الذي أكسبه يكفي لمعيشتي وعائلتي، فقد كنت أستأجر لهم غرفة في مكان متواضع وبأجرة رخيصة، وعندما يطالبني المؤجّر بالزيادة، اضطرّ لنقل عائلتي إلى مكان آخر، وهكذا أغيّر مكاني كلّ مدّة، فمكثت على هذه الحال أعاني من صعوبة الحياة وضنك العيش حتى اتّفق في أحد الأيّام أن التقيت بهذا الرجل، ولكن أيّ لقاء.

صادف أن دخلتُ إحدى المساجد في أحد الأيّام لأداء الصلاة، وكانت الجماعة منعقدة والصفوف متراصّة، ولم أجد مكاناً بين الصفوف، فوقفت وحدي خلف آخر صفّ، وإذا بهذا الرجل الذي فرغنا من تشييع جنازته قد جاء ـ ولم أكن أعرفه قبل ذلك ـ فوقف بجانبي، وقبل أن يكبّر تكبيرة الإحرام أفرغ بعض الأشاء من جيبه ووضعها أمامه ـ لعلّه كان يلتزم ببعض الآداب من عدم حمل بعض الأشياء أثناء الصلاة ـ ثم التحق بالجماعة، وفي أثناء الركوع لفت انتباهي أنّ في الأشياء التي وضعها أمامه خاتماً من ذهب.

وفجأة بدر إلى ذهني فكرة سرقته، مع أنّي لم أكن قد تجرّأت يوماً للسرقة قبل ذلك - وكنت في ذلك اليوم أمرّ في أسوأ حالاتي الماديّة، حتى أنّه لم يكن عندي ما أبتاع به طعاماً لعائلتي ـ.

فبقيت متردّداً لحظات أحدّث نفسي وتحدّثني، وأجذبها وتجذبني، أأسرقه أم لا؟

وأخيراً جذبتني نفسي فطاوعتها على السرقة وبدأت أخطّط للأمر وأراقب الرجل؛ هل هو منتبه للأشياء التي وضعها أمامه، أم هو غارق في الصلاة ليس ملتفتاً إلى غيرها؟ فرأيته كأنّه غارق في صلاته، فقرّرت أن أسرق الخاتم في حال السجود ـ لأنّ المسافة بين موضعَي سجودنا لم تكن بعيدة، فكان لا يتطلّب منّي الأمر سوى أن أضع يدي على الخاتم قبل أن يرفع هو رأسه، ثمّ أسحبه في خفّة وأضعه في جيبي وأواصل صلاتي لئلاّ ألفت انتباهه، ثمّ أغادر بمجرّد أن تنتهي الصلاة ـ.

ولكنّي لم أجرؤ على القيام بذلك في سجود الرّكعات الأولى حتى بلغنا السجدة الأخيرة من الركعة الأخيرة وفي تلك اللحظة قرّرت أخيراً أن أقوم بالمجازفة مهما كلّف الأمر.

وفعلاً وضعت يدي على الخاتم وسحبتُهُ، ثمّ وضعتُ يدي على رجلي، إلا أنّني كنت متوجّساً خيفة من احتمال أن يكون قد شعر بي، فصرت أرقبه باختلاس وريبة، فرأيته وكأنّه غير منتبه، فضلاً عن عدم إبدائه لأيّ ردة فعل، خصوصاً وأنّنا لازلنا في الصلاة، ولكن مع ذلك بدأت دقّات قلبي تتسارع وبدأت أفكّر كيف أفرّ بالخاتم إذا انتهت الصلاة.

وبينما الأفكار تصارعني، نفذ الى سمعي صوت الإمام قائلاً: السلام

عليكم ورحمة الله وبركاته. ولما هممتُ بالقيام وضعَ الرجل يده على يدي وقال لي: الخاتم لك! ولكن قل لي: لماذا فعلت هذا؟ ـ وعندما سمعته يقول لي: "الخاتم لك" اطمأننت قليلاً وهدأ قلبي ـ.

قلت له: صدّقني إنّها المرّة الأولى وإنّي لم أسرق قبلها في حياتي قطّ.

فقال: هذا بادٍ عليك لأنّ وجهك قد اصفرّ ويديك ترتعشان وبدنك يرتجف، فأخبرنيِ عن شأنك؟

فقلت له: أنا رجل معيل وقد أضرّ بي الفقر، حتى بلغ بي الحال أن لا أقدر على تأمين قوت أهلي.

فقال لي: الخاتم لك خذه، ولكن إيّاك أن تبيعه بثمن بخس. فأنا رجل غنيّ وجديد عهد بالزواج، وقد اشتريت هذا الخاتم لأقدّمه هدية لزوجتي، ولكن لا بأس سأشتري لها غيره، ولكنّي أنصحك أولاً أن لا تفرّط به وتعرف قدره لئلا يغشّوك. وثانياً إذا أردت بيعه ـ فحين تذهب إلى بائع الذهب ربما ينكر أن يكون هذا الخاتم لك، واذا ما حصل هذا ولكي تتخلّص من مساءلته قل له: إنّ فلاناً ـ وذكَر لي اسمه ـ يعرفني.

وكان الأمر كما أخبرني بالفعل، فعندما أعطيته بائع الذهب أخذ ينظر إليه وينظر إليّ مستغرباً ثمّ قال: من أين أتيت بهذا الخاتم، قلت: هو خاتمي. قال: ليس خاتمك، قلت: إن كنت تشتريه فادفع لي ثمنه وإلا فادفعه لي لكي أنصرف. قال: لا أدفع ثمنه ولا أسلّمه لك إلا في مركز الشرطة! فقلت له: إنّ فلاناً يعرفني ويعرف أنّ هذا الخاتم لي.

ولكنّه لم يقتنع وطلب منّي أن أحضره لكي يستبين الأمر.

وبالفعل حضر الرجل وشهد لي عنده بأنه يعرفني وأنّ الخاتم

خاتمي، فأعطاني بائع الذهب حينها ثمنه وكان كثيراً وخلّى سبيلي.

ولكن هذا الرجل ـ صاحب الخاتم ـ لحقني وقال: ماذا ستصنع إذا نفد ثمن الخاتم؟

فلم أحر جواباً.

فاقترح عليّ أن أشتري به بيتاً صغيراً في منطقة مناسبة، لكي أسكن في قسمٍ منه، وأؤجّر القسم الآخر، لكي يكون لي عائدٌ مستمرّ، ولو قليل، من إجارته.

فوافقت، وظلّ هو يبحث معي حتى وجد لي منزلاً بنفسه، فاشتريناه وكان كما اقترح.

ومرّت عليّ السنوات بعد ذلك وقد خفّ ثقل الماضي ولم يعد يقلقني ضنك العيش بتلك الصورة، فهلاّ يحقّ لي إذاً أن أبكيه من كلّ قلبي، كيف لا، وهو الذي ستر عليّ ولم يحدّث أحداً بصنيعه هذا.

اُنظروا كيف أنّ ستر العائبة من قبل هذا الرجل التاجر أخذت بيد إنسان كان على شفير السقوط، فربما لو كان هذا الرجل قد صاح به ونهره وأذاع به أثناء سرقته الخاتم لسقطت شخصيته وانهارت كرامته ولم يبال بعدها بما سيؤول إليه أمره؛ لسقوطه عن أعين الناس، ولتحوّل من إنسان بسيط إلى سارق محترف يضرّ نفسه والمجتمع.

لين العريكة

العريكة: تعني النفس والخلق، والمستفاد من استعمالاتها في الروايات طبيعة المعاشرة مع الآخرين؛ لأنّ العرك هو الدلك والتحمّل؛ يقال: عرك الأديم أي دلك الجلد.

وحسب هذا الدعاء وكذلك من وجهة نظر الإسلام ومنطق أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، فإنّ المطلوب من الإنسان المؤمن أن يكون ليّن العريكة، أي سلس الخُلق في المعاشرة مع الناس.

وهذه الفضيلة في بني آدم إمّا أن تكون بالطبع، أي ما جُبل عليه الانسان، وإمّا بالتطبّع، أي بالأخذ والاكتساب، أو ما عُبّر عنه في بعض الروايات بالنيّة، أي أن يروّض ويحمّل الإنسان نفسه عليها ويتصنّعها حتى يكتسبها[1].

فمن لم يكن لديه نيّة الوصول إلى خصلة لين العريكة أو كان في الدرجات النازلة من التقوى والصلاح في النفس فهو كالصخرة التي يصعب التأثير فيها، أمّا من توفّر على نيّة الوصول إلى تلك الخصلة أو من كان في الدرجات العليا من التقوى والصلاح فهو من هذه الجهة

---

(١) روي عن الإمام الباقر سلام الله عليه أنّه قال: (إنّ الخلق منحة يمنحها الله خلقه فمنه سجيّة ومنه نيّة). وسائل الشيعة: ١٢/ ١٥١، ح١٥٩١٧.

كالماء يأخذ شكل كلّ شيء يحتويه.

لاشك أن الذي له نفسٌ شديدة العريكة كالصخر، يصعب عليه تحويلها إلى نفس ليّنة قادرة على تحقيق المعالي ولكن يمكنه تحمّلها والتغلّب عليها بالرياضة والتطبّع ليتّصف بالفضائل في الأقوال والأفعال، في السرّاء والضرّاء، والشباب والشيوخة، والسفر والحضر، مع الأهل والجيران والأصدقاء بل حتى مع الأعداء.

فصقل الذات قضية صعبة للغاية، غير أنّه لا بدّ للمؤمن من ذلك، ولا بديل له عن إنجاز هذه المهمّة الضرورية؛ لأنّ كلّ إنسان تواجهه في الحياة عقبات وصعوبات قد يشيب الطفل من بعضها، ولكن لا بدّ له من تجاوزها لئلاّ يتحسّر على عدم التحمل في يوم لا ينفع فيه حسرة ولا ندم.

ألم الحسرة على تفويت الفرصة

لقد روي أنّ الحسرة تعمّ جميع الخلق في يوم القيامة بمن فيهم المؤمنون؛[1] لأنّهم سيتحسّرون على عدم مضاعفة جهودهم في الإكثار من العمل الصالح في الحياة الدنيا ليزدادوا إلى أجرهم أجراً، لذا فإنّ واحداً من مسمّيات يوم القيامة هو يوم الحسرة والندامة.

وليست الحسرة في الآخرة كما هي في الدنيا؛ لأنّ حسرات الدنيا يمكن تداركها بالسعي ومضاعفة الجهد، أمّا حسرات الإنسان في يوم

---

(١) كما في الخبر: «إنّ أهل الجنّة لا يتحسّرون على شيء فاتهم من الدنيا كتحسّرهم على ساعة مرّت من غير ذكر الله». مستدرك الوسائل: ٥/ ٢٨٨ رقم ٥٨٧٨.

القيامة فلا يمكن تداركها؛ لانقطاع العمل بحلول الأجل.

فإذا كانت الحسرة على تفويت الفرصة تؤذي الإنسان في الحياة الدنيا فكيف به في يوم القيامة الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إلاَّ مَنْ أتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1]؟

نقل أحد العلماء ـ وكان في مجلس حضره بعض الفقهاء ومراجع التقليد ـ :

كنت جالساً في صحن مرقد أمير المؤمنين سلام الله عليه مع رفيق لي ـ كان مرجعاً دينياً كبيراً حينذاك، وقد توفّاه الله تعالى ـ وكنّا نتداول بعض البحوث العلمية، إذ مرّ من أمامنا سقّاء يوزّع الماء، وكان رجلاً كبير السنّ يحمل جرّة الماء بصعوبة.

فقال لي صاحبي المرجع: هل ترى هذا السقّاء؟ لقد كنّا معاً زميلين في الدراسة قبل ثلاثين عاماً، وكان يمتاز بالذكاء، ولكنّه توقّف عن مواصلة الدراسة بسبب ضغوط الحياة، فلم يقاوم، فترك الدرس واتّخذ مهنة السقاية للزائرين بدلاً عنه، لعلّه يحرز جانباً من تكاليف معيشته.

ثمّ قال الناقل:

فاصطحبني ذلك المرجع ونهضنا إليه لنسأله عن حاله، فقال لنا بعد أن تذكّر زميله: إنّني أتحسّر وأتأسف ليلي مع نهاري على قلّة صبري وعدم تحمّلي بضع سنوات من الصعوبة

---

(١) الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩.

حتى استبدلت الأدنى بالذي هو خير.

فالحسرة في الدنيا تنتهي خلال سنة أو سنوات وربما تداركها الانسان، ونادراً ما تستغرق العمر كلّه، ولكن حسرة الدار الآخرة لا تنتهي؛ لفوات تداركها؛ فتكون أبدية ولا حيلة للإنسان حينها في التخلّص منها.

رسول الله ألينهم عريكة

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو القمّة في كلّ الفضائل والأخلاق، وقد وصفه ربّ العرش بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] وقال تعالى أيضاً: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[2]، وقال في وصفه الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه: «وألينهم عريكة»[3].

ولقد نقل التاريخ آثاراً كثيرة، تروي لنا عظمة النبي صلى الله عليه وآله وتبيّن مدى لين عريكته، منها:

ما جرى بينه صلى الله عليه وآله وبين زوجته عائشة، فرغم أنّها تصغره بسنين كثيرة، وهو رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى، والذي وصفه الله تعالى من فوق عرشه العظيم بأنّه «على خلق عظيم»، تروي عائشة أنّه: حدث نوع من الخلاف بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وآله فحاكمته الى

---

(١) القلم: ٤.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) الأمالي للطوسي: ٣٤٠ ح٦٩٥.

أبيها، وحينما اجتمعوا بادرتْه بالقول: «أقصد يا رسول الله»[١] أي أعدل. ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يردّ على إساءتها تلك ولو بأبسط ردّ، وتحمّل منها ما تحمّل.

وثمّة حادثة أخرى ـ تعكس هذه الخلّة الكريمة لنبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله ـ عُرفت فيما بعد بقضيّة القطيفة الحمراء، فقد روي أنّه في غزوة بدر فقدت قطيفة حمراء من الغنائم فزعم رجل من الأصحاب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أخذها. فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾[٢]. فجاء رجل فقال: إنّ فلاناً قد غلّ قطيفة واحتفرها هنالك، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بحفر ذلك الموضع فأخرج القطيفة[٣]. وبرّأ الله تعالى رسوله الكريم.

فمن لين عريكته صلى الله عليه وآله ستره للغالّ لتلك القطيفة وعدم تعريفه للنّاس فضلاً عن عدم أخذه بما اتُّهِم به كذباً وزوراً.

الخلاصة: حريّ بنا أن ندعو الله سبحانه وتعالى بأن يمنحنا هذه الخصلة، ولا ينبغي أن يتخيّل بأن الانسان إذا كان ليّن العريكة أُكِل، أمّا إذا كان صلباً جلب احترام الناس وهيبتهم له؛ بل العكس فإنّ لين العريكة في محلّه هو الذي يجلب القوّة والإحترام، كما أن المؤمنين إذا تحلّوا بهذه الخصلة أمكنهم أيضاً أن يكونوا دعاة للدين بصورة عملية

---

(١) المراجعات: ٣٢٦، تاريخ بغداد: ١١/ ٢٣٩ رقم ٥٩٨٥، كنز العمّال: ١٣/ ٦٩٦ رقم ٣٧٧٨٢. كما نقل الغزالي في كتاب احياء علوم الدين: ٢/ ٣٥ آداب النكاح، وكتاب مكاشفة القلوب له أيضاً: ٢٣٨ باب ٩٤، قولها: أنت الذي تزعم أنك نبيّ الله.

(٢) آل عمران: ١٦١.

(٣) مستدرك سفينة البحار: ٨/ ٩ باب السرقة والغلول وحدّهما.

ويكونوا خير مصداق للحديث الشريف المرويّ عن الإمام الصادق سلام الله عليه: «كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم»[1].

إنّ الدعوة العملية قد لا تكون سريعة الاستجابة، ولكنّها ستكون عميقة التأثير توتي أكلها ولو بعد حين، كما أن التوفّر على خصلة لين العريكة قد يكون أمراً صعباً ويحتاج الى ترويض، ولكنّها إذا توفّرت فإنّها تكون من أقوى أسباب التأثير في المجتمع.

(١) الكافي: ٢/ ١٠٥ ح١٠.

خَفْضُ الجَناحِ، وَحُسْنُ السّيرة

يطلق الجناح لغة على الميل والكنف. فمن لا يملك مالاً فليس له كنف مال، والجاهل ليس له كنف علم.

إنّ ما يستفيده الطائر من جناحيه متوفّر لدى الإنسان أيضاً ولكن بصفة أخرى. فكما أنّ الجناح يعدّ مصدر قوّة ووسيلة يستعين بها الطير على الطيران، فكذلك الإنسان ومن باب المجاز يكون له جناح متمثّلاً بقواه التي يستعين بها على الخوض في أمور الحياة. فالعلم والمال والعضلات والذكاء والعشيرة[1] وغيرها، كلّها تعدّ أجنحة يستطيع الإنسان التحليق بها في حياته؛ فمن طريق هذه الأجنحة يعي الإنسان الأشياء ويبيع ويشتري ويبطش أو يعفو، ويحفظ من المعلومات ويستنتج من التحاليل أو يكون مرهوب الجانب.

ولاشكّ أنّ العلم الذي يتمتّع به الإنسان إنّما هو نعمة تكرّم الله

---

(١) روي عن أمير المؤمنين سلام الله عليه أنّه قال في وصيّته لابنه الإمام الحسن سلام الله عليه: «وأكرم عشيرتك فإنّهم جناحك الذي به تطير». نهج البلاغة: ٣/ ٣٧ رقم ٣١ ـ ذيل الوصيّة ـ .

تعالى بها عليه كسائر المواهب والقدرات، لذا يجدر به أن يحسن التصرّف بهذه النعمة كما في غيرها، فيكون ذلك في رضا الله تعالى.

إنّ الإمام زين العابدين سلام الله عليه يسأل الله تعالى في هذا المقطع أموراً تعدّ هي الأخرى من حلية الصالحين وزينة المتّقين، منها خفض الجناح، حيث يدعو الله تعالى أن يمكّنه من الإمساك بجناحه والسيطرة عليه وخفضه عند مواضع رضاه سبحانه وتعالى؛ فلا يتكبّر الإنسان بعلمه على الناس، فيخفض جناح علمه لمن سواه، وكذلك الأمر بالنسبة لسائر الأجنحة، فلا يبطر بماله وجاهه، ولا يطغى بقوّته البدنية، ولا يسيء استخدام ذكائه، ولا يتعصّب لعشيرته وذوي قرابته، كما لا يستميلهم في الباطل على خصمه.

ولابدّ للمؤمنين أن يقتفوا أثر الإمام سلام الله عليه ـ لأنّه الأسوة والقدوة لهم ـ فيسعوا في التحلّي بهذه الخصلة بمعونة الله تعالى.

خفض الجناح نيّة وسجيّة

إنّ خفض الجناح لدى الإنسان يُعدّ من مصاديق الخلق الحسن الذي ينبغي أن يكون عليه، لكي يكون بواسطته أهلاً لأن يشقّ طريقه في الحياة بقليل من الصعوبة، وهذا يوجب محبوبيّته عند الناس أيضاً، وإنّه ـ خفض الجناح ـ أمر صعب جداً، إلا أنّه ممكن تحقيقه.

روي عن إسحاق بن عمّار عن الإمام الباقر سلام الله عليه أنّه قال: «إنّ الخُلق منحة يمنحها الله خلقه، فمنه سجيّة ومنه نيّة».

قال إسحاق: فقلت: فأيّهما أفضل؟

قال: «صاحب السجيّة هو مجبول لا يستطيع غيره، وصاحب النيّة يصبر على الطاعة تصبّراً فهو أفضلهما»[١].

فبدءاً، يكشف الإمام الباقر سلام الله عليه أنّ الخلق الحسن ـ ومنه التواضع والصدق وخفض الجناح ـ نعمة قد تكرّم الله بها على خلقه.

ثمّ يؤكّد أنّ هذه الأخلاق تكون على نحوين:

الأوّل: السجيّة، أي طبيعة متأصّلة في ذات الإنسان بفعل عامل التربية والأجواء التي يعيش فيها، كأن يكون الجوّ المنزلي أو العام جوّاً أخلاقياً طيّباً، فينمو الإنسان في ظلّه، فيتطبّع بالأخلاق الطيّبة. وهذا يكون من السهل عليه الالتزام بالأخلاق الفاضلة، بل قد يصعب عليه خلافها.

الثاني: النيّة، أي الإرادة والقصد إلى الفعل الحسن والخلق الحسن؛ بمعنى أنّ الشخص بحاجة إلى إرادة وتصميم ليشقّ طريقه في الحياة. فالذي ترعرع في أجواء غير حميدة أخلاقاً، تراه يعاني كثيراً لكي يلتزم بالأخلاق الفاضلة والسلوك الطيّب. وهذه المعاناة، إنّما تقف وراء تحمّلها نيّة صادقة وإرادة قاهرة لتجاوز الحالة أو الطبيعة السيّئة التي يعيشها المرء مع نفسه أو مع غيره.

ولذلك فإنّ صاحب الطبيعة أو السجيّة الحميدة لا يستطيع التخلّي عنها بسهولة، أي من الصعب عليه أن يستبدل بها غيرها، فلا يتكبّر مثلاً، لأنّه مجبول على التواضع، ولا يسرق لأنّ الأمانة تسري في عروقه.

أمّا صاحب النيّة فتجده يكابد ويقسو على نفسه ليصبّرها على

---

(١) وسائل الشيعة: ١٢/ ١٥١/ ح١٥٩١٧.

الطاعة والخلق الحسن. فعندما يحاول أن يكون متواضعاً ذا خلق حسن يجد في نفسه امتناعاً عن ذلك، حينئذ تراه يصبّرها جهاداً ليرقى بمستواها حتى تأخذ طابعاً جديداً ومسلكاً طيّباً عبر إرادة صلبة. فكان ـ والحال هذه ـ صاحب النيّة المكافح أفضل درجة وأرفع منزلة.

إمكان التغيير رغم صعوبته

أمّا الذي يبدي عجزه عن إحداث التغيير في نفسه وسلوكه نحو الأحسن، بذريعة الرواسب العالقة في ذاته، فغير صائب في ذلك لأنّ عملية التغيير ممكنة وإن كانت صعبة. والأمثلة على ذلك.

من المعروف وجود التنافر بين رئة الإنسان وبين الدخان الداخل فيها يفوق التنافر الذي بينه وبين أعضاء أخرى من بدن الإنسان بما فيها العين؛ وذلك بسبب حساسية الرئة ولطافتها ورقّتها من جهة، ولكونها العضو المهمّ في عمليّة التنفّس من جهة أخرى. ولكننا مع ذلك نلاحظ أن كثيراً من الناس يقومون بإدخال كميات كثيرة من الدخان إلى رئاتهم عبر السجائر بشوق ورغبة، بل أن بعضهم يشتاق إلى السجائر أكثر من شوقه إلى ألذّ الأطعمة، فكيف بلغوا هذه الحالة؟

لاشكّ أنّ هذه الحالة لم تحصل دفعة واحدة بل حصلت بالتدريج، ولاشك أنّ الرئة قاومت الأمر بردّ فعل شديد في المرّة الأولى، ولكن شيئاً فشيئاً بدأت المقاومة تخفّ، حتى تبدّلت إلى شوق ورغبة.

ينقل أنّ طبيباً قال لأحد المدمنين على التدخين: إنّ الدخان يُنقص من عمرك إلى حدّ النصف، فإذا كان عمرك سيبلغ المئة عام دون تناولك السجائر فإنّه سيتدنّى إلى الخمسين معها. فقال الرجل: إنّ

خمسين سنة مع السيجارة أفضل عندي من مئة سنة بدونها! وكان الرجل صادقاً في كلامه؛ لما يحسّ من ضعف في نفسه عن ممارسة إرادته التي دفنها بنفسه.

وعلى كلّ حال فإنّ إمكانيّة أن يبدّل الإنسان طبعه بإرادته لا يخلو من صعوبة ولكنّه يمكن تجاوزها مع العزم والإصرار، وهكذا الأمر في ترك التدخين فهو الآخر بحاجة إلى نيّة صادقة وعزم شديد، بل هكذا هو الحال في التحلّي بالأخلاق الفاضلة عموماً، ومنها خفض الجناح.

الأئمة سلام الله عليهم أفضل قدوة

يروى عن الإمام محمد الباقر سلام الله عليه أنّه لقي في طريق عودته من الشام إلى المدينة نصرانياً ديرانياً فسأله النصراني: أأنت من علمائها ـ أي المدينة ـ أم من جهّالها.

ورغم أنّ الإمام الباقر لا يمكن أن يُقاس به أحد، إلا أنّه اختار جواباً هو الغاية في الحكمة، والقمّة في التواضع وخفض الجناح.

قال الإمام: «لستُ من جهّالها»[1].

فعدم ادّعائه سلام الله عليه العلم في معرض جوابه، بل التلميح له من خلال نفي الجهل عنه، يعتبر القمّة في الخلق الرفيع والتواضع رسمه لنا سلام الله عليه.

---

(١) دلائل الإمامة: ٢٣٣ ح٢٦، الخبر في باب ذكر معجزاته سلام الله عليه.

تأسّي العلماء

إن الكثير من علمائنا عملهم هكذا في مواجهة من يسيء إليهم؛ متأسّين في ذلك بسادة الخلق أهل البيت سلام الله عليهم الذين كانت من أولويّاتهم وقبل كلّ شيء هداية الناس.

يُنقل عن هؤلاء العلماء، أنّ أحدهم لما أتمّ تأليف موسوعة فقهيّة له، في النجف الأشرف بعد جهد جهيد[1]، جاءه أحد المدرّسين فقال له: إنّ الشيخ الأنصاري رحمه الله قد رفع المستوى العلمي في النجف بكتبه القيّمة، وأنت قد أخفضته بكتابك هذا.

وكان بإمكان مؤلف ذلك الكتاب أن يطرد هذا الرجل وينهره ويهينه ـ من خلال استفادته من مكانته المرجعية ـ أو مواجهته مواجهة علمية يبطل فيها زعمه في ادعائه. إلا أنّه لم يختر لا هذا ولا ذاك، بل قال له بكلّ أدب وتواضع وخفض جناح: وكيف تقارنني بالشيخ الأنصاري، أين أنا من الشيخ، حبّذا لو تدوّن ملاحظاتك على الكتاب، لأكون شاكراً لك.

فلم يسع الرجل حينها سوى الاعتذار إلى ذلك المرجع وطلب

---

(١) وكان تأليف ذلك الكتاب قد استغرق سنوات طويلة اضطرّ خلالها مؤلّفه إلى مراجعة أحد مصادره ـ وهو كتاب جواهر الكلام ـ في ظروف بالغة الصعوبة بسبب احتياجه لهذا الكتاب الذي يستعرض آراء العلماء في كلّ مسألة مع بيان أدلّتها، وحيث إنّ صاحب النسخة اليتيمة في ذلك الوقت لم يكن على استعداد ـ لأسباب تخصّه ـ لأنْ يعيرها للمؤلف ليأخذها إلى بيته، كما لم يكن بمقدور المؤلف الدخول إلى بيت الرجل تحاشياً للإحراج، الأمر الذي اضطرّهُ إلى التوافق معه على الاستفادة من الكتاب عند باب البيت داخل الزقاق، رغم الإحراج والتعب الكبيرين اللذين كانا يتسبّبان له.

الصفح عنه لما بدر منه من تحامل عليه، بالإضافة إلى أنّه حدث في ذلك الرجل بسبب هذا التواضع وخفض الجناح تغيّر كليّ تجاه ذلك المرجع.

بنود خفض الجناح

لا ينحصر التواضع في كلمات معدودة أو سطور بقدر ما هو حياة عملية يعيشها المرء في أكثر أوقاته؛ وقد أشار الإمام الصادق سلام الله عليه إلى أربعة بنود فيه[١]، في قوله:

١. «من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس» فلا يتوقّع الإنسان أن تكون له الصدارة دائماً في كلّ مجلس؛ وإن كان مستواه العلمي أو السياسي أو الاقتصادي أو غير ذلك أعلى مرتبة من غيره، بل يجلس بما إنتهى به ولا يتعقّب أسباب ذلك، بل يقبل به تواضعاً، فلا يعتبر نفسه أرفع مكاناً من الآخرين، إذ الناس مهما تفاوتت مستوياتهم المادّية، تبقى لهم كراماتهم ومشاعرهم الإنسانية، فلا موجب للمساس بها عبر التكبّر وتصعير الخدّ لا سمح الله.

ينقل عن أحدهم أنّه تعوّد سنين طويلة على الوقوف في الصف الأول لأداء صلاته خلف إمام الجماعة، وكأنّ ذلك المشهد صار جزءاً لا يتجزّأ من صلاته. وذات يوم جاء كعادته لأداء صلاة الجماعة فرأى المسجد مكتظّاً بالمصلّين ولا مجال له للوقوف سوى في الصفّ الأخير، فاستاء أيّما استياء! واضطرّ للصلاة في الصفّ الأخير.

ولكن وهو في أثناء صلاته كأنّ نوراً قد أضاء في قلبه ـ وكان هذا

---

(١) راجع الكافي: ٢/ ١٢٢ ح٦.

بمثابة فرصة ذهبيّة لهدايته من قبل الله تعالى ـ حين تنبّه لنفسه وللغرور الذي أصابه بإصراره على أداء الصلاة في الصفّ الأوّل، فرأى نفسه بعد ذلك مجبراً على إعادة كلّ صلاة كان قد صلاّها في الصفّ الأوّل، احتياطاً ـ خوفاً من أن تكون باطلة ـ لما شابها من الرياء والتكبّر.

٢. «وأن تسلّم على من تلقى» أي لا فرق بين من تعرفه ومن لا تعرفه، الكبير والصغير، العالم والجاهل، الغنيّ والفقير؛ لما لذلك من أثر في إبراز أجمل صور التواضع في الإنسان؛ لأنّ إبداء السلام تستلزم كبح الذات وتأديبها وإيقافها دون انطلاقها نحو الكبر وتصوّر الأفضليّة.

٣. «وأن تترك المراء وإن كنت محقّاً». والمقصود بالمراء الجدال غير المثمر الذي لا يراد عبره التوصل إلى النتيجة المطلوبة، بقدر ما يريد المرائي أن يظهر أنه الأفهم وأنّ رأيه هو الصحيح، فالذات ونصرتها هي الهدف. وهذا مذموم في الإسلام.

يُنقل أنّ الشيخ البهائي رحمه الله ـ وكان المرجع الديني الأعلى في إيران قبل حوالي أربعمائة عام ـ زار النجف الأشرف والتقى هناك المقدّس الأردبيلي رحمه الله ـ الذي كان معروفاً بأعلميّته وكراماته ومدى اقتدائه بأهل البيت عليهم الصلاة والسلام ـ فدار أثناء لقائهما حوار علميّ بينهما، شوهد خلاله المقدّس الأردبيلي يتقطّع في الجواب، مما ترك انطباعاً لدى الحاضرين بأعلمية الشيخ البهائي بما قدّمه من أدلّة وآراء. وفي اليوم التالي عندما ذهب الرجلان إلى مقبرة وادي السلام لقراءة سورة الفاتحة على أرواح المؤمنين ذكر المقدّس الأردبيلي ضعف أدلّة الشيخ البهائي التي قدّمها يوم أمس بالنقض والتحليل، حتى اقتنع الشيخ البهائي بصحّة آراء المقدّس الأردبيلي، وعندما سأله الشيخ البهائي عمّا إذا كان قد عكف

ليلة أمس في البحث عن الأدلّة الأكثر عمقاً؟ أجابه المقدّس الأردبيلي بأنّه كان على اطّلاع بها ولكن منزلته ـ أي منزلة الشيخ البهائي ـ كضيف فضلاً عن شهرته العلمية ومكانته الدينية، منعت المقدّس الأردبيلي من الردّ ومن كشف ضعف أدلّة الشيخ أو خطأ رأيه على مرأى من الناس، أما هنا، فلا يوجد ذلك المحذور، مما يصحّح إثبات رأيه العلمي ونحو ذلك.

وهذه الأخلاق الحميدة وخفض الجناح هو الذي أبقى اسم المقدّس الأردبيلي والشيخ البهائي وأمثالهما من علمائنا رغم مرور مئات السنين على وفاتهم.

٤. «وأن لا تحبّ أن تحمد على التقوى». ولعلّ هذه الخصلة هي الأصعب من بين الخصال، إذ الحبّ وعدمه لهما مقدّمات كثيرة، فإنّ الحبّ عاطفة، وهذا ما لا يمكن السيطرة عليه بسهولة قياساً بإمكانية السيطرة على الجوارح والحواسّ. فعندما تكون مثلاً عالماً فقيهاً أو خطيباً بارعاً ولا تحبّ أن تُمدح على هذه المميزات، فذلك من الصعوبة بمكان، لذا ينبغي للإنسان أن يروّض نفسه على عدم حبّ هذا المديح، فلا يستاء إذا لم يؤدّ الناس له ما دأبوا عليه من مدحٍ لذلك.

فبمثل هذا التواضع وخفض الجناح يبقى ذكر المرء مدى الدهر، فقد كان في زمن المقدّس الأردبيلي الكثير من الأثرياء، ولكن التأريخ لم يأت لهم بذكر، لأنّهم اعتمدوا في حياتهم على ثرواتهم فقط، فذهبوا كما ذهبت ثرواتهم كهشيم تذروه الرياح، وبقي تراث المتّقين المتواضعين مدرسة معطاء لمن يريد أن ينهل من معينها.

حسن السيرة وقوّة الشخصية

ومن جملة ما يطلبه الإمام السجّاد سلام الله عليه من الله تبارك وتعالى من الأخلاق الحميدة التي تعدّ من حلية الصالحين وزينة المتّقين: حسن السيرة وسكون الريح. يقول عليه السلام: **وحسنِ السيرة وسُكونِ الرّيح.**

وحسن السيرة إنّما يتحقّق بحسن السريرة. فإذا كان باطن المرء طيّباً طاهراً كان ظاهره كذلك فالسريرة الطيّبة تنعكس على شخصية الفرد وتصرّفاته، والعكس بالعكس، حتى أنّ الإنسان ليلمسها في نفسه ويراها رأي العين.

فمن كانت سريرته طيّبة، لا تصدر عنه تصرّفات تنمّ عن الكبر والغضب والعنف، سواء كان ذلك من خلال العين أو اللسان أو سائر جوارحه، حين تعامله مع أسرته، أو ما يحيط به من أفراد المجتمع على مختلف أطيافهم وأصنافهم. قال أمير المؤمنين سلام الله عليه: **طوبى لمن ذلّ في نفسه، وطاب كسبه، وصلحت سريرته (سيرته)، وحسنت خليقته، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من لسانه**[1].

وبما أنّ قضية حسن السيرة مهمّة ومصيرية في حياة الفرد، لذا فمن الجدير بالإنسان المؤمن أن يدعو الله تعالى لينعم عليه بهذه الصفة الخيّرة، ويكون دعاؤه دعاء المضطرّ، فيدعو من كلّ قلبه وبكلّ صدق وثقة ليحصل على ما يريد.

---

(١) نهج البلاغة: ٤/ ٢٩ رقم ١٢٣.

سكون الريح

تعدّدت الشروح والبيانات لعبارة «سكون الريح» لكنّ الأرجح أنّ كلمة «سكون» تعني الثبات. أمّا كلمة «الريح» فهي استعارة للتعبير عن شخصية الإنسان، فيكون معنى سكون الريح، ثبات الشخصية وعدم تزعزعها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[1] أي تزول قوّة شخصيتكم ويتفتّت كيانكم.

إنّ حسن السيرة وسكون الريح من صفات الصالحين وحلية المتّقين، فالتصرّف اللائق وقوّة الشخصية، والاتّزان في المواقف والسلوك تأخذ بالإنسان نحو التقوى والصلاح. فلا تجدون صالحاً تقيّاً يميل مع الرياح أينما تميل، كأن يعتنق اليوم مذهباً وغداً يؤمن بآخر، أو يدافع عن جهة أو شخص ما دون أن يزن موقفه وفق موازين التقوى والصلاح المذكورة في كتاب الله وسيرة النبي وآل بيته عليهم الصلاة والسلام. هذا بينما ضعيف الإيمان يتحرّك وفق هواه والأجواء، فبدافع حبّ المال وطلب الجاه يمدح هذا أو ذاك، فلا يرى شخصه ولا يهتمّ لكرامته بقدر اهتمامه بمن حوله، وشدّة حرصه على تحصيل المكاسب الآنية الزائلة، فهو لا يهتمّ فيما إذا كان هذا الموقف حقّاً أم باطلاً، لأنّه لا يجد متّسعاً ـ تحت وطأة ميوله وهوى نفسه ـ لاحترام هذه القاعدة الشرعية والإنسانية لأنّ نفسه قد استولت على شخصيته وكرامته حتى أعمته عن الرؤية الصحيحة، تلك الرؤية التي يجب عليه أن يرى من خلالها الواقع بمنظار الصلاح والتقوى.

---

(١) الأنفال: ٤٦.

مثال على الذين يميلون مع الريح

لعلّكم كُلُّكم قد وصل إلى سمعكم إسم (شبث بن ربعي)، هذا الشخص الذي يُعدّ من النماذج الأبرز للشخصية المتزلزلة، حيث يُنقل عنه أنّه قد بدّل معتقده قرابة خمس أو ستّ مرّات أو أكثر من ذلك!! فهو الذي كان يقاتل في ركاب الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه، وكان يوصف بالذكاء الانتفاعي، أو ما يُطلق عليه بالواقعية النفعيّة، أي يتصرّف وفق ما يمليه عليه الواقع وما يدرّه عليه بغضّ النظر عن مدى حسنه أو بشاعته. فقد روي أنّ أمير المؤمنين سلام الله عليه اختاره من بين عشرات الآلاف من جنوده بمعيّة بشر بن عمرو وسعيد بن قيس للتفاوض والمحاججة مع معاوية؛ لعلّه يؤوب الى الطاعة في اتّباع أمر الله سبحانه، وذلك قُبيل واقعة صفين. كما أنّه كان من الذين كتبوا للإمام الحسين سلام الله عليه الكتب التي تطلب منه أن يقدم إلى الكوفة، بعد أن أعلن ورفاقه نقض بيعة يزيد بن معاوية.

ولكنّه حيث كان ميّالاً مع كلّ ريح، فقد انتهى به الأمر للاشتراك بمباشرة ذبح سيد الشهداء سلام الله عليه، فضلاً عن قتاله والتأليب عليه، فكان مثال العالم الضالّ المتذبذب، الذي كان قد مدح أمير المؤمنين يوماً، وذمّه يوماً، وكاتب الإمام الحسين يوماً، وقتله يوم عاشوراء وهو يعلم أنّه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ووصيّه، حتى أنّه كان من أمره أن بنى مسجداً عرف باسمه قد أسّس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنّم. ففي مرسلة صفوان عن أبي عبد الله قال: «إنّ أمير المؤمنين عليه السلام نهى بالكوفة عن الصلاة في خمسة مساجد...ومسجد شبث بن

ربعي...»[١].

وعن سالم عن أبي جعفر قال: «جدّدت أربعة مساجد بالكوفة فرحاً لقتل الحسين... ومسجد شبث بن ربعي»[٢].

ومن قبله كان أبو هريرة نموذجاً بيّناً لعدم الثبات في المعتقد وانعدام الشخصية، فهذا الرجل الذي يصفونه بأنّه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، ويتردّد اسمه كثيراً في كتب العامّة وأعلامهم وكأنّه حامل لواء الإسلام والمدافع عن حياضه، ينقل عنه التاريخ، أنّه قال: الصلاة خلف عليّ أتمّ، وسماط معاوية أدسم، والوقوف على التلّ أسلم[٣]! أي أنّه كان يصلّي خلف عليّ، ويأكل عند معاوية، وإذا نشبت الحرب تنحّى ووقف متفرّجاً على بعد!

الكذب والفجور

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إيّاكم والكذب، فإنّ الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار»[٤]؛ لأنّ الكذب ليس مجرد مخالفة المعتقد، وإنّما هو مخالفة الواقع أيضاً.

قال الله سبحانه وتعالى بشأن المنافقين: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا

---

(١) وسائل الشيعة ٥/ ٢٥٠، أبواب أحكام المساجد، باب ٤٣، ح٣.

(٢) الكافي: ٣/ ٤٩٠، ح٢، باب مساجد الكوفة.

(٣) شذرات الذهب: ١/ ٦٤. وقد أفاد الأستاذ محمود أبو رية في كتابيه (شيخ المضيرة) و (أضواء على السنّة المحمدية) حين سلّط الضوء على سيرة هذا الرجل معتمداً في بحثه على جملة من مصادرهم المعتبرة في التاريخ والسيرة. فمن أراد الاستزادة فليراجع.

(٤) مستدرك الوسائل: ٩/ ٨٦ ح ١٤ باب تحريم الكذب.

نَشهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعلَمُ إِنَّكَ لَرَسولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ المنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[١] فقولهم «إنّك لرسول الله» إنّما هو خلاف ما يضمرون؛ لكونهم كافرين بالله قبل إنكارهم الرسالة، فلسانهم ينطق بما لا يعتقدون، كذلك كان أبو هريرة ومثله شبث بن ربعي، الذي كان يكذب حتى في قتاله إلى جانب أمير المؤمنين سلام الله عليه، لأنّ قتاله كان نابعاً عن قلب متزلزل مضطرب، فكان شأنهما ومن شاكلهما في ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤلاَءِ﴾[٢].

لذا يجدر بالإنسان أن يهتمّ كلّ الاهتمام بحسن سريرته كما يهتمّ بحسن سيرته لأنّه مهما حاول التظاهر بالصلاح فإنّه لا محالة سينكشف إن كانت سريرته طالحة، وإذ ذاك يكون الغرم عليه أفدح وأفظع.

الاعتبار بقصص الماضين

كانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وآله مُؤْمِنٌ فَقيرٌ شَديدُ الْحَاجَة منْ أَهْلِ الصُّفَّة وكَان مُلازماً لرَسُول الله صلى الله عليه وآله عنْدَ مَوَاقيت الصَّلاة كُلِّها لا يَفْقدُهُ في شَيْءٍ منْها وكَان رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله يَرقُّ لَهُ ويَنْظُرُ إِلَى حَاجَته وغُرْبَته فيَقُولُ: يَا سَعْدُ لَوْ قَدْ جَاءَني شَيْءٌ لأَغْنَيْتُكَ.

فَأَبْطَأَ ذَلكَ عَلَى رَسُول الله صلى الله عليه وآله فَاشْتَدَّ غَمُّ رَسُول الله صلى الله عليه وآله لسَعْد، فَعَلمَ اللهُ سُبْحَانَهُ مَا دَخَلَ عَلَى رَسُول الله منْ غَمِّه لسَعْد، فَأَهْبَطَ عَلَيْه جَبْرَئيلَ عليه السلام ومَعَهُ درْهَمَان، فَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ

(١) المنافقون: ١.

(٢) النساء: ١٤٣.

عَلِمَ مَا قَدْ دَخَلَكَ مِنَ الْغَمِّ لِسَعْد، أَفَتُحِبُّ أَنْ تُغْنِيَهُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ: فَهَاكَ هَذَيْنِ الدِّرْهَمَيْنِ فَأَعْطِهِمَا إِيَّاهُ وَمُرْهُ أَنْ يَتَّجِرَ بِهِمَا.

فَأَخَذَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله ثُمَّ خَرَجَ إِلَى صَلاَةِ الظُّهْرِ وَسَعْدٌ قَائِمٌ عَلَى بَابِ حُجُرَاتِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله يَنْتَظِرُهُ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله قَالَ: يَا سَعْدُ أَ تُحْسِنُ التِّجَارَةَ؟ فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: واللهِ مَا أَصْبَحْتُ أَمْلِكُ مَالاً أَتَّجِرُ بِهِ. فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله الدِّرْهَمَيْنِ وقَالَ لَهُ: اتَّجِرْ بِهِمَا وَتَصَرَّفْ لِرِزْقِ الله.

فَأَخَذَهُمَا سَعْدٌ وَ مَضَى مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله حَتَّى صَلَّى مَعَهُ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: قُمْ فَاطْلُبِ الرِّزْقَ فَقَدْ كُنْتُ بِحَالِكَ مُغْتَمّاً يَا سَعْدُ.

فَأَقْبَلَ سَعْدٌ لاَ يَشْتَرِي بِدِرْهَمٍ شَيْئاً إِلاَّ بَاعَهُ بِدِرْهَمَيْنِ وَلا يَشْتَرِي شَيْئاً بِدِرْهَمَيْنِ إِلاَّ بَاعَهُ بِأَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ. فَأَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَى سَعْد، فَكَثُرَ مَتَاعُهُ وَمَالُهُ وَعَظُمَتْ تِجَارَتُهُ، فَاتَّخَذَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ مَوْضِعاً وَجَلَسَ فِيهِ فَجَمَعَ تِجَارَتَهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله إِذَا أَقَامَ بِلاَلٌ لِلصَّلاةِ يَخْرُجُ وَسَعْدٌ مَشْغُولٌ بِالدُّنْيَا لَمْ يَتَطَهَّرْ وَلَمْ يَتَهَيَّأْ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ قَبْلَ أَنْ يَتَشَاغَلَ بِالدُّنْيَا، فَكَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: يَا سَعْدُ شَغَلَتْكَ الدُّنْيَا عَنِ الصَّلاةِ؟ فَكَانَ يَقُولُ: مَا أَصْنَعُ؟ أُضَيِّعُ مَالِي؟ هَذَا رَجُلٌ قَدْ بِعْتُهُ فَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَوْفِيَ مِنْهُ، وَهَذَا رَجُلٌ قَد اشْتَرَيْتُ مِنْهُ فَأُرِيدُ أَنْ أُوفِيَهُ.

فَدَخَلَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله مِنْ أَمْرِ سَعْد غَمٌّ أَشَدُّ مِنْ غَمِّهِ بِفَقْرِه. فَهَبَطَ عَلَيْهِ جَبْرَئِيلُ عليه السلام فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ قَدْ عَلِمَ غَمَّكَ بِسَعْد، فَأَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ حَالُهُ الأُولَى أَوْ حَالُهُ هَذِهِ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه

وآله: يَا جَبْرَئيلُ بَلْ حَالُهُ الأُولَى. قَدْ أَذْهَبَتْ دُنْيَاهُ بآخرَته.

فَقَالَ لَهُ جَبْرَئيلُ عليه السلام: إنَّ حُبَّ الدُّنْيَا وَالأَمْوَال فتْنَةٌ وَمَشْغَلَةٌ عَن الآخرَة، قُلْ لسَعْد: يَرُدُّ عَلَيْكَ الدِّرْهَمَيْنِ اللَّذَيْن دَفَعْتَهُمَا إلَيْه، فَإنَّ أَمْرَهُ سَيَصيرُ إلَى الْحَالَةِ الَّتي كَانَ عَلَيْهَا أَوَّلاً.

فَخَرَجَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله فَمَرَّ بسَعْد، فَقَالَ لَهُ: يَا سَعْدُ أَ مَا تُريدُ أَنْ تَرُدَّ عَلَيَّ الدِّرْهَمَيْن اللَّذَيْن أَعْطَيْتُكَهُمَا؟ فَقَالَ سَعْدٌ: بَلَى وَمائَتَيْن.

فَقَالَ لَهُ صلى الله عليه وآله: لَسْتُ أُريدُ منْكَ يَا سَعْدُ إلاَّ الدِّرْهَمَيْن.

فَأَعْطَاهُ سَعْدٌ درْهَمَيْن، فَأَدْبَرَت الدُّنْيَا عَلَى سَعْد حَتَّى ذَهَبَ مَا كَانَ جَمَعَ وَعَادَ إلَى حَاله الَّتي كَانَ عَلَيْهَا[1].

عوامل انكشاف السريرة

وهكذا يتّضح أنّ من الممكن انكشاف السريرة عبر عوامل وحالات عديدة، كالمال والشهرة والعلم والذرية والمنصب والغضب والأمانة. وعليه فإنّ تأكّد المرء من ما تنطوي عليه سريرته ومدى معرفته بمقدار حسنها أو قبحها يمكّنه من انتخاب السلوك المناسب لسيرته بين الناس لتحاشي أيّ خسارة أو فضيحة من جهة، وضمان أكبر قدر ممكن من الثقة والاعتداد بنفسه من جهة أخرى.

فحريّ بالإنسان المؤمن أن يجاهد نفسه حقّ الجهاد لتحسين سريرته وصقلها وفق الالتزام بالأوامر والنواهي الشرعية، لكي يعلم حقيقتها وما ترمي إليه، فيتفادى السقوط، ويضمن النجاح.

---

(١) الكافي: ٥/ ٣١٢، ح٣٨.

مثال لحسن السيرة

لقد وعى المقدّس الأردبيلي ـ مرجع الشيعة في زمانه ـ هذه الحقيقة فطبّقها مبتدئاً بنفسه، حتى أنّه نقل عن حسن سريرته وسيرته ما يقف له الإنسان متعجّباً؛ إذ قيل إنّه كان ذات يوم يمشي في صحن مرقد الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه، فسأله أحد الزائرين ـ دون علمه بمن يكون ـ عمّا إذا كان يعرف محلاً خاصّاً بغسل الملابس، فقال له المقدّس الأردبيلي: أنا أغسلها لك بنفسي! ضارباً بذلك كلّ ما يمكن أن يكون عذراً قد يحول ما بين الإنسان وبين أداء الخدمة للمؤمنين والزائرين، الأمر الذي يكشف عن حقيقة السريرة الطاهرة لهذا الرجل النادر المثال، فقام بغسل ملابس الرجل الزائر، وعاد إليه بها في الوقت المحدد لتسليمها، فشاهده بعض من يعرفه، فقال للزائر: هل تعرف من غسل ملابسك؟ إنّه المرجع الأعلى! فأخذ الرجل يبدي كلّ الاعتذار، فردّه المقدس الأردبيلي قائلاً: إنّما أنت صاحب الفضل عليّ، لأنّك من زوّار أمير المؤمنين عليه السلام.

يُنقل أنّ الإمام، كان قد كافأه بأن كان يرحّب به في أيّ وقت أراد الزيارة حيث كانت الأبواب تفتح له دون مفتاح. وما أعظم ذلك من قدسيّة وفضل.



طيب المخالقة والسبق إلى الفضيلة

لاشكّ أنّ الإنسان المؤمن يطمح لأن يكون من عباد الله الصالحين والمتّقين، ولكن لابدّ لذلك من مقدّمات ومراحل تكون كفيلة بذلك. هذه المقدّمات أشار إليها الإمام السجّاد في هذا المقطع من الدعاء، من جملته قوله: «وطيب المخالقة والسبق إلى الفضيلة»، فقد عدّهما سلام الله عليه مقدّمتين من مقدّمات تحقّق التقوى والصلاح في الإنسان.

طيب المخالقة

لم أرَ في قصائد شعراء العرب أو كلمات فصحائهم أنّهم أضافوا عبارة «الطيب» إلى «المخالقة» كما فعل الإمام سلام الله عليه في هذه الجملة. فهذا التعبير يعكس أدباً وبلاغةً رفيعتين للغاية. ولو تدبّر أدباء العرب في هذه الجملة وغاصوا في بحورها لأخرجوا من بديع معانيها وجمال الذوق فيها الكثير. ولعلّ كلّ من له أدنى إلمامة بالأدب يمكنه أن يكتشف بعض كنوز ما قاله الإمام سلام الله عليه.

إنّ كلمة «طيب» تستعمل في الغالب بمعنى المستحسن المرغوب فيه، وهي نعت يشير إلى معنى حقيقي ذاتيّ غالباً، كما يُستعمل في الأمور التي هي خارج كذلك، فيطلق مثلاً على الأكل اللذيذ: بأنّه طعام

طيّب؛ حيث أُضيفت إليه بعض المقبّلات ذات النكهة الطيّبة مع الطهي الجيّد، كما يطلق على المسك والعنبر أنّهما من الطيب.

إنّ موارد الاستعمال لهذه الكلمة، سواء في القرآن الكريم ـ الذي هو القمّة في البلاغة جمالاً ودقّة ـ أو في السُّنة المطهّرة المرويّة عن أهل البيت عليهم الصلاة والسلام أو في قصائد فطاحل الشعراء مثل البحتري وأبي تمام والمتنبّي ومن سبقهم كامرئ القيس وغيرهم، غالباً ما تكون في أحد موردين:

الأوّل: في الأمر الذاتي كما في المسك وسائر الأنواع الطبيعية حيث تسمّى طيباً.

الثاني: في الأمر الخارجي كما في الأطعمة الطيبة بسبب ممازجتها بما يجعلها كذلك[1].

أمّا استعمالها لإرادة معنى جديد عبر إضافتها إلى كلمة أخرى للخروج بمعنى ثالث يوحي بذاتية الأمر، فلعلّه مما تفرّد به الإمام السجّاد سلام الله عليه في هذا الدعاء، حين جمع بين الطيب والمخالقة، فلم يقل: (حسن المخالقة) مثلاً، لأنّ ذلك كان سيدلّل على رغبته في أن يكرمه الله تعالى بحالة خارجية، قد يكون باطنها غير ظاهرها، ولذلك قال: «طيب المخالقة» ليتعزّز طلبه من ربّه تبارك وتعالى بحالة داخلية يتكافأ فيها الباطن مع الظاهر.

---

(١) ويمكن أن تطلق على الأعيان أيضاً كما في المرويّ عن طاووس حين أشرف على عليّ بن الحسين سلام الله عليه وهو ساجد في الحجر فقال: رجل صالح من بيت طيّب. (لسان العرب: ١/ ٥٦٤ مادة طيب).

ولعلّ من النكات الخاصّة بهذا الاستخدام، أنّه صلوات الله عليه أراد أن يضمّن كلمته أو يشربها معنىً آخر، حيث يأتي بتعبير واسع ثمّ يربطه بكلمة ما، ليستخرج من هذا الربط معنى جديداً.

أمّا المخالقة فتعني لغةً: التعامل الخلقي أي المعاشرة، فمن المخالقة مثلاً إجابة الدعوة إلى الطعام وغيره من الأمور الحسنة والتكلّم مع الناس والإصغاء إليهم، والتعامل بالحسنى معهم عموماً، فهي إذاً أمرٌ أكثر ما يرتبط بالحواسّ الخمس؛ العين والأنف واللسان والأذن والبشرة، ولذلك قيل في المخالقة: المخالطة والاستيناس.

فتارة ينظر المرء إلى أخيه بعين المحبّة وأخرى بعين الغضب، وقد يصغي إليه وقد يسمعه فقط، وقد يصافحه بحرارة، وقد يقدّم يده إليه ببرودة ليجامله وهكذا.

فهذه جملة من مصاديق المخالقة ذات العلاقة بالجانب الحسّي من الإنسان والذي يطلق عليه اسم المخالطة أو المعاشرة، ولعلّ ما نسبته تسع وتسعون بالمئة من مصاديق المعاشرة ـ باعتبار أن المعاشرة أعمّ من المخالقة ـ مرتبط بهذا الجانب.

فإذا قرنت المخالقة مع الطيب حصلت صورة جديدة تؤدّي إلى تصوّر الصدق في العلاقة بين الإنسان ومن حوله، وكأنّ هذه العلاقة طيّبة ذاتاً ومنذ البداية وأنّها من الصميم. فالكلمة الصادرة عبر طيب المخالقة توحي بأنّها قد خرجت من القلب، ولا يراد بها المجاملة وحسب، وتعرف على أنّها كلمة صدق وليست مراوغة يراد بها المكيدة والخداع، وكذلك الأمر بالنسبة لجميع مصاديق المخالقة. فطيب المخالقة تعني إحراز الصدق وإبرازه في التعامل مع الناس.

فلنغرس طيب المخالقة في نفوسنا، ونرقَ بعلائقنا عبر صفاء ذواتنا ونقاء سرائرنا وسلامة قلوبنا من الكدورة. وليس شيء أبلغ وأنزه يمكن أن يحققه الإنسان في ميدان التعامل الاجتماعي أكثر من هذا الأمر.

أهل البيت سلام الله عليهم وطيب المخالقة

يشهد المخالف والمؤالف أنّ أهل البيت سلام الله عليهم كانوا يتمتّعون بأعلى مستويات طيب المخالقة في علاقاتهم مع الناس، مؤثرين لهم على أنفسهم، وأنّهم كانوا صادقين في سلوكهم هذا ومتّسمين به في كلّ المواقف وفي مختلف الظروف؛ سواء كانوا، كباراً أو صغاراً، ظاهرين أو مستترين، قائمين بالأمر أو مقصيّين عن الحكم. فالإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه هو نفسه في زمن النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله، وهو نفسه في الخمسة والعشرين عاماً بعد النبي، وكذلك في أيّام حكمه سلام الله عليه، لم يتغيّر في خلقه شيء.

لقد روى العامّة والخاصّة بل غير المسلمين أيضاً، قصّة شراء الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه قميصين أعطى أفضلهما خادمه قنبراً، مع أنّه كان يرأس أكبر حكومة على وجه الأرض، ويرتقي المنبر، ويلتقي كبار الرجال من مختلف الديانات والمذاهب والأقوام.

ولم يكن يتصرّف سلام الله عليه ذلك التصرّف إلا لأنّ خُلقه من سنخ خُلق الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، فقالها سلام الله عليه مدويّة: «**إنّ الله عزّ وجلّ قد فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعَفة الناس كيلا يتبيّغ (أي يهيج) بالفقير فقره**»[1].

---

(١) أصول الكافي: ١/ ٤١٠ ح٣ باب سيرة الإمام بنفسه والمطعم والملبس إذا ولي الأمر.

ومن هنا نفهم قول رسول الله صلى الله عليه وآله «نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد»[١].

روى الفتّال النيسابوري أنّ أمير المؤمنين سلام الله عليه أتى سوق الكرابيس، فاذا هو... فقال: يا غلام عندك ثوبان بخمسة دراهم؟ قال: نعم، عندي ثوبان. فأخذ ثوبين أحدهما بثلاثة دراهم والآخر بدرهمين. فقال: يا قنبر، خذ الذي بثلاثة دراهم...[٢].

طيب المخالقة تنفع صاحبها

وهناك قضية يلزم الانتباه لها، وهي أنّ المخالقة الحسنة إن لم تكن نابعة من داخل الإنسان، فإنّه سيبتلي بالتعرّض للضغوط النفسية الشديدة، جرّاء تصنّعه وتذبذبه، الأمر الذي يؤدّي بالتالي إلى عجزه في المحافظة على سلامته وصحّته، بينما إذا كان الفرد مؤمناً صادقاً بمخالقته ـ أي كان طيّب المخالقة ـ فإنّه سوف ينطلق الى آفاق الحياة بكلّ أمن وسلامة.

إنّ من مميزات طيب المخالقة أنّها تساعد الإنسان على مقاومة المشاكل، والصمود بوجه المشاكسين والمغالطين والمعاندين والوصول إلى برّ الأمان رغم كلّ الظروف.

ولقد رأيت شخصين لكلّ منهما قصّة، قد ابتلي كلّ منهما بمشكلة

---

(١) كنز العمال: ١٢/ ١٠٤ ح٣٤٢٠١. ورواه عن أمير المؤمنين سلام الله عليه السيد هاشم البحراني في غاية المرام: ٧/ ١٥٨.

(٢) روضة الواعظين: ١٠٧. وروى نحوه ابن الأثير في أسد الغابة: ٤/ ٢٤ من ترجمة أمير المؤمنين سلام الله عليه، كما جاء في زهده وعدله.

مالية، فكان الأوّل مختلفاً مع شخص على نسبة حصّته من أرض يتنازعان فيها، فكان يدّعى أنّ نسبته ٨٠٪ في حين كان خصمه لا يقرّ له بأكثر من ٤٠٪ وكان لكلّ منهما أدلّته وشواهده، فكان الأوّل يتظاهر بحسن المخالقة ويقول: رغم ثقتي بكسبي للدعوى ـ فيما لو ترافعنا للمحكمة ـ إلا أنّي لا أقوم بذلك لأنّ الترافع ليس من شأني، كما أنّي لا أريد تعريض غريمي للهزيمة القضائية. ولكنّه بعد فترة وجيزة أصيب على أثر هذا الخلاف بانهيار أعصابه، ما أدّى إلى إصابته بالسكتة القلبية ومات على أثرها، وما ذلك إلاّ لأنّه كان يتصنّع ويتظاهر بحسن السلوك وعدم الاكتراث، ولم تكن حسن مخالقته نابعة من الداخل حتى أجهد نفسه وأتلف أعصابه.

أمّا الشخص الثاني الذي له قصّة مشابهة، فكان مثالاً حقيقياً لمن لا يكترث بالنواحي المادّية، وكان طيّب المخالقة مع الناس، وذلك لأنّه عندما أُخبر بأن بيته قد صودر، لم يكترث؛ وقال: إنّ الأمر ليس من شأنه أن يقلقني بالمستوى الذي يمكن أن يسوء فيه خلقي مع الناس، بل لا يمكنه أن يؤخّرني حتى عن موعد نومي الليلة.

ولعلّ من عمدة الأسباب في تفاوت سلوك الشخصين المذكورين، هو أنّ أحدهما لم يكلّف نفسه عناء ترويض ذاته وتأديبها وتعويدها على الصلاح الحقيقي، بينما الثاني ـ كما بدا من سلوكه ـ كان أكبر همّه صقل شخصيته من خلال تهذيب نفسه بالقدر الذي يجعلها طيّعة لأمر بارئها سبحانه وتعالى. إذاً فطيب المخالقة ينتفع بها صاحبها قبل أيّ شخص آخر، سواء في الدنيا أو في الآخرة.

فإذا كان لدى المرء لسان حسن، أو نظرة إيجابية، أو مصافحة

حارّة، أو ظنّ حسن، أو عمل صالح فإنّ هذه وغيرها من مظاهر طيب المخالقة ستعود عليه بالنفع أولاً، وستشمل غيره أيضاً بمنافعها ومردوداتها الإيجابية.

السبق إلى الفضيلة

من روائع البلاغة في تعبير الإمام السجّاد سلام الله عليه أنّه ضمّ الى طيب المخالقة، السبق إلى الفضيلة. أي بعد أن يتأكد الإنسان من طيبه الداخلي وحسنه الذاتي، يمكنه أن يتقدّم خطوة نحو الأمام ليشرع في إعمال الفضائل، ثمّ يسمو إلى مرحلة التسابق أو السبق فيها.

فالمرء إذا كان طيّباً في داخله فإنّه لا يتوقع الفضل والإحسان من الآخرين بقدر ما يكون دَيدَنه الإسراع في عمل الخير وإنجاز الصالحات. فيزور قبل أن يزار، ويحاسب نفسه قبل أن يُحاسب غيره، ويبدأ بالسلام قبل أن يضطرّ إلى ردّه، ويَحترم قبل أن يُحترم، إلى غير ذلك من شواهد الإسراع في الخيرات وطيب التعامل.

وبالنسبة إلى ما ذكر من الابتدار في السلام، فقد أكّدت الروايات بأنّه من المستحبّ أن يبدأ الإنسان بالسلام على كلّ من يلقاه بل حتى على زوجته وأطفاله عند دخوله البيت، كما في قوله صلى الله عليه وآله: «**إنّ أولى الناس بالله وبرسوله من بدأ بالسلام**»[1] وقوله صلى الله عليه وآله: «**وإذا دخل أحدكم بيته فليسلّم فإنّه ينزل البركة وتؤنسه الملائكة**»[2].

---

(١) وسائل الشيعة: ٨/ ٤٣٦ ح٣.

(٢) علل الشرائع: ٢/ ٥٨٢ ح٢٣.

ولطالما رأيت السيّد المرحوم والدي[1] يبدؤنا بالسلام وكنت من ضمن الصبية، وعندما مضى بي العمر، تأكّدت بأنّ من وراء ابتداره بالسلام على من هم أدون منه قناعة تامّة لديه، بأنّه يحرز بذلك كثيراً من الفضل والدرجة وتربية الذات، فضلاً عن تعليم الآخرين هذا السلوك الحسن.

---

(١) آية الله العظمى السيد ميرزا مهدي الحسيني الشيرازي قدس سره.

قول الحقّ وإن عزّ

واحدة من أهمّ مصاديق حلية الصالحين وزينة المتقين التي يطلبها الإمام زين العابدين سلام الله عليه من الله سبحانه وتعالى، قول الحق، وإن قلّ ناصروه وكثر مناوئوه وتبعته المخاطر والصعوبات.

ملاحظتان في البدء

قبل أن نشرع في بيان ذلك لا بدّ من تأكيد نقطتين هامّتين في الموضوع، هما:

١. إنّ قول الحقّ يعدّ من أهمّ أسس الصلاح والتقوى للفرد المسلم، يؤيّد ذلك ما صدر عن أهل البيت سلام الله عليهم من القول بالحقّ دائماً، ولولاه لما كنّا اليوم مسلمين ولما بقي للإسلام والإيمان من أثر، خصوصاً في ظلّ محاولات الحكّام الظلمة، الهادفة إلى محو الدين وطمس أهمّ معالمه ورموزه.

٢. لقد أمرنا الدين الحنيف مراراً وتكراراً أن نسأل الله سبحانه

وتعالى التوفيق للصلاح والتقوى، وأن نشفع سؤالنا هذا بالعمل والتطبيق؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعبأ بكم رَبي لَولاَ دعَاؤكم﴾[1] في إطار التحريض على الدعاء وإدراك أهميته. وقال أيضاً: ﴿وَأنْ لَيْسَ لِلإنْسَان إلاَّ مَا سَعَى﴾[2] حيث ينبغي أن يكون السلوك الصالح مصدّقاً لما يلهج به في الدعاء.

لماذا القول وليس العمل؟

قد يتبادر إلى الذهن هذا السؤال وهو أنه: لماذا قال الإمام في هذا الدعاء: «قول الحقّ» ولم يقل: العمل بالحقّ؟

إنّ لمعاريض كلام أهل بيت النبوّة عليهم الصلاة والسلام جوانب عديدة وآفاقاً مديدة، وما غاب عنّا أكثر مما نستحضره، إلا أنّ ما يمكن قوله بهذا الصدد هو أنّ المجتمع الإسلامي كما هو بحاجة إلى فعل ليصدق عليه أنّه مجتمع إسلامي، كذلك هو بحاجة إلى قول وتصريح بالموقف الحقّ وبحزم.

أمّا إذا اقتصرت حياة الفرد على الجلوس في الدار دون أن يتكلّم بما يطلبه الحق منه، وتبعه الآخرون من أفراد المجتمع في الإحجام عن القول والتصريح أدّى ذلك إلى عدم العمل أيضاً، فعند ذلك لن يتحقّق الهدف المتمثّل ببناء مجتمع الصلاح والتقوى في المجتمع الإسلامي أبداً.

---

(١) الفرقان: ٧٧.

(٢) النجم: ٣٩.

نعم قد جرت العادة في القرآن الكريم والأحاديث والروايات الشريفة على حثّ الإنسان على العمل أكثر من القول، نظراً لأنّ العمل هو الركيزة الأساسية في الإنسان؛ فإنّ تلفّظ الفرد بشهادة **«لا إله إلا الله»** أسهل عليه ملايين المرّات من العمل وفق شروطها؛ إذ العمل بهذه الشهادة يستوجب في كثير من الأحيان تقديم التضحيات الجسيمة وتحمّل المصاعب والمشكلات الكبيرة.

ولكي يهون الأمر في سبيل ذلك فلابدّ من نظرة إلى من نصّبهم الله تعالى قدوة، لتؤنس وحشتنا بعظيم رزئهم، وتشحذ هممنا بجميل صبرهم، فلقد كان الإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه نموذجاً أوحد في العمل بمقتضى شرائط التوحيد، الأمر الذي كلّفه أن يقصى عن الحكم مدّة خمسة وعشرين عاماً، وهو الأعلم والأفضل والأتقى والأقضى من بين الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وكذلك كان شأن الكثير من عظماء الإسلام ممّن شايعه واقتدى به مثل الصحابيّ الجليل أبي ذر الغفاري رضوان الله تعالى عليه الذي التزم وعمل بشهادة التوحيد ما أمكنه جهده؛ فمات بسبب ذلك نفياً وغربة ووحدة وجوعاً، بعد أن كابد الفاقة والجوع قبل ذلك فترات طويلة.

إذاً المجتمع الصالح، بحاجة إلى القول كما هو بحاجة إلى العمل، ولعلّ الإمام استعمل هنا كلمة (قول) لإرادة هذا الأمر، وإن كان ثمّة تناوب في الاستعمال بين هاتين الكلمتين، حيث قد تُطلق إحداهما ويراد بها الأخرى، كقولهم: قال بيده هكذا أي عمل هكذا، إلا أنّ الذي هو ثابتٌ أنّه لا يكفي من أجل صلاح المجتمع، العمل بالحقّ وحده، بل لابدّ من الدعوة إليه، والتصريح به.

ما هو الحقّ؟

ذكروا للحقّ معاني، ففي اللغة: هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، واصطلاحاً: الحكم المطابق للواقع؛ ويطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك[1]. وعندما نقرأ القرآن الكريم وأحاديث أهل البيت سلام الله عليهم نجد لهذه الكلمة معاني متشابكة ومتداخلة، وكلّ معنى له خصوصيته، والجامع لكلّ معانيه هو وقوع الشيء في موقعه الذي هو أولى به. ويشخّص الحقّ في الفتوى الفقيه، وفي البناء المهندس، وفي الصحّة الطبيب، وتشخيصه في التاريخ والسيرة من اختصاص المؤرّخ، وهكذا.

أفضل الحق

إن أفضل الحقّ عندما يكون إظهاره والعمل بمقتضاه عزيزاً.

أمّا كيف يعزّ قول الحق؟

إذا قلّ الشيء النافع وندر أصبح عزيزاً، فمثلاً الماء الذي تتوقّف عليه الحياة، وجُعل منه كلّ شيء حيّ، يصبح عزيزاً إذا ما ندر أو حيل بينه وبين طالبه. أمّا إذا كان متوفراً فلا يسمى عزيزاً رغم نفعه وأهميّته، وهذا يعني أنّ الشيء العزيز هو النافع النادر.

والقول بالحقّ أمر حسنٌ جداً ونافعٌ، ولكن ما يجعله حلية للصالحين وزينة للمتقين هو عندما يكون إظهاره والعمل به عزيزاً ونادراً، بسبب المخاوف والمخاطر، كالتعذيب والحرمان والاعتقال

---

(١) انظر الفروق اللغوية: ١٩٣ رقم ٧٧٣ الفرق بين الحقّ والصدق.

وسائر الصنوف الأخرى التي يستخدمها الظالم لإرهاب من يجترئ على قول الحقّ بوجهه.

إنّ التاريخ يتشرّف بأولئك الذين صدعوا بالحقّ بعد أن عزّ وغاب قائله فضلاً عن فاعله، وأصدق من قال الحقّ في عزّته، هم محمد وآل محمد صلوات الله عليهم اجمعين ومنهم السيّدة الصديقة فاطمة الزهراء سلام الله عليها حيث كانت أوّل المقدمين في قول الحقّ بعد وفاة أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله حين ظهر الباطل فأصبح الحقّ عزيزاً، فكان أوّل ما قامت به عليها الصلاة والسلام هو فضحها للمؤامرة ـ أو قل المؤامرات ـ التي حيكت ضد الإسلام لاستهداف أصوله وصميمه، حتى تسنّى بفضل قولها الحقّ أن حافظت على جوهر الدين من الدمار التامّ، وأبقت للمسلمين ما يتمسّكون به، وإلا لنجح الشياطين في إرجاع الناس إلى الجاهلية الأولى.

ومن هنا نفهم وندرك عمق تصريح النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حينما أجاب عن أفضل الجهاد، فقال: «**أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر**»[1]؛ فقول الحقّ بوجه الظلمة يعدّ جهاداً بل أفضل الجهاد، الأمر الذي يشير إلى مدى أهميّته وخطورته، فضلاً عن ندرة المتصدّي له.

وهذا الحديث الشريف ورد بلفظ «عند إمام جائر» أيضاً، وهذا يستدعي التأمّل أيضا؛ فكلمة (سلطان) ذات مفهوم أو استعمال أوسع من كلمة (إمام). ففي الاصطلاح الإسلامي إذا جار الحاكم الكافر سمّي سلطاناً جائراً، أمّا إذا جار الحاكم المسلم، فيسمّى إماماً جائراً.

والجهاد ضدّ إمام الجور بقول كلمة الحقّ بوجهه، أفضل من الجهاد

(١) عوالي اللآلي: ١/ ٤٣٢ ح ١٣١.

ضد سلطان الجور؛ لأنّ ما يضعف الإسلام ويؤدّي إلى تآكله من الصميم وفي نفوس المستضعفين من المسلمين ويدفع بغيرهم إلى الإعراض عنه، هو ما يقترفه إمام الجور، مثل يزيد بن معاوية لعنهما الله، الذي حكم باسم القرآن والرسول صلى الله عليه وآله، وكان في الوقت نفسه من أعدى أعدائهما، حتى أنّه اختطّ خطّاً في الجريمة والتجاوز على مقدّسات الدين ورموزه، لا تزال مظاهره تؤذي بدن الدين والأمّة، ظاهرة في كلّ من تقمّصها من بين الحكّام الذين توالوا بعده وهم يحملون معاول التحريف بالدين والتنكيل بالأمّة كلّما تهيّأت الظروف لهم.

ومن هنا أكّدت الأحاديث الشريفة بأن ظالمي محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله لو كانوا قد امتنعوا عن الظلم والاضطهاد، وفسحوا المجال لأمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام بممارسة دوره بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، لما بقي على وجه الأرض كافر، لأنّ الإسلام الذي يطبّقه عليّ بن أبي طالب ويحكم هو به هو الإسلام الحقّ وإنّما هو ضياء ورحمة للعالمين[١]، وكلّ من لم يكن جاهلاً أو معانداً، فمن طبيعته أن يبحث عن الضياء ليهتدي به.

إنّ كلمة الحقّ كثيراً ما تؤدّي بقائلها إلى المشكلات وحتى القتل، كما فعلت مع الشاعر الصنديد دعبل الخزاعي. فما قاله في إمام الجور هارون العبّاسي كان وحده يكفي في تعريض حياته للخطر، فاضطرّ إلى

---

(١) لقوله صلى الله عليه وآله في علي سلام الله عليه: «علي مع الحق والحق مع علي، اللهم أدر الحق معه حيثما دار».

هذا الحديث مما اتفق عليه المخالف والمؤالف. رواه ابن طاووس في الطرائف: ١٠٢ وابن عساكر في تاريخ دمشق: ٣٠/ ٦٣ وغيرهما.

التشرّد والتخفّي بين البلدان، بسبب قوله:

قبـران[1] في طوس خير الناس كلهم
وقـبـر شـرّهـم، هـذا مـن الـعـبـرِ

لا ينفع الرجس من قرب الزكي ولا
على الزكيّ بقرب الرجس من ضررِ

حتى قال في مناسبة: أحمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة، لست أجد أحداً يصلبني عليها[2].

وفي الزهراء قدوة

روى أصحاب الحديث ومن مختلف الطرق إسرار رسول الله صلى الله عليه وآله إلى بضعته الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها حين دنت وفاته وقوله لها: «ليس أحد من نساء المسلمين أعظم رزية منك»[3].

وليس سبب هذه الرزية ـ كما تشهد بذلك الوقائع التاريخية كافّة ـ سوى قولها كلمة الحقّ في باكورة الخيانة الكبرى التي أفرزتها السقيفة، وبعد أن علم مناوئوها باستعدادها وإصرارها على قول كلمة الحقّ وعدم اكتراثها بمن يتنازل أو ينهزم؛ خوفاً أو طمعاً بمن صيّر نفسه إماماً للمسلمين وهو الذي صرّح بنفسه في أكثر من مناسبة «ولّيتكم ولست بخيركم»[4]، ناهيك عن صنوه وقرينه الذي كشف عوراته للناس عندما

(١) ويقصد قبر الإمام علي الرضا سلام الله عليه وقبر هارون العباسي القريبين من بعضهما.

(٢) الغدير: ٢ / ٣٦٩.

(٣) الآحاد والمثاني: ٣٦٩ ح ٢٩٧٠.

(٤) انظر كنز العمّال: ٥/ ٦٣٦ رقم ١٤١١٨ والقرطبي في تفسيره: ٣/ ٢٦٢ من تفسير الآية ٢٥٣

أعلن سراً وجهراً بأنّ جميع الناس بمن فيهم النساء أفقه منه[1]، وهو الذي أصدر حكم الإعدام الجماعي ضدّ كلّ من كان طوله يقلّ عن خمسة أشبار[2].

ترى، لماذا رزئت الصديقة الزهراء سلام الله عليها وهي سيّدة نساء المسلمين والعالمين، بل كيف ولماذا تكون رزيّتها الأعظم من بين سائر النساء المسلمات؟

ذلك لأنّها تحمّلت مسؤولية الحفاظ على الإسلام مع زوجها الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه، عملاً بوصية أبيها صلى الله عليه وآله وذلك عبر كلمة الحقّ التي قرعت بها سمع حشود المسلمين الذين قلبوا لوصيّ المصطفى ظهر المجنّ، حتى أنّها اضطرّت سلام الله عليها إلى مصارحة عدوّها بالحرف الواحد حين قالت له: «**والله لأدعونّ الله عليك في كلّ صلاة**»[3].

من سورة البقرة، وهو مشهور. كما يذكر الرواة أنّه قال: «والله لوددت أنّي كنت شجرة في جانب الطريق مرّ علي جمل فاخذني فادخلني فاه فلاكني ثمّ ازدردني ثمّ أخرجني بعراً ولم أكن بشراً». منهم المتقي الهندي في كنز العمّال: ١٢/ ٥٢٨ رقم ٣٥٦٩٩ والمصنّف لابن أبي شيبة: ٨/ ١٤٤ رقم ٧ وغيرهم.

(١) روي أنّه لمّا أراد أن يمنع المغالاة في مهور النساء تصدّت له إحدى المسلمات فقالت: يابن الخطّاب! الله يعطينا وأنت تمنع. وتلت هذه الآية: ﴿**وآتيتم إحداهن قنطاراً**﴾ فقال: كلّ الناس أفقه من عمر. (راجع الرازي في تفسيره الكبير: ٩/ ١٣ مورد الآية ٢٠ من سورة النساء).

(٢) انظر كتاب سليم بن قيس: ٢٤٨، وفيه: أنّ عمر بن الخطاب بعث إلى واليه على البصرة أبي موسى الأشعري حبلاً طوله خمسة أشبار وقال له: «أعرض من قبلك من أهل البصرة، فمن وجدته من الموالي ومن أسلم من الأعاجم قد بلغ خمسة أشبار، فقدّمه فاضرب عنقه» ثمّ إنّ الأشعري راجع عمر وخوّفه من تفرّق الناس عنه... فكفّ عمر عن ذلك.

(٣) بيت الأحزان: ٨٤ في امتناع علي سلام الله عليه بيعة أبي بكر، والامامة والسياسة: ١/ ٣١ في اباية علي سلام الله عليه بيعة ابي بكر.

ما أعظم رزيّتها سلام الله عليها وهي تتخطّى الرقاب لتدلي بخطبتها، وما أعظمها من كلمة حقّ عند إمام جائر، قد صدرت ممّن يغضب الله لغضبها ويرضى الله لرضاها[١]، لترسم لنا بذلك خطّ الإسلام الأبيّ، وتقول للتاريخ والأجيال: هذا هو الإسلام الأصيل الذي بُعث به أبي صلى الله عليه وآله.

فالتوفيق لقول الحقّ إن عزّ وندر، يعدّ من علامات التقوى وزينتها والصلاح وحليته، كما قال الإمام السجّاد سلام الله عليه، ويتحقّق ذلك بالطبع ضمن شروط وحالات حدّدتها كتب الفقه في مظانّها.

والمعرضون عن إظهار قول الحقّ حين يحقّ بوجه الجبابرة والطغاة، لا يُعدّون من الصالحين والمتّقين، وإن كانوا يصلّون ويصومون، لأنّهم بإعراضهم يداهنون الظالمين الجائرين الذين لا يهمّهم صلاة من صلّى أو صوم من صام، بقدر اهتمامهم بالطاعة وإبداء الصمت والتسليم لهم من قبل رعاياهم.

إنّ مولاتنا فاطمة الزهراء سلام الله عليها آلت على نفسها إلاّ قول الحقّ بوجه إمام الجور بل أئمّة الجور، وإن كان يستجلب لها الظلم من قبلهم وسلبها راحة العيش. والأمر هكذا قد تمّ فعلاً بعدما أنهت خطبتها حتى وصل الحال بهم أن صنعوا ما صنعوا، مما يعرفه الكُلّ.

فالتمسّك بقول الحقّ هو من أساس التقوى والصلاح، خصوصاً حينما يقلّ ناصروه ويكثر مناوئوه ويعزّ قائله ويكثر الصامت عنه.

---

(١) روى الهيثمي في مجمع الزوائد: ٩/ ٢٠٣، والدولابي في الذرية الطاهرة: ١١٩، والطبراني في معجمه الكبير: ١/ ١٠٨ ح١٨٢، وابن الأثير في أسد الغابة: ٥/ ٥٢٢. وغيرهم فضلاً عن الخاصة ما تواتر عن رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله لبضعته الزهراء سلام الله عليها: إنّ الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك.

استقلال الخير واستكثار الشرّ

من المسائل التربوية الأساسية هي أن يستقلّ الإنسان الخير الصادر عنه، وأن يستحضر هذا المعنى دائماً ويلقّن به نفسه باستمرار، وأن يلاحظ اللوازم التي أدّت إلى صدور فعل الخير منه، فلا يعتبر سهمه في إنجازه.

وحريّ بالإنسان المؤمن أن يوكل تقييم ما أنجزه إلى الله عزّوجلّ، لقوله تعالى: ﴿أَلَم تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكّي مَنْ يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[1].

ليس المقصود من استقلال الخير احتقاره، بل أن يجد الإنسان نفسه أنّه لا يستغني عن الاستمرار في فعل الخير والمواصلة وإن كثر فعله له، لئلا يرى أنّه أتمّ الواجب وزاده.

إنّ الإنسان إذا أصابه هاجس الاستكثار لما فعل من الخير؛ أدّى ذلك إلى الغرور. حتى أنّ بعض الناس يغترّ لمجرّد عمل بعض الصالحات،

---

(١) النساء: ٤٩.

ولذلك فعلى الإنسان أن يعرف بأنّ استقلاله للخير هو بمعنى إيجاده الدافع في نفسه نحو إدامة العمل الصالح والإكثار منه.

ففي طلب الإمام سلام الله عليه، نرى نقاطاً جوهرية؛ وهي:

١. طلب المدد الإلهي.
٢. الكشف عن الطبيعة الإنسانيّة الخاصّة، في هذا الصدد.
٣. قدرة الإنسان على تحقيق هذه المهمّة.
٤. استقلال الخير، قولاً أو فعلاً، في داخل نفوسنا.

كما إنّ استكثار قليل الشرّ واستعظامه يعني إيجاد الرادع الذي يحول دون ممارسة المزيد من الأخطاء، فضلاً عن عدم التجرّؤ على الله عزّ وجلّ عبر استصغار السيّئات والتغافل عنها.

إضافة إلى أنّه ينبغي للعبد أن يراقب الله سبحانه وتعالى في المعصية، بغضّ النظر عن كمّية المعصية ونوعيّتها؛ فلعلّه يؤوب الى رشده ويستعظم في نفسه خطاياه وإن قلّت وصغرت.

فإنّك قد تمزح مزحة بسيطة أو غير مقصودة، أو قد تمسّ بيدك عباءة شخص مّا محاولاً إبعاد شيء عنه، فينزعج لذلك؛ ففي مثل هذه الحالات أيضاً يجب عليك أن تستكثر خطأك وتستعظمه وإن كان غير مقصود.

وهذا الحثّ على متابعة مثل هذه الملاحظات كفيلٌ بأن يصنع من الإنسان موجوداً رهيف الحسّ يشعر بالمسؤولية الدائمة عما يبدر منه من تصرّفات وإن كانت صغيرة أو قليلة، فيتنبّه؛ بينما الغفلة عن الصغائر وعدم الاكتراث بها وإهمالها يمكن أن يُحوّلها إلى كتل كبيرة ـ كما هو الحال في كرة الثلج التي تبدأ حين تدحرجها من قمّة المرتفع بحبات أو

ذرات بسيطة من الثلج لتفاجئ من هم في الأسفل بوجودها الضخم ـ ولذا يجب أن يتنبّه الفرد إلى أنّ عدم استصغار قليل الشرّ بحدّ ذاته يعتبر إصراراً عليه، وهو ما ورد التحذير عنه في كثير من الروايات باعتباره تجرّياً على الله سبحانه وتعالى، والعياذ بالله.

بين الاستقلال والاستكثار

إنّ للمؤمن مع نفسه حالات يمكن من خلالها أن يعلم مدى ارتباطه بالله عزوجل.

مثلاً: لو قُدّر للإنسان أن يصلّي صلاة الليل في ليلة باردة، فذاك فعل خير متميّز يستحقّ عليه جزيل الثواب، ولكي يتعوّد على ذلك ويستمرّ به، عليه أن يستقلّه ويرى أن القسط الأوفر منه هو توفيق الله سبحانه وتعالى، ثمّ نعمه الكثيرة التي هيّأت له إمكانية الأداء.

وكذلك الحال لو بدأ بالسلام على أخيه المسلم أو صام صوماً استحبابياً إلى غير ذلك من الصالحات، فلا ينبغي له استكثاره أبداً.

لا ينبغي الاستهانة بأية سيّئة، مهما كان حجمها وبعدها، فإنّه لو شاء الله عزّ إسمه، لأخذ الفرد على ذلك وأذاقه وبال أمره، لأنّ الخطيئة بغضّ النظر عن حجمها وطبيعتها، هي بمثابة التحدّي والجرأة على الله عزّ وجلّ، من خلال الاستخفاف بتشريعه، وكأنّ الإنسان لدى ممارسته الذنب يريد أن يثبت ـ بطريق باطل ـ وجوده بإزاء وجود الله وجبروته وأوحديّته في حقّ التشريع وفرض الإرادة وبسط المشيئة.

فما هي قيمة الإنسان الذليل الفقير حين يضع نفسه بإزاء خالقه العزيز الغني، كي يسوّغ لنفسه بأن يرتكب ما يرتكب من الخطايا

والذنوب، ثمّ لا يستكثرها ويصرّ عليها مستكبراً جذلاً وكأنّه قد بلغ الجبال طولاً وخرق الأرض قوّةً، وأنّى له التناوش وهو الكائن الضعيف لولا عقله الذي زيّنه به البارئ تبارك وتعالى، وأوجب عليه إعماله لمعرفة قيمته من خلال الاطلاع على خبايا نفسه، وليتسنّى له معرفة ربّه تعالى.

لهذا وغيره يجدر بالإنسان أن يكون حذراً للغاية في موقفه من الخطأ، فيحصي على نفسه كلّ زلّة وهفوة، ضمن برنامج دقيق يقضي بمحاسبة النفس، لئلاّ يتّسع عليه الخرق.

روي أنّ النبي صلى الله عليه وآله نزل بأرض قرعاء، فقال لأصحابه: ائتوا بحطب. فقالوا: يا رسول الله، نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب. قال: فليأت كلّ انسان بما قدر عليه. فجاؤوا به حتى رموا بين يديه، بعضه على بعض.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «هكذا تجتمع الذنوب». ثمّ قال: «إيّاكم والمحقّرات من الذنوب، فإنّ لكلّ شيء طالباً، ألا وإنّ طالبها يكتب ما قدّموا وآثارهم وكلّ شيءٍ أحصيناه في إمام مبين»[1].

وبما أنّ الإنسان مبتلىً بالنفس الأمّارة بالسوء فضلاً عن وسوسة الشيطان اللعين، فإنّه يغفل عن الواجب من محاسبة النفس.

ولأجل ذلك، فهو بحاجة إلى تصميم قاطع، تبعاً لأهمية الموضوع.

ويلزم أن نعلم جميع الواجبات الملقاة على عواتقنا ـ وبالأخصّ تلك التي لا نعيرها أهمية بسبب جهلنا أو تجاهلنا لها ـ والعمل

---

(١) الكافي: ٢/ ٢٨٨ ح٣ باب استصغار الذنب.

بمقتضاها، مثل واجب أداء حقوق الجار وما ينبغي له علينا من العلاقة الطيبة وتفقد أوضاعه والدعاء له، كما كانت تفعل السيّدة الصديقة فاطمة الزهراء سلام الله عليها حيث رُوى أنّه رآها ولدها الإمام الحسن المجتبى عليه الصلاة والسلام في مصلاّها تعبد ربّها وتدعو للجيران حتى طال بها المقام إلى الفجر، فسألها عن سبب اهتمامها الكثير بالجيران وعدم ذكرها لنفسها أو أفراد أسرتها فأجابته قائلة: «الجار ثمّ الدار»[1].

فالكثير من الواجبات المنسية يتوقّع من الإنسان الاهتمام بها لكي لا يفاجأ يوم القيامة بكتاب يحوي كلّ ما غاب عنه أو غيّبه عامداً بنفسه فيتضاعف لديه الإحساس بالندم والحسرة، وقد صوّرت الآية القرآنية هذه الحقيقة: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[2] حين يرى الناس أنفسهم صفر اليدين بسبب ما نسوا من الواجبات أو تناسوه، أو بما استكثروا من فعل الخيرات، حين ألحقوا أعمالهم بالمنّ والأذى، فحبطت أعمالهم وهم لا يشعرون، غافلين أنّ ما كانوا قد فعلوه من الخير إنّما هو بهداية الله تعالى وتوفيقه، فهو الذي زوّدهم بنعمه الجزيلة، وهو الذي هداهم ومهّد لهم السبل وسهّل عليهم فعل الخير.

ولقد نقل لنا التاريخ ما قام به أهل بيت نبيّنا صلى الله عليه وآله في هذا الإطار لنتّخذه نبراساً تسير وفقه حياتنا الإيمانية، منها ما روي عن الإمام أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه: أنّه كان يسقي بيده لنخل قوم من يهود

---

(١) كشف الغطاء: ٢/ ٣٠٩. محاكاةً لما روي عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في حقّ الجار أنّه قال: «مازال جبرائيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنّه سيورثه» (روضة الواعظين للنيسابوري: ٣٨٧).

(٢) الزمر: ٤٧.

المدينة حتى مجلت يده، ويتصدّق بالأجرة، ويشدّ على بطنه حجراً[١]، ولم يعتبر ما قام به شيئاً.

كما روي عن الإمام الحسين صلوات الله عليه حين قصده فقير، فقدّم له أربعة آلاف دينار ـ ما يعادل عشرة كيلوات من الذهب ـ واعتذر له من وراء الباب على أنّه لو كان باستطاعته تقديم الأكثر لفعل[٢].

وكذلك روي عن الإمام السجّاد وأولاده الميامين سلام الله عليهم هذا السلوك. وهؤلاء هم أئمّتنا الذين يجب أن نقتدي بهم، وهكذا كان علماؤنا رضوان الله تعالى عليهم، فقد كانوا على مستوىً رفيعٍ للغاية من الأدب مع ربّهم، مما يشير إلى وعيهم وإدراكهم حقيقة الحياة ودورهم فيها، فكانوا يستقلّون الخير المنبعث منهم ويستكثرون الشرّ الصادر عنهم ويقدّمون خدمتهم للآخرين على طبق من الإخلاص، ولا يلحقون بما قدّموا منّاً ولا أذىً ولا عجباً ولا رياءً، كما كانت عبادتهم الغاية في الكثرة واليقين، ومع ذلك لم يستكثروها، فكانوا النموذج المثالي لذلك.

استقلال الخير

يطلب الإمام زين العابدين سلام الله عليه من الله سبحانه وتعالى، ويعلّمنا أيضاً أن نطلب منه عزّ وجلّ أن يخلق في نفوسنا حالة استقلال ما يصدر منّا من الخير، فلا نستكثره فنتوقّف عنده، وإنّما نستعينه تبارك وتعالى ليجعل فينا حالة الإصرار على الأعمال والأقوال الصالحة، لنكون بمثابة

---

(١) راجع الأربعين للقمّي الشيرازي: ٤١٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٢٢٢.

شعلة دائمة التوهّج، عميمة النور وكذلك نطلب من الله سبحانه، أن يجعل في ذواتنا حالة استكثار الأعمال والأقوال الطالحة التي ربما تصدر ـ لا سمح الله ـ منّا.

وهذا الشعور ينبع من إدراك الإنسان بأنّ ما قدّمه ويقدّمه من الصالحات قليل، لعدم تناسبه مع ما ينبغي له من السموّ في فعل الخير والصلاح.

والإنسان إذا ما استطاع السير في طريق استقلال الخير واستكثار الشرّ، فإنّه سيصل إلى واقع آخر، وهو شعوره بالتقصير والعبودية في آن واحد أمام ربّه العزيز فيزداد تعلّقه بربّه ليرتقي الى مراتب من السموّ والكرامة الحقيقية، كما تحقّق ذلك للأولياء والصالحين ممّن أنعم الله عليهم وأكرمهم بكرامة القرب منه.

استكثار الشرّ

أمّا المطلب الثاني الوارد في الدعاء، فهو الطلب من الله تعالى أن يخلق فينا الشعور باستكثار الأعمال والأقوال الشرّيرة وإن كانت ضئيلة، ليكون هذا الشعور رادعاً يحول دون تمادينا في باطل الحياة الذي يؤول بالإنسان إلى عقاب الله وعذابه الشديد.

فالإنسان حينما يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يعطيه ملكة استكثار الشرّ وإن قَلّ، يكون قد سلك شيئاً طريق استقباح كلّ شرّ، وهذا ما يؤدّي به تدريجاً إلى الامتناع عن كلّ شرّ وإن قلّ وصغر.

ولعل هذه الحالة النورانية هي التي بلغت ببعض الأولياء والصالحين إلى طيّ المسافات بعد تجشّم العقبات ليبلغوا عند عتبات العصمة التي

تمثّل الذروة فيما يمكن للإنسان ـ من غير النبي والأئمّة ـ أن يبلغها، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى، فإنّ مرتكب الشرّ والجريرة ينبغي أن يعلم بأنّه إنّما يسيء لما استخلفه الله عليه، باعتبار أنّ الله سبحانه وتعالى هو المالك الحقيقي لكلّ شيء ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[1]. فنفس الإنسان وكيانه ووجوده ملك صرف لله تعالى وحده، وهذا الملك صائر وراجع إليه دون سواه، وعليه؛ فابن آدم مدعوّ إلى مراجعة نفسه ومحاكمتها على ما ارتكبته من شرّ فيما لا تملك؛ إذ ارتكاب الشرّ يعني ـ جملةً وتفصيلاً ـ تجاوزاً وانتهاكاً لحرمة الخالق وسلطته على مخلوقاته، والتي في ضمنها الإنسان نفسه، وسائر ما يحيط به.

لذلك فإنّ الذنب مهما تضاءل في نظر صاحبه، فهو كبير في مقياس العبوديّة فضلاً عن أنّه يعدّ استخفافاً يجرّ إلى استسهال التجرّي على العصيان، وبالتالي يرى الإنسان نفسه أداة طيّعة لمختلف حالات الإجرام والمعاصي.

فالمفترض بالإنسان أن يقطع الطريق على وساوس نفسه وما يملي لها الشيطان، لئلا يقع فيما لا يحمد عقباه، فيستشعر فداحة ما يصدر عنه من الأخطاء التي منعه الشارع المقدس عن الوقوع فيها.

هل يصدر الشرّ من الإمام ليستكثره؟!

لقد ثبت بالأدلّة النقلية والعقلية القطعية عصمة أئمة آل البيت عليهم

---

(١) البقرة: ١٥٦.

الصلاة والسلام ومنهم الإمام زين العابدين سلام الله عليه، ومما لا شك فيه عدم صدور الشرّ من الإمام، والإمام السجّاد سلام الله عليه ـ شأنه شأن سائر أهل البيت صلوات الله عليهم ـ لا يصدر عنه ترك الأولى، فضلاً عن ارتكابه الشرّ والعياذ بالله[1].

فطلبه سلام الله عليه من الله تعالى أن يدفعه عن استكثار الشرّ، وأن يجعل فيه حالة استقباح الباطل وكرهه له، ينبغي النظر إليه بملاحظة سائر الجهات أي: بمنظار أوسع.

فمن تلك الجهات هي أنّ الإمام يهدف إلى إرشاد وتوجيه المؤمنين إلى أن يطلبوا من الله ذلك، وكأنّه في هذا المقام يوحي إلى قارئي هذا

---

(١) قد يقال إنّ طلب الإمام هذا من قبيل القضية الشرطية، التي تكون صادقة حتى مع عدم صدق الطرفين ـ الشرط والمشروط ـ وقد ورد في القرآن الكريم نماذج عديدة لذلك؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ (الزخرف: ٨١) والحال أنّه لا ولدَ لله تعالى، ولا النبي بعابد لذلك الولد. أو قوله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ (الحشر: ٢١) بينما لم يحمّل الله الجبل مسؤولية وأمانة حمل القرآن، ولم يتصدّع الجبل. ولكن المهمّ في الأمر هو وجود قضية شرطية وهي قضية مجرّدة تسبح في آفاق الذهن، ولا وجود لمصداق خارجي لها.

فمثل هذه العبارة إن صدرت عن معصوم فإنما تدلُ على نوع من التوجّه الاكثر إلى الله تعالى، الغرض منها طلب المزيد من القرب إليه سبحانه، لما يشعر به المعصوم من قصور لأداء الأعمال والعبادات اللائقة بالربّ العزيز.

ويمكن أن يقال أيضاً: إنّ الإمام لم يقيّد تعبيراته بالتقصير. يقول سلام الله عليه ضمن دعاء آخر: «خيرك إلينا نازل وشرّنا إليك صاعد» (الصحيفة السجادية، ضمن دعائه في أسحار كلّ ليلة من شهر رمضان) وإن كان يمكن توجيه العبارة كالتالي: أي عجزنا عن أداء حقّ عبادتك، إليك صاعد، فما يصدر منك هو الخير، وما يصدر عنّا هو العجز، الذي يعبّر عنه الإمام بكلمة الشرّ.

الدعاء بضرورة الانتباه وتمييز الحالات النفسية في ذات كلّ إنسان لدى قيامه بعمل الخير أو الشرّ، كما تقدّمت الإشارة إليه.

ومن تلك الجهات أنّ الإمام يخاطب الربّ بلسان المخلوق الذي لا تنفكّ عنه لوازم المخلوقية، ومنها العجز، فإنّ المعصوم وإن كان أعلى من غيره بفاصلة غير متصوّرة، ولكن هذه الفاصلة تبقى دون الفاصلة اللامحدودة بين الخالق والمخلوق. فمن لوازم المخلوق العجز والمرض، والإرهاق والتعب، لذلك فإنّ المعصوم مع تلك الطوارئ التي تعرض عليه كإنسان يجد نفسه قاصراً تجاه أداء حقّ العبوديّة لله تعالى وإن كان معذوراً.

لقد جاء في رواية سماعة أنّ الإمام الصادق سلام الله عليه قد حال المرض بينه وبين الصوم لمدّة ثلاث رمضانات متتالية لم يصم فيهنّ ثمّ أدرك رمضاناً، قد عافاه الله فيه، فصامه وتصدّق بدل كلّ يوم ممّا مضى بمدّ من الطعام[1]. فكأنّه سلام الله عليه يشعر في مثل هذه الحالة بالتقصير وإن رُفع عنه التكليف بسبب مرضه.

وإذا أردنا أن نضرب لذلك مثلاً، نقول:

إذا سيطرت عليك رغبة قويّة لرؤية إمام العصر؛ الحجّة المنتظر عجّل الله تعالى فرجه ولو لدقيقة واحدة، ثمّ بحثت عن وسيلة تحقّق ذلك، فقيل لك: إنّ وسيلة ذلك هي أن تعمد إلى أنواع خاصّة من العبادة، بواسطتها يستجيب الله تعالى لطلبك في رؤية الإمام، وفعلاً بدأت تلك العبادة

---

(١) تهذيب الأحكام: ٤/ ٢٥١، ح٢١، باب ٦٠ ـ من أسلم في شهر رمضان وحكم من بلغ الحلم فيه ومن مات وقد صام بعضه أو لم يصم منه شيئاً ـ.

والأعمال، ولكنك لم توفّق لرؤيته عجل الله تعالى فرجه الشريف، فأعدت الكرّة، واستغرق منك الأمر أشهراً وسنين مديدة، ولم تفتر فيها عزيمتك أو تخمد رغبتك، ثمّ صادف أن ابتليت بمرض عضال أقعدك عن القيام ورأيت نفسك مجبراً على ملازمة فراش المرض دون أن تستطيع حتى تحريك ساقيك. وفي تلك الأثناء، ظهر لك من كنت تتمنّى رؤيته ولو لدقيقة واحدة ـ وكنت على يقين بأنّ هذه الرؤية ستضمن لك سعادة الدارين الدنيا والآخرة ـ فأردت أن تُظهر له مقدار حبّك وإجلالك له والتعبير عن مدى شوقك إليه، فعزمت على القيام، فعجزت، وأردت أن تجمع قدميك ـ مستجمعاً كلّ قواك ـ احتراماً له، فلم تقدر، إذ ذاك تبادر بالاعتذار إليه، معتبراً قصورك هذا تقصيراً بحقّه وبرفيع منزلته، للعجز من جانبك، الأمر الذي من شأنه أن يقرّبك إلى وليّ الله الأعظم أرواحنا فداه.

فالمعصوم لا يخرج عن كونه إنساناً، علم الله ما سيكون عليه من النزاهة والإخلاص والتقوى، فزاده من فضله ضمن قوانين كتبها سبحانه وتعالى، كما كتب على نفسه الرحمة لخلقه من قبل.

وليس أعظم من نعمة العصمة التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان، فأصبح نبيّاً أو وصيّاً وإماماً، ولذلك فهي ـ نعمة العصمة ـ تستوجب المزيد من الخضوع له تبارك وتعالى، كما تستوجب على المعصوم تحمّل عدم قدرة الإنسان على استيعاب الفاصلة اللامحدودة بين المخلوق وعظمة الخالق وعدم وجود عبادة قادرة على تقليل تلك الفاصلة.

ومن مصاديق ما كان المعصوم يعتبره شراً رغم العذر الشرعي له هو ما ورد في خبر سماعة عن الإمام جعفر الصادق سلام الله عليه.

دوام الطاعة

يوضّح الإمام السجّاد سلام الله عليه بقوله: «وأكمل ذلك لي بدوام الطاعة». أنّ كمال استقلال الخير واستكثار الشرّ يتوقّف على دوام الطاعة، فلا يتوقّف ابن آدم عند حدّ من الحدود في كدحه إلى ربّه عزّوجلّ، بل يسأل ربّه ثمّ يعزم على العمل الطاعة بصورة دائمة، وإن كانت قليلة، فقد ورد في الأثر: «قليل تدوم عليه أرجى من كثير مملول»[1]، والمرء إذا تعوّد فعل الخير وإن قلّ، تاق الى أكثَرَ منه، لما سيشعر بذلك من اللذة، وبما سيتكرّس لديه من الرغبة في الحصول على الجزاء الأوفى.

قصّة الابتلاء وعبرة الإجابة

نقل لي من أثق به عمن أعرفه - وقد توفّاه الله سبحانه - أنّه كان بصدد تأليف كتاب في الدفاع عن مقام أهل البيت عليهم الصلاة والسلام وإثبات حقّهم، فانشغل بجمع المصادر، حتى أوقفته الحاجة إلى أحد الكتب المهمة، فبحث عنه بحثاً كثيراً، لكن دون أن يوفّق للعثور عليه، فرأى أن يذهب إلى مرقد أمير المؤمنين سلام الله عليه وأن يتوسّل به ليهيّئ له وسيلة العثور عليه، وطال توسّله أشهراً، وهو خلال ذلك لم يكلّ عن البحث عنه في المكتبات.

يقول: وذات يوم كنت قرب ضريح أمير المؤمنين صلوات الله عليه، واضعاً عباءتي على رأسي ـ وكانت هذه الهيئة منه لئلاّ يشغله شيء عن توجّهه ـ منشغلاً بالدعاء إلى الله تعالى والتوسّل بالإمام ليرشدني إلى ضالّتي،

---

(١) نهج البلاغة: ٤/ ٦٨، رقم ٢٧٨.

سمعتُ صوت رجل قرويّ قريب منّي يكثر الإلحاح على الإمام في أن يجيبه لما يريد، وقد ضمّن كلامه كلمات حادّة وفيها تهديده بعزمه على عدم زيارة الإمام أبداً إذا لم يُجبه.

قال: فتأثّرت لذلك كثيراً، وهالني هذا الأسلوب الفضّ في التحدّث مع سيّد الأوصياء وأمير المؤمنين سلام الله عليه، وأردت أن أعاتب الرجل وأؤنّبه عما بدر منه، ولكنّي أحجمت عن ذلك، وقلت في نفسي إنّ الإمام أعرف بلسان الرجل.

قال: بعد أيام قلائل وبينما كنت عند الضريح مستمرّاً في توسّلي بالإمام إذ سمعت الرجل نفسه وقد بدت على كلامه أمارات السرور، وهو يضفي للإمام عبارات المدح والثناء بأسلوبه الخاص، وكأنّ الإمام قد قضى له بإذن الله حاجته. فتأثّرت في نفسي من سرعة الإجابة لهذا الرجل القرويّ في شأن من شؤون الدنيا، بنما أتعرّض للإهمال في ما نويت فيه الدفاع عن حقّ أهل البيت.

فقلت ذلك لأمير المؤمنين، لكن ندمت بعده، وعدت إلى البيت غارقاً في التفكّر ولم أعد أشتهي تناول الطعام وقد هجرني النوم.

وحين الصباح جلست إلى أوراقي لكي أكتب شيئاً، والضجر يملأني، جاءني ابني ليقول لي: بأن رجلاً ـ كان جاراً لنا قديماً حيث كنا نسكن في منطقة أخرى ـ يريد رؤيتي. فقلت له بأن يسمح له بالصعود إلى غرفتي.

وحينما استقرّ به المكان قال لي: إنّ سبب زيارتي لكم هو أنّنا انتقلنا من المحلّ الذي كنّا وإيّاكم فيه، إلى بيت آخر، وحين انشغالنا بتنظيف البيت رفعتُ ولدي إلى أحد الرفوف لينظّفه، فوجد فيه كتاباً قديماً، فنزل

به وأنا لا أعرف القراءة والكتابة، فرأيت أن آمره بوضعه في مسجد المنطقة ليستفيد منه الآخرون، ولكنني غيّرت رأيي حينما تذكّرتك وقرّرت أن آتيك به. فبحثت عنك، إلى أن وجدت دارك، وها هو الكتاب.

قال: فتناولت منه الكتاب وفتحته، فإذا نفس الكتاب الذي استغرقت في البحث عنه أشهراً، فأسقط في يدي، وتأكّدت من أنّ الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه إستجاب لطلبي، ولكن بعد مدة.

والسبب في تأخير الإجابة، رغم قدرة الإمام ـ بإذن الله تعالى ـ عليها فوراً، هو الإمتحان أحياناً، قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾[١] بمعنى أنّ لكلّ امرئ امتحانه وبلاءه ليثبت جدارته ويرفع من منزلته عبر الاستمرار في الطاعة والإلحاح في الدعاء الذي هو عبارة عن وسيلة لتقوية علاقة العبد بخالقه من جهة، ولكي يشمل الله سبحانه عبده بمزيد من العناية والرحمة من جهة أخرى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُم﴾[٢].

إغتنام الفرص

من الضروري اغتنام الفرص الحسنة للاستزادة من العبادة والطاعة، لاسيما أيّام شهر رجب الأصبّ[٣] وشهر شعبان المعظّم وشهر رمضان

(١) العنكبوت: ٢.

(٢) الفرقان: ٧٧.

(٣) روي عن أبي عبد الله سلام الله عليه أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ... وسمّي شهر رجب الأصبّ، لأن الرحمة تصبّ على أمّتي فيه صبّاً. (الحدائق الناضرة: ١٣/ ٤٥٣).

المبارك، ليكرّس فيها الإنسان ما يملك من قوّة ليعي العبادة ويقوم بأدائها حق الأداء بالإضافة إلى مواصلة مهمّة محاسبة النفس، كما أمرت بذلك الأحاديث والروايات الشريفة التي نقلها كبار علمائنا في كتبهم؛ فقد ورد عن أهل البيت صلوات الله عليهم أنّ الله يجزي عامل الصالحات والمحاسب لنفسه من الجزاء - خاصّة في هذه الأشهر المباركة، ومنها شهر رجب الأصبّ الذي تُصبُّ فيه الرحمة والبركة على رؤوس العباد صبّاً- ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشرٍ.

والورع عن محارم الله من الأمور الموصى بها في هذه الأشهر خاصّة، الأمر الذي يستلزم معرفة المحرمات أوّلاً. وبالورع تقلّ نسبة الحسرة في يوم القيامة بعد ما يُرى ما يناله المتّقون مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وهدا كلّه يكون بالخروج من الامتحان الإلهي بنجاح.



اللهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاجْعَلْ أوْسَعَ رِزْقِكَ عَلَيَّ إذا كَبِرْتُ، وَأقْوَى قُوَّتِكَ فِيَّ إذا نَصَبْتُ، وَلا تَبْتَلِيَنّي بِالْكَسَلِ عَنْ عِبادَتِكَ وَلا الْعَمَى عَنْ سَبِيلِكَ، وَلا بِالتَّعَرُّضِ لِخِلافِ مَحَبَّتِكَ وَلا مُجَامَعَةِ مَنْ تَفَرَّقَ عَنْكَ، وَلا مُفَارَقَةِ مَنِ اجْتَمَعَ إلَيْكَ...

☑ أوسع الرزق وأقوى القوّة

☑ الابتلاء بالكسل عن العبادة والعمى عن سبيل الله

☑ عدم التعرّض لخلاف محبّة الله



أوسع الرزق وأقوى القوّة

يسأل الإمام من الله تعالى سعة الرزق حبن الكبر، وأقوى القوّة حين النصب. ولاشكّ أنّ رزق الإنسان على الله في تمام عمره بل كلّ مخلوق رزقه على الله تعالى؛ ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأرض إلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾[1].

والرزق قد يكون موسّعاً وقد يكون مضيّقاً. وحيث إنّ قوى الإنسان تضعف في الكبر عادة، الأمر الذي يؤدّي الى ضعفه عن الحركة والنشاط كما كان أيّام شبابه، لذلك فإنّه غالباً ما يحتاج إلى من يعينه ويأخذ بيده للقيام بأكثر أموره ومنها الحصول على رزقه. فإذا كان الرزق واسعاً كانت الحاجة إلى المساعدين أقلّ، والعكس بالعكس، وليس كلّ إنسان يتمكّن من تحصيل من يساعده في تمام شئونه، حال شيخوخته. لذلك ترى الإمام سلام الله عليه يخاطب ربّه الجليل ويطلب منه أن يجعل أوسع رزقه له أيّام كبره وشيخوخته ليكفيه مُؤنه ولا يكله إلى غيره، لأنّه أحوج ما يكون لسعة الرزق في تلك الفترة؛ لضعفه عادة وصعوبة تحصيل من يقدّم له العون بلا منّة أو أذى.

---

(١) هود: ٦.

بحث في الرزق

هنا ملاحظتان:

الأولى: إنّ الرزق قد يكون بالمعنى الأخصّ وهو الرزق المادّي، وقد يكون بالمعنى الأعمّ وهو ما يشمله وبشمل الرزق المعنوي أيضاً، ولعلّه هنا يُراد به المعنى الثاني، أي الأعمّ.

الثانية: إنّ الإمام أضاف الرزق إلى الله تعالى، فقال: «أوسع رزقك» ـ وإن كان يصحّ نسبته إلى نفسه أيضاً باعتبار آخر، أي الحصّة التي قسم له منها ـ فإنّ الرزق يصدر عن الله تعالى ثمّ يصير إلى العبد، ولذلك يصحّ التعبير «رزقك يا إلهي وقوّتك» وأيضاً: «رزقي»، ويراد به «الرزق الذي أنت منحتنيه يا إلهي» لمناسبة دخول باء المتكلّم هنا كما ورد في بعض الأدعية.

إذاً لماذا عدَل الإمام ـ في هذا الدعاء ـ إلى التعبير الأوّل وهو «رزقك»؟

ما يمكن استفادته في المقام أمران:

الأول: استبطان الشكر في هذا التعبير. أي أنّه أُشرب معنى الشكر من خلال الاعتراف بأنّ الرزق إنّما هو منَ عند الله تعالى دون سواه. فتارة يطلب العبد من مولاه أن يوسّع عليه ما قسم له من الرزق فيقول: أوسع عليّ في رزقي. أي الرزق الذي قسمته لي، وتارة يقول له: أوسع عليّ من رزقك. ولاشكّ أنّ المصداق في التعبيرين واحد؛ لكن في التعبير الثاني لحاظ الصدور. فقوله «رزقك» يكون مشرباً بذلك المفهوم وإن لم يرد في اللفظ فلم يقل: «رزقي الصادر منك» بل ارتقى وقال:

«رزقك» ليؤكّد على اللحاظ الثاني، وهو جهة الصدور، ويصرف الذهن عن اللحاظ الأوّل وهو جهة الوصول.

الثاني: إنّ هذه الإضافة إلى الله سبحانه تعني اعترافاً من قبل الداعي بأنّه لا حقّ له على ربّه، بل الله هو المبتدئ بالإنعام، كما أنّها تشير ـ من ناحية أخرى ـ إلى سعة الرزق عندما تنسب إلى الخالق سبحانه؛ فإنّ الرزق إذ لوحظ من حيث نسبته إلى الله تعالى فسيأخذ آفاقاً واسعة لاتحدّها الحدود لأنّه سيشمل كلّ المخلوقات، وحيث إنّ الحديث عن أوسع الرزق فناسبه قوله سلام الله عليه: (من أوسع رزقك).

يقول أهل اللغة إنّ الرزق مصدر مضاف، وإن المضاف يتّسع ويضيق بسعة المضاف إليه وضيقه. فإذا أُضيف إلى العبد فيكون بقدر ما قسم الله له، ولكن إذا أضيف إلى الله تعالى كان بعدد ما لا يحدّ ويحصى.

نكته أدبية

أمّا استخدامه صلوات الله وسلامه عليه لمفردة (عليّ) عوضاً عن كلمة (إليّ) في قوله: «أوسع رزقك عليّ..» فإنّما يشير إلى أدب بالغ يهدف الإمام من ذكره أن الإنسان المؤمن يحسّ بالصغر أمام عظمة الله عزّوجلّ، فهو سلام الله عليه يصوّر للداعي حالة الرزق وهو ينزل من العالي وهو الله تعالى إلى الداني وهم خلقه، فيكون مثله كالشلال الذي ينزل على من يقف تحته ويغمره. فاستفادة الداعي من كلمة (عليّ) لدى مخاطبة ربه الجليل يوحي: بأنّك يا إلهي وحدك العالي، وما يصدر عنك إنّما يصدر من علوّ مكانك وشرافة قدسك، إلى دنوّ مكاني وضعة نفسي، فأنا عبدك الذي لا

يملك لنفسه سوى ما يهبط عليه من فضلك، فضاعف يا إلهي من رزقك عليّ إذا ما تضاعفتْ حاجتي حين الكبر.

القوّة والنصَب

يقول الإمام سلام الله عليه أيضاً: «**وأقوى قوّتك فيّ إذا نصبت**».

النصب: التعب والإعياء، وهو أعمّ من التعب الناشئ عن مزاولة بعض الأعمال، فقد ينتج التعب عن تقدّم الإنسان في السنّ أو التعرض لمصاعب الحياة، وقد يكون نتيجة الفقر سيّما إذا كان المبتلى به عزيز النفس يصعب عليه الاقتراض فضلاً عن الاستعطاء، بل قد يتوسّع مفهوم النصب ليشمل ضعف النفس أو ما ينتج عنها، الأمر الذي يُقعد الإنسان ويعيقه عن الحركة والنشاط؛ باعتبار أنّ قوّة الإنسان الحقيقية تكمن في قوّة النفس، والعلاقة بينهما طردية. فتمتّع النفس بالقوّة والنشاط يعني تمتّع سائر بدن الإنسان بهما، والعكس بالعكس. وقد رأينا نماذج كثيرة من أنّ الوازع النفسي يعمل على تنشيط المُقعد من الناس، وكيف أن التثبط النفسي يُقعد عن الحركة صاحب البدن السليم النشط.

فمثلاً لو أنّ شخصاً كان مرهقاً لأنّه لم ينم منذ يومين ـ ولاشكّ أنّ النوم أحبّ إليه من أي شيء في تلك الحالة ـ وكان على وشك أن ينام إذ طرق باب داره شخص عزيز عليه لم يره منذ فترة طويلة وكان يتمنى رؤيته، أترى كيف يزول عنه إحساس التعب والإعياء، وربما يجلس للحديث معه حتى الصباح دون أن يحسّ حتى بمرور الوقت، وهذا إنّما يدلّ على أنّ العامل النفسي تغلّب على العامل البدنيّ.

وفي هذه الجملة من الدعاء يطلب الإمام السجّاد سلام الله عليه من الله

سبحانه، ويعلّمنا أيضاً أن نطلب منه أن يرزقنا أقوى القوّة حين النصب والإعياء.

ولعلّ من جملة ما يقصده الإمام في طلبه هذا هو أن يُحدث اللهُ تعالى في نفس الداعي التوازن في كلّ أبعاده المادّية والمعنويّة، بمعنى أنّه متى ما حلّ فيه النصب النفسي وما يتبعه من تعب جسميّ، أسعفته القوّة الربانية لتعيد له توازنه، فيبقى إنساناً متعادل الجوانب، سواء على صعيد المشاعر والأحاسيس أو الأقوال والأفعال.

فقد ورد في الحديث عن الصادق سلام الله عليه، في ذكر المؤمن وصفاته المتميّزة، ومنها صفة عالية لا يمكن للإنسان الاتصاف بها مالم تكن له خلفيّة إيمانيّة كثيرة؛ يقول سلام الله عليه: «وإن تداكّت عليه المصائب لم تكسره»[1].

هذا الحديث الشريف هو في سياق بيان مسؤولية الإنسان في إحراز قوّة روحية تكفل له مقاومة المصائب وإن تكاثرت وتوالت عليه، فلا ينهزم ولا ينكسر ولا يجزع في أوّل اختبار له. فالدنيا دار بلاء وتعرّض للنوائب والمصائب، فالمطلوب منه الصلابة والاستقامة والوقوف بوجهها عبر ما أعدّ من قوّة نفسية تؤهّله لإنجاز مهمّته في الحياة وإثبات جدارته وأهليّته ليكون حقّاً خليفةً لله في أرضه، وليكون النموذج الأمثل الذي يستحقّ الأجر والثواب في الآخرة.

وخير مصداق لهذه الحقيقة ما نقل عن الإمام الحسين صلوات الله وسلامه عليه في يوم عاشوراء حين تداكّت عليه المصائب والرزايا بكلّ صورها،

---

(١) الكافي: ٢/ ٨٩ ح٦.

حيث وصفه عبد الله بن عمّار بقوله: ما رأيت مكثوراً قطّ قد قُتل ولده وأهل بيته أربط جأشاً منه[١].

فالإمام الحسين سلام الله عليه كان في يوم عاشوراء حتى الساعات الأخيرة من المعركة طبيعيّ المظهر، لا يعبأ بحقد الأعداء وتكالبهم عليه، فكان يقاوم ما قد حلّ به من المصائب الكبرى والرزايا العظمى التي لم تكن قد نزلت بأحد غيره، فكان قدوة للمؤمنين في الثقة بالله تعالى.

الخلاصة: إنّ التغلّب على المتاعب والمصائب لا يتأتّى إلا بممارسة الرياضة النفسية من خلال الورع والاجتهاد، ولعلّ من مفاتيح تلك الرياضة الأدعية المأثورة عن أهل البيت سلام الله عليهم والتي تمثّل في الحقيقة أعظم كنز لمن أراد الاستفادة منها في تقوية نفسه لمواجهة ما يمكن أن يصدر عنها من سوء بسبب وساوس الشيطان ومصائب الحياة الدنيا ورزاياها.

---

(١) مثير الأحزان لابن نما الحلي: ٥٤.

الابتلاء بالكسل عن العبادة والعمى عن سبيل الله

أصل الابتلاء في اللغة من «بلِيَ، يَبْلَى، بِلَىً... الثوب وبلاءً، إذا صار خَلقاً، فهو، بالٍ، أي خَلقٌ، رثٌ.

والبلوى والبلوة والبليّة جمعها بلايا: المصيبة والغمّ؛ كأنّه يبلي الجسم. والابتلاء: الاختبار بها[1].

أمّا بلا يبلو (من باب نصر ينصر) فهو بمعنى الاختبار، ويكون في الخير والشر؛ قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[2].

وقيل: الابتلاء: هو الاختبار مع شدّة؛ لأنّ أهل اللغة يقولون: إنّ الزيادة في المباني تدلّ على زيادة في المعاني.

وقيل أيضاً: إنّ هناك علاقة بين البلى (من بلي يبلى) والبلاء (من بلا يبلو) لأنّ هناك ترابطاً في المعنى بين الكلمات التي تتألّف مصادرها

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور: ١٤/ ٨٥ (مادّة بلا).

(٢) الأنبياء: ٣٥.

من ذات الحروف، وإن كانت من أبواب مختلفة ولها معانٍ مختلفة.

ومن ثمّ فإنّه يمكن أن يكون هناك تناسب بين البلاء والبلى، فكأنّ الإنسان الذي يقع عليه البلاء يبلى جسمه، وقد تبلى نفسه أيضاً إن لم يصبر، ومن ثمّ فإنّ ضغط البلاء يجعله خلِقاً بالياً، فكما أنّ الثوب إذا استعمل باستمرار بلي، كذلك الإنسان الذي يعرّض للبلاء يبلى، إلاّ إذا كان مستعيناً بالله تعالى، فكثرة الضغط لا تثنيه ولا تبليه بل تزيده صلابة وقوّة، تماماً كالذهب كلّما تعرّض للنار إزداد جلاءً، بينما غيره يسودّ.

وهكذا هو حال الانسان إذا تعرّض للبلاء يُكشف عن معدنه، فإن كان غير مؤمن بالله بلي، وإن كان مؤمناً زاد إشراقاً.

الكسل عن العبادة

إنّ من مصاديق الكسل كثرة النوم والقعود عن أداء الواجبات في العبادة ـ بالمعنى الخاصّ والعامّ ـ وسيطرة حالة الاتكالية التي من لوازمها انعدام الطموح، والرغبة عن التقدم والانطلاق، لما أعدّ الله تعالى من نعيم الآخرة لعباده الصالحين.

ومع أنّ الله تعالى يقول في محكم تنزيله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [1] بمعنى أنّ الهدف من خلق الإنسان هو أن يعبد الله سبحانه، إلا أنّ أغلب الناس يكسلون عن أداء حقّ العبادة التي خلقوا لأجلها، فترى كثيراً منهم نشطاً في سائر مجالات حياته، ولكن ما إن يصل وقت العبادة حتى يغلب عليه الكسل والنعاس وكأنّه لم ينم منذ

(١) الذاريات: ٥٦.

ساعات كثيرة، وإذا شرع بالعبادة لا يفكّر إلا في سرعة إتمامها والتفرّغ منها لينشغل بأمور أخرى، فتكون بذلك عنده أقلّ حظّاً من كلّ اهتماماته. والأمرّ من ذلك أنّه حتى هذا المقدار القليل من الوقت الذي يخصّصه للعبادة ينشغل خلالها بالتفكير في أموره الدنيوية.

روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه أبصر رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: **أما أنّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه**[1].

وأكثر الناس مبتلى بهذه الحالة. ولذلك فإنّ الإمام السجّاد سلام الله عليه يلفت أنظارنا في هذا الدعاء إلى هذه المسألة لكي نستعين بالله تعالى في التخلّص منها.

أليس من العجب أن يفكّر الإنسان في الأيّام الباقية من عمره القصير، ولا يفكّر في مستقبله الحقيقي الذي ينتظره في الآخرة.

الاقتداء برسول الله في الاهتمام بالعبادة

إنّ الله تعالى عندما يخاطب نبيّه الكريم في مجال طلب العلم يقول له: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[2]؛ فحتى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بحاجة إلى الاستزادة في العلم، مع أنّه أعلم خلق الله تعالى، ولكن عندما يصل الدور إلى الخُلق الرفيع نراه تعالى يخاطبه بالقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3]. مما يدلّل على أنّ النبي صلى الله عليه وآله قد بلغ القمّة في الخُلق،

(١) مستدرك الوسائل: ٥/ ٤١٧، ح٣، باب كراهة العبث في الصلاة.

(٢) طه: ١١٤.

(٣) القلم: ٤.

حتى روي أنّه ما صافح النبي صلى الله عليه وآله رجلاً قط فنزع يده حتى يكون هو الذي ينزع يده منه[١].

وكذلك صلى الله عليه وآله قمّة في الخلق مع الناس، في كلّ الحالات ومع كلّ الاشخاص، يستوي عنده الفقير والغنيّ والشيخ والشابّ والرجل والمرأة والرئيس والمرؤوس، ولم يكن عنده استثناء إلا في حالة واحدة فقط ـ ولم يُعرف له استثناء غيرها ـ وهي حالة العبادة، فقد روى عنه أصحابه قالوا: «إذا حضرت الصلاة فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه شغلاً بالله عن كلّ شيء»[٢].

فأين نحن من عبادة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فحريّ بنا أن نقتدي به؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٣].

الاستعداد للبلاء

الإنسان عموماً عرضة للبلاء والامتحان: سواء كان في المال أو الجمال أو العلم أو القوّة أو أضدادها؛ لذا ينبغي لكل فرد أن لا يغيب عن ذهنه أمران:

الأوّل: ليعلم أنّ البلاء كما يكون في الشرّ كذلك يكون في الخير؛ قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[٤] ولا يغرنّه تقلّب الفاسقين فيما يحوزونه من الثروات والأموال وغير ذلك من مباهج الحياة الدنيا.

---

(١) الكافي: ٢/ ١٨١ ح١٥.

(٢) عوالي اللآلي: ١/ ٣٢٤ ح٦١.

(٣) الأحزاب: ٢١.

(٤) الأنبياء: ٣٥.

فلو تذكّر قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [1] لاستكان وما راعه الأمر بتاتاً. ثمّ ليعلم أنّ الخير ليس في كثرة الأموال والأولاد بالضرورة، بل الخير في كثرة العلم والحلم والقرب من الله تعالى.

الثاني: أن يعلم أنّه لا بديل من الامتحان والبلاء لإثبات الجدارة واستحقاق مزيد الأجر والثواب، وإلا كيف يتسنّى معرفة الفرد فيما يدّعيه من الإيمان والعبوديّة والإخلاص وهو لم يُختبر بعد؛ قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [2].

لا ينبغي للإنسان التوقّع بأن يكون بمأمن من الامتحان، ولكن ليرجو ألاّ يكون عرضة لمضلاّته؛ ولذا روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: **لا يقولنّ أحدكم اللهمّ إني أعوذ بك من الفتنة؛ لأنّه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلاّت الفتن**[3].

العمى عن سبيل الله

ههنا كلمتان لا بأس بالوقوف عندهما، هما: سبيل الله، والعمى.

أمّا سبيل الله فهو ليس إلاّ الوسيلة التي تقرّب العبد إلى الله تعالى من أداء الواجبات والورع عن المحرّمات، والحثّ على تعلّمها وتعليمها قولاً وعملاً. ويُبيّنه القرآن الكريم وأهل البيت عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) العنكبوت: ٢.

(٣) نهج البلاغة: ٤/ ٢٠ رقم ٩٣.

وأمّا العمى فلاشكّ أنّ المقصود به عمى البصيرة وليس البصر، وكما أنّ الإنسان قد يصاب بعمى البصر، فيسقط هنا ويتعثّر هناك، ولمعذوريته لا يعاب عليه، ولكن العيب، كلّ العيب فيمن له عينان ويرى بهما ومع ذلك يتعمّد إغماضهما فيصطدم ويهوي، فمن يعيش حياته قاصراً في بصيرته، لا يدرك طيلة حياته سوى ما يحيط به، فمثل هذا لا يؤاخذ إلا بما سمح به عقله؛ لقاعدة «قبح العقاب بلا بيان» فهو يحاسب بمستوى ما أدركه عقله، خلافاً لمن يعيش طيلة حياته مقصّراً لايسعى لإنماء بصيرته وإحيائها بالعلوم والمعارف. فالطامّة الكبرى؛ أن يكون للفرد عقل ومرشد خارجي يهديانه سواء السبيل ولكنّه يعرض عنهما فيتعمّد سلوك طريق الغيّ والضلال، فهذا يكون قد أعمى بصيرته عن عَمد وإصرار، ولذلك سيحاسب حساباً عسيراً.

أهل البيت سلام الله عليهم هم سبيل الله تعالى

ولما كان أهل البيت سلام الله عليهم هم الحبل الذي أمرنا الله تعالى بالتمسّك به[1] وهم سبيل الله[2] وبابه الذي منه يؤتى. كان اللازم درك هذا المعنى وهو أنّ القرب منهم بحاجة إلى السنخية اللازمة بين التابع والمتبوع، وبين القائد والمقود.

---

(١) روي عن أبي حفص الصائغ أنّه سمع الامام الصادق سلام الله عليه يقول في قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ آل عمران: ١٠٣، قال: نحن الحبل. عنه مناقب آل أبي طالب لابن شهرآشوب: ٢/ ٢٧٣.

(٢) روي عن الامام الباقر سلام الله عليه في قوله تعالى: ﴿وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله﴾ قال: نحن السبيل فمن أبى فهذه السبل فقد كفر. تفسير القمّي: ١/ ٢٢١ تفسير الآية ١٥٣ من سورة الانعام.

لاشكّ أنّ رؤية الناس للأئمّة سلام الله عليهم في أزمنتهم كانت سبباً لسهولة الاغتراف من سلسبيل معينهم، لكن الأمر اختلف كلّ الاختلاف في زمن الغيبة الكبرى، فصار من يريد رؤية الإمام المهدي سلام الله عليه بحاجة إلى مزيد من البصيرة والوعي ما يرفع من التزامه الديني والأخلاقي[1].

إنّ المطلوب من الفرد في علاقه ومحبّته لإمام العصر والزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف أن يسعى لإيجاد السنخية بين طبيعته الأخلاقية وسلوكه اليومي وبين رغبة الإمام، ليرتقي إلى مستوى مشايعته حقّ المشايعة.

(١) ولطالما عرفنا من يذهب نفسه بكاءً وتضرّعاً دون أن ينشرّف بلقاء الإمام سلام الله عليه، بينما سمعنا كثيراً عن أشخاص نالوا شرف الرؤية، بل وزيارته لهم بشخصه الكريم والتحدّث معهم طويلاً ولمرّات عديدة، دون أن يخوضوا أعمالاً عبادته خاصّة، ولم يكن ليحدث ذلك لولا وجود السنخية بين أنفسهم وبين شخص الإمام وطبيعة لقائه والتشرف برؤيته، واكتساب شحنات الإيمان من فيضه.

عدم التعرض لخلاف محبة الله

(ولا بالتعرّض لخلاف محبّتك)

هذه الفقرة من الدعاء ـ هي الأخرى ـ تحمل مطالب كثيرة بحاجة إلى التعمّق والتدبّر، ومن تلك المطالب الاستعارة للحروف وبما ينسجم مع المقصد، حيث إنّ للحروف في العربية معاني ومداليل خاصّة، وإنّ استخدامه صلوات الله وسلامه عليه للكلمات والحروف هو في غاية الحكمة بما يترتّب عليه من بلاغة، وهذا هو ديدن أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين مع الناس، فما بالك حين يتحدّثون مع الربّ العظيم.

قال: **ولا بالتعرّض لخلاف محبّتك.**

ولم يقل: للتعرّض لخلاف ـ باستخدام اللام في الكلمتين ـ.

أو: بالتعرّض بالخلاف أو بخلاف ـ باستخدام الباء في الكلمتين ـ.

كما لم يقل: للتعرّض بخلاف ـ باستبدال موقع الباء واللام في الكلمتين ـ.

فلكلّ من حرفي الجر (الباء واللام) في موقعه خصوصيّته في

مقصوده سلام الله عليه. ولو جاء الاستخدام بـأيّ مـن المـوارد الأخـرى التـي عرضناها آنفاً لكان نقصاً بلاغياً ومعنوياً واضحاً، ولكنّه سلام الله عليه اسـتخدم باء التعدية واللام على أروع ما يكون الاستخدام.

إنّ أمامنا مفردات ثلاث ارتكز عليها متن هذه الجملـة مـن الـدعاء، هي: التعرّض والخلاف والمحبّة، نذكر معانيها على نحو الإجمال:

في معنى التعرض

التعرّض هو التصدّي للأمر وطلبه، كما جاء في الدعاء المرويّ عـن الإمام الصادق سلام الله عليه: «إلهي، تعرّض لك في هذا الليل المتعرّضون»[1]، أي أن من كانت له حاجة أخذ في التـضرّع والـدعاء طلبـاً للرحمـة الإلهيـة والعناية الربانية.

والتعرّض يختلف معنىً حسب متعلّقه، فقد جاء في بعـض الأدعيـة أيضاً: «وتنجيني من تعرّض السلاطين»[2] أي أسـألك اللهـم أن تجعلنـي بعيداً عن تصدّيهم وطلبهم لـي، فـأكون فـي منـأىً عـن خطـرهم؛ فـإنّ السلاطين عادةً يفتكون بمن يشكّون بولائه لهم فكيف بمن يعلن عـداءه لهم، على العكس من الأنبياء والأوليـاء حيـث لا يـرى مـنهم إلا الكـفّ والإحسان، وإن كان قد أُسيء إليهم، لأنّ من شيمتهم العفو والكرم.

والشواهد على ذلك كثيرة، منها ما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله مع الرجل الذي أراد الفتك به صلى الله عليه وآله حينما مكّن الله تعالى رسـوله منـه

(١) انظر مصباح المتهجد: ١٥٢ رقم ٣٧ ـ نافلة الليل ـ.

(٢) البلد الأمين: ١٤٣، أدعية الساعات للأئمة الاثني عشر سلام الله عليهم.

وعفا عنه[١].

وكذلك حينما عفا النبي صلى الله عليه وآله عن عتاة قريش الذين آذوه وحاربوه طيلة أكثر من عشرين سنة.

وكذلك فعل أمير المؤمنين سلام الله عليه حينما عفا عن الجماعة من أصحاب الجمل، حينما فرّوا واختبأوا في دار عبدالله بن خلف بمعية عائشة بعد أن مكّنه الله عزّ وجلّ منهم وهزم جيشهم[٢].

في معنى الخلاف

لم يستخدم الإمام كلمة (ضدّ) أو (نقيض) بل استخدم كلمة «خلاف» باعتبار أنّ من الجدير بالعبد أن يطلب من الله تعالى أن يجنّبه مطلق ما من شأنه أن يعرّضه لسخطه وبغضه.

فالضدّ أمرٌ وجوديّ كالسّواد ضدّه البياض، ولا يجتمعان، لكن قد يرتفعان فيما كان لهما ثالث ـ لا كالليل والنهار اللذين لا ثالث لهما ـ فيكون الشيء لا أسود ولا أبيض بل لون آخر، والنقيض أمرٌ عدميّ كالحركة وعدم الحركة، والنقيضان لا يجتمعان أبداً، ولا يرتفعان أبداً،

---

(١) نزل رسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة ذات الرقاع تحت شجرة على شفير واد، فأقبل سيل فحال بينه و بين أصحابه... فقال رجل من المشركين لقومه: أنا أقتل محمداً؛ فجاء وشدّ على رسول الله صلى الله عليه وآله بالسيف، ثمّ قال: من ينجيك منّي يا محمد؟ فقال: ربّي وربّك. فنسفه جبرئيل عليه السلام عن فرسه. فسقط على ظهره. فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذ السيف وجلس على صدره، وقال: من ينجيك منّي يا غورث؟ فقال: جودك وكرمك يا محمد. فتركه، فقام وهو يقول: والله لأنت خير منّي واكرم. الكافي: ٨/ ١٢٧ ح٩٧.

(٢) راجع تاريخ الطبري: ٣/ ٥٤٣، وغيره من كتب السير والتواريخ.

وأمّا الخلاف فهو أمرٌ وجودي كالحلاوة، خلاف البياض، لكن يجتمع معه.

إنّ الإمام لا يطلب من الله تبارك وتعالى أن لا يبتليه بضد محبّته فحسب، أي ببغضه ـ والعياذ بالله ـ ولا بنقيضها أي بعدم المحبّة، بل يطلب منه تعالى أن لا يبتليه حتى بخلاف محبّته أي بما قد يجتمع مع كرهه أو بغضه؛ وذلك لكي يحرز محبّة الله الكاملة والشاملة، وأن لا يصدر عنه ما يكون مخالفاً لتلك المحبّة بأيّ حال من الأحوال.

في إحدى زيارات الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه نلاحظ أنّ الإمام الصادق سلام الله عليه ـ الذي تروى عنه الزيارة ـ بعد أن يسلّم على الإمام يتوجّه باللعن على أعدائه، ولكن نلاحظ اختلافاً في صيغة اللعن، فهو سلام الله عليه عندما يخاطبه يقول: **لعن الله من خالفك**[1]، وهذا يكشف عن نقطة في غاية الأهمية وهي أنّ الذي يخالف الإمام المعصوم يستحقّ اللعن، أمّا غير المعصوم فلا، مهما علت منزلته وعظمت مكانته؛ وما ذلك إلا لأنّ المعصوم لا يخالف إرادة الله ومحبّته أبداً، ومن ثمّ فإنّ مخالفة المعصوم تعدّ مخالفة لله تعالى. ولذلك عندما نخاطب غير المعصوم كعليّ الأكبر عليه السلام نقول: **لعن الله من قتلك**[2]، ولكن لا نقول: لعن الله من خالفك.

فالإمام هنا يطلب من الله أن لا يبتليه بالتعرّض لمخالفته.

إنّ في كلمات المعصومين سلام الله عليهم نكات دقيقة بحاجة إلى التدبّر

---

(١) انظر فرحة الغري: ٨٢ زيارة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٥٩٦، زيارة عليّ بن الحسين عليهما السلام المقتول بكربلاء.

من أجل الوصول إلى بعض أسرارها التي لا يدركها كلّها إلا من كان قريباً منهم وعلى نهجهم.

في معنى حبّ الله تعالى

ثمّ إنّ الإمام لم يقل: لا تبتليني بالتعرّض لخلافك، بل قال: لخلاف محبّتك. وهذا يكشف عن مستوى أرفع في الأدب وأصدق في العبودية للربّ الجليل؛ فإنّه يمكننا أن نتصوّر شخصاً ما يكنّ المحبّة لشخص آخر ويعمل على أن لا يخالفه في كلّ ما يطلبه منه، ولكن ليس بالضرورة أن يتطابق معه في كلّ ما يحبّ، أمّا الإمام سلام الله عليه فإنّه يطلب من الله أن يجنّبه من الابتلاء حتى بالتعرّض لخلاف ما يُحبّه تعالى.

ومن الواضح أنّ ما يحبّه الله تعالى من عبده هو الامتثال لأوامره والانتهاء عن نواهيه، وبعبارة: القيام بالواجبات الشرعية واجتناب المحرّمات الشرعية، ويعضدهما بالسعي لأداء المستحبّات وترك المكروهات أيضاً، شريطة أن لا تؤثّر على العمل بالواجبات وترك المحرّمات، فإنّه لا قربة بالنوافل إذا أضرّت بالفرائض[1].

فكما أنّك إذا كنت عازماً على مرافقة شخص ـ تجلّه وتريد كسب ودّه ـ في سفر أو غيره، ولم تكن تعرف ما يحبّ وما يكره، فلا شكّ أنك ستسأل العارفين والمطّلعين على ميوله، ثمّ تعمد إلى متابعته بكلّ حيطة وحذر لئلاّ يصدر عنك تجاهه ما لا يحبّ، فتتعرّض لخلاف محبّته.

---

(١) وسائل الشيعة: ٤/ ٢٨٦، ح٧، باب ٦١ـ جواز التطوّع بالنافلة أداءً وقضاءً لمن عليه فريضة، واستحباب الابتداء بالفريضة.

فكذلك لابدّ من معرفة الأمور التي يحبّها الله تعالى لكي يُؤتى بها، والأمور التي يكرهها لكي تُجتنّب فلا يُتعرّض لخلاف محبّته، والطريق لهذه المعرفة ينحصر بالقرآن الكريم والنبيّ صلى الله عليه وآله وعترته الطاهرة، فلقد أوضح لنا رسول الله صلى الله عليه وآله الطريق عندما قال: «**إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي**»[1].

فالآيات القرآنية والأحاديث والروايات الشريفة قد جمعت كلّ المعارف الإلهية والأحكام الشرعية الكفيلة بقيادة الإنسان إلى طريق المحبة الإلهية والنأي عن طريق السخط والمقت الإلهي.

ثلاثة مقترحات في شهر رمضان المبارك

لعلّ من الفرص الجيّدة للسعي نحو بناء النفس كي تبغي المحبّة الإلهية، هو شهر رمضان المبارك الذي أعدّه الله تعالى لابن آدم كي يعيد فيه حساباته مع نفسه والآخرين.

وهو الشهر الذي بشّر به رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين كافّة في قوله: «**قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة**»[2].

ففي هذا الشهر الكريم تكبّل الشياطين؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **فإنّ الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر العظيم**[3].

ولكي نضمن كون مسيرتنا على طريق المحبّة الإلهية ونستفيد من

---

(١) وسائل الشيعة: ١٨/ ١٩، ح٩. هذا الحديث متواتر يرويه العامّة والخاصّة.

(٢) فضائل الأشهر الثلاثة: ٧٧، ح٦١.

(٣) المصدر السابق: ٧٧، ح٦١.

فيوضات شهر الله، شهر الطاعة والغفران شهر رمضان الكريم أقترح عليكم، ثلاثة أمور:

١. محاسبة النفس في كلّ يوم من هذا الشهر، ليعرف الفرد ما له و ما عليه، وما ينبغي له أن يستمرّ به من سلوك أو يتركه، وليمرّن وجدانه على أن يكون حكماً منصفاً وقاضياً عادلاً على ما يصدر عنه خلال اليوم والليلة، مستغفراً عن السيئات، وشاكراً لله وطالباً منه الاستزادة في الحسنات.

٢. المواظبة على قراءة خطبة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله الخاصّة بشهر رمضان بتأمّل وتدبّر، لتعرف الغاية التي يقصدها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من كلّ كلمة من كلماتها.

٣. محاولة الالتزام بجميع بنود الخطبة واو لمرّة واحدة خلال شهر رمضان المبارك.

فمن لم يكن عاملاً بهذه الأمور الثلاثة فنيعقد العزم من الآن على العمل بها، ومن كان عاملاً بها فليسع للمزيد؛ قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾[1].

وإذا كانت بعض بنود الخطبة خارجة عن تكليفنا فليس شرطاً أن يكون الالتزام بها حرفياً، بل لنتأسَّ بها في موارد مشابهة، مثلاً: التعامل مع ملك اليمين، فإذا كان النبي صلّى الله عليه وآله يأمرنا في هذه الخطبة الشريفة بأن نحسن إليهم، وليس منا من يملك عبداً أو أمة في هذا العصر، فهذا

---

(١) مريم: ٧٦.

لا يعني عدم الالتزام بهذه الفقرة من الخطبة بل يمكن تطبيقها في موارد الذين أمرهم بأيدينا كالزوجة والأولاد والتلاميذ والأجراء و... .

المعرفة شرط

لاشك أنّ معرفة الأحكام الشرعية، لاسيما الواجبات والمحرّمات، والالتزام بحدودها، تجنّب الفرد الخسارة الكبرى في الآخرة، ولابدّ من أن تكون المعرفة صحيحة ولا يكفي مجرد تصوّر كونها كذلك؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[1].

ولاشكّ أنّ مثل هؤلاء ربما كانوا يصلّون ويصومون ويحجّون ويزكّون ويقاتلون ويُقتلون ويعانون ويعذّبون؛ ظنّاً منهم أنّهم إنّما يفعلون ذلك على طريق محبّة الله تعالى، حتّى ينكشف لهم يوم القيامة الخلاف؛ لعدم إقرانهم ذلك بما أمروا به من مودّة أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم فافتقدوا بذلك أهمّ ركيزة في الوصول إلى الله تعالى، قال أمير المؤمنين سلام الله عليه: إنّ لـ (لا إله إلا الله) شروطاً، وإنّي وذرّيتي من شروطها[2]. فبذلك يساق هؤلاء إلى جهنّم مع أولئك الذين ربّما لم يصلّوا أو يصوموا حتى يوماً واحداً من حياتهم؛ فيجدون أنفسهم قرناء مع أناس لم يحرموا أنفسهم شيئاً من ملاذّ الدنيا وعاشوا عيشة المعرضين عن العبادة، وهذا الأمر يضاعف منهم الإحساس بالندم والحسرة، وهذا ما يعكسه التعبير

---

(١) الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) ينابيع المودّة: ١/ ٨٩، رقم ٣٥.

القرآني الذي استعمل أقوى صيغ التفضيل (وهو أفعل التفضيل المعرّف بالألف واللام)[١] فقال: الأخسرين.

وما أكثر الأمثلة على الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، فمن الأمثلة التاريخية البارزة على ذلك الخوارج الذين خرجوا على الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه وكانوا يسعون لقتله، زاعمين التقرّب بذلك إلى الله تعالى.

فيا له من ضلال ما بعده ضلال، يقتلون من حبّه ايمان وبغضه كفر بنصّ رسول الله صلى الله عليه وآله[٢] بنيّة التقرّب إلى الله تعالى.

إذاً، ما لم يتعلّم الإنسان فرائض الله تعالى من خلال المصادر التي أشار إليها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: القرآن وعترته، فإنّه سيتعرّض لخلاف محبّة الله تعالى؟ وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[٣]. واتّباع النبي صلى الله عليه وآله يعني اتّباع ما أمر الله تعالى، لأنّه صلى الله عليه وآله عالم به عن طريق الوحي ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[٤].

---

(١) فإنّ أفعل التفضيل له ثلاث صيغ الأولى الإضافة، والثانية مع (من) والثالثة مع (أل) وهي أقواها لأنّها مطلقة فيما تكون في الحالتين الأخريين مقيّدة بمتعلّق الإضافة أو (من).

(٢) روى الطبراني بإسناده عن عمران بن الحصين، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: لا يحبّك الا مؤمن، ولا يبغضك الا منافق. الاوسط: ٢/ ٣٣٧. وروى مسلم بسنده عن زر قال: قال علي عليه السلام: والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة إنّه لعهد النبي الأمّي صلى الله عليه وآله إليّ أن لا يحبّني الا مؤمن، ولا يبغضني إلاّ منافق. صحيح مسلم: ١/ ٦١، الى غير ذلك من مصادر العامّة والخاصّة.

(٣) آل عمران: ٣١.

(٤) النجم: ٣ ـ ٤.

الحسبان نوعان

ثمّ إنّ ههنا ملاحظة جديرة بالالتفات، وهي أنّ العبد إذا قام بالفعل وكان يحسبه حسناً، أو امتنع عن أداء فعل وكان يحسبه سيّئاً، ثمّ بان له العكس لكلا الحسبانين، فكيف سيحاسبه الله تعالى على ذلك؟

والجواب: إنّ الجهل قد يكون عن قصور، وقد يكون عن تقصير. ففي الحالة الأولى لا يعاقب الله تعالى الإنسان على ما بدر منه بسبب جهله للأمر وقصوره عن إدراك الواقع، أمّا في الحالة الثانية أي إذا كان جهل الإنسان ناتجاً عن تقصيره، فإنّه سيكون مستحقّاً للعقوبة.

فابن ملجم مثلاً لم يصل إلى هذه الدركة الدنيئة دفعة واحدة، إلاّ بعد أن سقط بحسبانه أنّه يعمل حُسناً حتى صار يعتقد أنّ قتل إمام الحقّ، حقٌ بل واجبٌ عليه، فحقّ عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾[1].

العلم وحده لا يكفي

كما أنّ العمل من دون علم يوقع صاحبه ويرديه كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾[2] فكذلك لاينفع الإنسان العلم من دون العمل؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا

---

(١) النور: ٣٩.

(٢) الحج: ٣.

مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[1].

ثمّ إنّ العلم يعتبر سلاحاً ذا حدّين أي يمكن استخدامه في الخير وفي الشرّ على السواء، ما لم يستند إلى الورع؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3].

ولو كان العلم وحده مجدياً لكان الشيطان الرجيم أرفع مستوى وأكثر فضيلة من جميع المكلّفين من الجنّ والإنس، لأنّه ـ بلاشكّ ـ على اطلاع دقيق بكلّ الواجبات والمحرّمات الإلهية، ولله در الشاعر حين قال:

لو كان للعلم من غير التقى شرفٌ   لكان أشرفَ خلق الله إبليس

إذاً لابدّ للعلم من سلوك يصدّقه، ليؤتي أكله وينهض بصاحبه، فيكون ما تعلّمه علماً نافعاً حقّاً.

زكاة العلم تعليمه[4]

هذا ولا ينبغي للمرء أن يؤطّر طموحه وكدحه بإطار العلم والعمل فحسب، بل ينبغي أن يحلّق إلى أسمى الغايات وأشرفها من خلال تزكية علمه، فيبادر إلى تعليمه للآخرين ويبيّن لهم ما ينبغي لهم القيام به

---

(١) الصف: ٢ ـ ٣.

(٢) فاطر: ٢٨.

(٣) آل عمران: ٧١.

(٤) استعارة من قول النبي صلى الله عليه وآله: زكاة العلم تعليمه من لا يعلمه. عدّة الداعي: ٦٣.

من واجبات، وما ينبغي لهم الانتهاء عنه من المحرّمات، فيشركهم في علمه، ليحقّق خصلة أخلاقية فاضلة كريمة وهي حبّه للعلم ونشره بين الناس، وقد ورد في الرواية الشريفة: «إنّ الله لم يأخذ على الجهّال عهداً بطلب العلم حتى أخذ على العلماء عهداً ببذل العلم للجهال»[1] لكي تتمّ الحجة على الناس جميعاً.

إذاً فقد اتّضحت أركان محبّة الله تعالى علماً وعملاً وتعليماً؛ وإذا اقترنت هذه المفردات بمحاسبة النفس ومراقبتها الدائمة، يكون المرء حينئذ قد قطع الطريق على الشيطان واتّجه بنفسه ليزداد قرباً نحو المحبّة الإلهية.

(١) الكافي: ١/ ٤١ ح١ باب بذل العلم.

اللهُمَّ اجْعَلْني أصُولُ بكَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ، وَأسألكَ عِنْدَ الحاجَةِ، وَأتَضَرَّعُ إلَيْكَ عِنْدَ المسْكَنَةِ، وَلا تَفْتِنيّ بالاسْتِعَانةِ بغَيرِكَ إذَا اضْطَرَرْتُ، وَلا بِالخُضُوعِ لِسُؤالِ غَيرِكَ إذَا افْتَقَرْتُ، وَلا بالتَّضَرُّعِ إلى مَنْ دُونكَ إذا رَهِبْتُ، فَأسْتَحِقّ بذَلِكَ خِذْلانكَ وَمَنْعَكَ وَإعْراضَكَ يا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

☑ الصولة بالله تعالى

☑ السؤال من الله تعالى

☑ التضرّع إلى الله تعالى



الصولة بالله، والسؤال من الله، والتضرّع إليه

يطلب الإمام سلام الله عليه في الجملة الأولى من هذا المقطع من دعائه أن يوفّقه الله تعالى لثلاثة أمور وهي:

أن تكون صولته به عند الضرورة، وسؤاله إيّاه عند الحاجة، وتضرّعه إليه عند المسكنة، أي: يا ربّ، عندما أكون مضطراً فلتكن صولتي بك لا بغيرك، وعندما أكون محتاجاً فليكن سؤالي موجّهاً لك لا لسواك، وعندما تواجهني مسكنة يكون تضرّعي إليك دون خلقك.

١. الصولة بالله تعالى

ونبدأ بالوقوف على الطلب الأوّل وهو الصولة عند الضرورة. فالضرورة هي التي يكون الإنسان فيها في منتهى الحاجة والشدّة والضيق، فليس كلّ سوء يكون ضرورة للمبتلى ليتخلّص منه، ولا تستعمل كلمة الضرورة إلا حينما يشعر المرء بأنّه قد بلغ منتهاه في الحاجة والشدّة والضيق، ولذلك فالإنسان في حال الإضطرار يكون في منتهى ضعفه.

أمّا الصولة فهي تعبير عن أوج القدرة والتمكّن لدى الإنسان تجاه ما

يواجهه؛ لذلك فإنّ ورود لفظ الصولة في الكلام ينقل أذهاننا إلى تصوّر الحرب والقتال، لاسيّما عندما يبلغ المقاتل ذروة القوّة والغلبة والتوفّر على مقوّمات السيطرة في تسيير مجريات القتال ضد عدوّه الذي لا يسعفه الصمود تجاهه ولا يكون أمام ذاك العدوّ سوى الهزيمة الساحقة، ففي مثل هذه الحالة يكون الطرف الأوّل صائلاً على الطرف الثاني[1].

والإمام يعلّم الإنسان المؤمن في هذه الحملة من الدعاء أن يطمح إلى السمو بمستواه فيسأل ربّه الكبير ليس فقط أن يخلّصه من الوضع الاضطراري الهالك الذي يعيش فيه، بل يتفضّل عليه بأن يبدله غاية القوّة فيصول بقدرته سبحانه وتعالى. وما دامِ المؤمن يعلم بأنّ الله معه، فلم لا يصمّم على الاستعانة به ليصول بقدرته تعالى وينزل الهزيمة الساحقة بما يواجهه من اضطرار.

أمّا قوله سلام الله عليه «بِكَ» فمعناه أنّ على المؤمن أن يعلم عند الاضطرار وتلاطم أمواج البلاء وهجومها عليه، أن الله جلّ جلاله هو الجهة الوحيدة التي يجب أن يركن إليها لخلاصه، لأنّه تعالى إله كلّ شيء والقادر على كلّ شيء، وهو الذي لا تداني قوّته قوّة.

النموذج العملي للصولة

ومن المثال على الصولة عند الضرورة ما تجسّد في سيرة النبي

---

(١) لم ترد مفردة صولة في النصوص الأدبية إلا قليلاً، ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى قلّة حصول مصداقها، رغم كثرة الحروب وكثرة الدواوين التي تؤرّخ لها، فيما ورد التعبير بالجولة والسجال وغيرها كتعبير عن اشتداد نار الحرب.

الأكرم صلى الله عليه وآله، حينما لقي ما لقيه من المشركين قبل الهجرة وبعدها حتى قال: «ما أوذي نبي مثلما أوذيت»[١] ولكنّ صولته بالله تعالى عند الضرورات واشتداد الخطب كانت تهوّن عليه الأمر.

فلقد هاجم المشركون نبيّ الله صلى الله عليه وآله من مختلف الجوانب، تارة بالترهيب عبر كيل الأذى وشنّهم الحروب عليه، وأخرى بالترغيب حين اقترحوا عليه أن يعطوه المال الوفير حتى يكون الأغنى من بينهم، أو يزوّجوه الأجمل من نسائهم، بل بلغ بهم الحدّ أن عرضوا عليه أن يترأس عليهم، كلّ ذلك مقابل أن يتنازل عمّا يدعو إليه من أمر التوحيد والنبوّة، فلا يسفّه أحلامهم ولا ينكر عليهم ما تشبّثوا من عبادة آبائهم وأجدادهم من قبل، بل وصل بهم الأمر أن اقترحوا عليه ـ بعد أن علموا إصراره ـ أن يعبدوا ربّه يوماً ويعبد آلهتهم يوماً آخر.

ثمّ لمّا يئسوا عن تركه لأداء مهمّته الرسالية، عرضوا عليه أن يزيل ما يحيط بمكّة من جبال لتكثر الطرق المؤدّية إليها، وأن يُجري لهم الأنهار فلا يعتمدوا على الآبار المالحة، ثمّ تحدّوه ـ خطلاً منهم ـ أن يحيي آباءهم وأجدادهم.

ولكنّه صلّى الله عليه وآله قاوم كلّ صور الترهيب والترغيب، فصبر على ما ألحقوا به من الأذى، وردّ كلّ عروضهم وإغراءاتهم، كما رفض أن يأتيهم بأيّ من المعاجز التي اقترحوها عليه لعلمه بأنّهم لا يبحثون في حقيقة

---

(١) كشف الغمّة في معرفة الأئمّة: ٣٤٦.

أقول: مع علمه صلى الله عليه وآله بأنّ من كانوا قبله من الأنبياء والرسل، منهم مَن نُشر بالمناشير أو ألقي في النار، ومنهم من أُلقي في غيابة الجُبّ إلا أنّه صلوات الله عليه وعلى آله قد امتاز عليهم وعلى أوصيائهم جميعاً فيما تعرّض له هو وأهل بيته صلوات الله عليهم من بعده.

أمرهم عن دليل أو حجّة، فلطالما جرت على يديه صلّى الله عليه وآله المعاجز مراراً وتكراراً أمام أعينهم،[1] بل هم قد أيقنوا بنبوّته ولكنّهم جحدوها كبراً وحسداً وظلماً.

فصال صلى الله عليه وآله بالله عزّ وجلّ، رافضاً كلّ إغراءاتهم فضلاً عن إرهابهم، وتحزّباتهم ضدّه، قائلاً لهم بمحضر عمّه أبي طالب عليه السلام: **«يا عمّ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته»**[2].

فأفحمهم صلى الله عليه وآله بموقفه النابع أساساً من الاعتماد على الله تعالى والصولة به.

وهكذا كان أمير المؤمنين سلام الله عليه، الذي لاقى الأمرّين لاسيّما بعد شهادة أخيه المصطفى صلى الله عليه وآله، إلى أن استشهد هو أيضاً مظلوماً مهضوماً.

ورغم ذلك لم يهن ولم ينكل ولم تبد عليه أمارات الضعف أو الذلّة والخوف، بل استقام متوكّلاً على الله تعالى صائلاً به.

وكذلك الإمام الحسين عليه السلام حين استفرد به العدوّ بعد استشهاد جميع أصحابه وأهل بيته، إذ وُصف بأنّه كان رابط الجأش نيّر الوجه، على ما كان به من قتل ولده وأهل بيته وأصحابه، وكأنّه ينتظر بشوق كثير لحظة العروج إلى الرب الجليل ومغادرة هذه الدنيا الدّنية. فلم تظهر

---

(١) راجع بحار الأنوار: ١٦/ ٤٠٢ باب ١٢ باب نادر في اللطائف في فضل نبيّنا صلى الله عليه وآله في الفضائل والمعجزات على الأنبياء عليهم السلام.

(٢) الغدير: ٧/ ٣٥٩ رقم ١١ سيدنا أبو طالب وقريش.

عليه أدنى علامات الذلّ والجبن أو الارتباك والانكسار، حاشاه، بل كانت الرجال لتشدّ عليه، فيشدّ عليها بسيفه، فتنكشف عنه انكشاف المعزى إذا شدّ فيها السبع فينهزمون بين يديه كأنّهم جراد منتشر ـ كما تقول الروايات[١] ـ لأنّه عليه السلام كان يصول بالله تعالى على أعدائه.

فكان صلوات الله وسلامه عليه، بالرغم مما تعرّض إليه من مصائب يقول: «**هوّن عليّ ما نزل بي أنّه بعين الله**»[٢] مع أنه كان يملك من العواطف ما يملكها غيره، بل أكثر وأنقى، فلم يكن سلام الله عليه قاسياً، حاشاه، بل كان يتألّم كثيراً على ما ينزل من المصاب على أهل بيته وأصحابه، ولكنّ صولته بالله تعالى هي التي جعلته كما وصفوه رابط الجأش مشرق الوجه، شجاع القلب، صابراً، لا تهدّه المصائب؛ فسلام على جدّه وأبيه وأمّه وأخيه، وسلام عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حيّاً فيشفع لمحبّيه جعلنا الله منهم إن شاء الله تعالى.

الدعاء وحده لا يكفي

حقيقةً هذه الدرجات رفيعة جدّاً، وإذا أردنا أن نرتقيها شيئاً فشيئاً، فلنقتف أثر من نتشرف بكونهم أئمّتنا وقادتنا، ولا ريب أنّ عملية الرقيّ لا تتحقّق بالدعاء وحده، بل هي بحاجة إلى عزم وإصرار في السعي والاستقامة. وبهذا الصدد نقل الإمام الصادق عن آبائه سلام الله عليهم أنه:

---

(١) انظر مثير الأحزان لابن نما: ٥٤. من أخبار المقصد الثاني في وصف موقف النزال وما يقرب من تلك الحال.

(٢) عوالم الإمام الحسن سلام الله عليه: ٢٨٩.

«مرّ موسى عليه السلام برجل رافع يده يدعو، فغاب في حاجته سبعة أيّام ثمّ رجع إليه وهو رافع يده، فقال: يا ربّ، هذا عبدك رافع يديه إليك يسألك حاجة، ويسألك المغفرة منذ سبعة أيّام، لا تستجيب له، قال: فأوحى الله إليه: يا موسى، لو دعاني حتى تسقط يداه أو تنقطع يداه أو ينقطع لسانه لم أستجب له حتى يأتيني من الباب الذي أمرته»[1].

وهذا يدلّ على أنّ استجابة الدعاء لا تتحقّق ما لم يأتِ العبد من حيث أمره ربُّه، لا من حيث يريده هو ويرتئيه. ومن جملة أوامره سبحانه وتعالى أنّه قد خلق الأسباب وهدى للسير وفقها والالتزام بها، فلا يصحّ أن يحجم المريض عن مراجعة الطبيب مثلاً، أو يكسل القويّ عن الكسب وطلب الرزق ويكتفي كلّ منهما بالدعاء. فهناك الكثير من الآيات والروايات التي حثّت على السعي، وعدم الاكتفاء بالدعاء، ومنها ما يحدّد نوع العمل الذي ينبغي أن يُعمل، فـ: الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر[2].

كما أنّ هناك من الأسباب ما يتعلق بتربية النفس وتزكيتها مقدّمة لإستجابة الدعاء؛ فلا يمكن وصول الطالب إلى مرحلة الاجتهاد من دون دراسة، ولا ينبغي له انتظار حدوث المعجزة.

والتزكية وحدها لا توفّر رغيف الخبز، ولا تيسّر الزّواج، كما الدعاء وحده لا يكفي، إنّما الله تعالى يحبّ من عبده أن يكون ـ إلى جنب ذلك ـ ساعياً ومتوكّلاً عليه، ليكرمه بأياديه.

---

(١) الجواهر السنية: ٧٠.

(٢) نصّ حديث النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله. انظر كتاب الدعوات.

فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وهو أحبّ الخلق إلى الله تعالى ـ لم يكتف بمجرّد تحمّل الأذى الذي ألحقه به كفّار قريش، أو الدعاء لهم[1]، وإنّما راح يواصل نشْر الدين في أوساطهم حتى استخلص من بينهم ثلّة من المؤمنين جمعهم إليه وكوّن بهم حكومته الإلهية.

٢. السؤال من الله تعالى

إنّ من له حاجة لابدّ أن يرجع إلى من بيده قضاؤها. فالذي يصاب بمرض لا يراجع مهندساً بل طبيباً مختصّاً، ومن أراد بناء دار فلا تنفعه مراجعة الخبّاز. ومن كان جائعاً لا يشبعه الخيّاط، وهكذا.

والإمام سلام الله عليه في هذا الشطر من الدعاء يعلّمنا أن نسأل حوائجنا كلّها من الله تعالى؛ لأنّه مصدر العطاء ومسبّب الأسباب، الذي يملك حوائج خلقه كافّة ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

٣. التضرّع إلى الله تعالى

وهكذا ينبغي للعبد إذا نزلت به مسكنة أن يتضرّع إلى لله، ولذلك يقول الإمام: وأتضرّع إليك عند المسكنة.

أمّا المسكنة فهي درجة فوق الحاجة ولذلك قُرنت بالتضرّع وهو المبالغة بالإلحاح والتوسّل في السؤال. فقد يكون الإنسان محتاجاً

---

(١) كما في قوله صلى الله عليه وآله: **اللهم اهد قومي فإنّهم لا يعلمون**. راجع الصحيح من السيرة للسيد العاملي: ٢٥١، آية النهي عن الاستغفار للمشرك.

(٢) الملك: ١.

ويطلب ما يسدّ حاجته أو فقيراً ويسأل عمّا يعينه، أمّا إذا كانت الحاجة ملحّة وشديدة، كمن كان مشرفاً على الموت من شدّة الجوع، فإنّه يتضرّع في سؤاله ويتذلّل بين يدي مسؤوله حتى يستجيب له.

ولقد عُدّ المسكين أسوأ حالاً من الفقير؛ لأنّ الفقر قد أسكنه، أي قعد به، لأنّ حاجته شديدة وقدرته على استحصال ما يريد ضعيفة؛ ولذا قيل: إنّ الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا. أي إذا ذُكرا معاً اختلف معناهما، لأنّ المسكين أسوأ حالاً من الفقير، أمّا إذا ذُكر أحدهما فقد يكون بمعنى الآخر، أي يكون لكليهما معنى واحد.

وهذه الجملة من الدعاء تحرّض الفرد على أن يكون بالغ الطلب من الله تعالى كلّما زاد فقراً ومسكنة، ولا ينبغي لشدّة وطأتهما أن تفقداه ذكر ربّه، كما هو ديدن كثير من الناس.

فالإنسان المؤمن دائم السعي لمضاعفة إيمانه، ويرى في الحاجة والمسكنة والاضطرار عوامل دفع وإلجاء أكبر للاستعانة بالله تعالى، ويقول: اللهم اجعلني أصول بك عند الضرورة وأسألك عند الحاجة وأتضرّع إليك عند المسكنة، نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لمراضيه، إنّه سميعٌ مجيب.

الفهارس



فهرس الآيات

النساء

المائدة

الأنعام

الأعراف

الأنفال

التوبة

هود

النحل

الإسراء

الكهف

مريم

طه

الأنبياء

الحجّ

النور

الفرقان

الشعراء

النمل

القصص

العنكبوت

الأحزاب

سبأ

فاطر

ص

الصف

المنافقون

التحريم

الملك

القلم

القيامة

البلد

الشمس

الليل

الزلزلة

القارعة

الكوثر

النصر

فهرس الأحاديث

فهرس المصادر

القرآن الكريم

نهج البلاغة

الصحيفة السجادية

- أ -

الآحاد والمثاني أبو بكر أحمد بن عمرو الضحاك الشيباني/ ت٢٨٧ هـ/ ط. دار الحرية ـ الرياض.

إحياء علوم الدين أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي الطوسي/ ت٥٠٥ هـ/ ط. لجنة نشر الثقافة الإسلامية ـ مصر.

الإختصاص أبو عبدالله محمد بن النعمان العكري البغدادي، الشيخ المفيد/ ت٤١٣ هـ/ ط. مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم.

الأربعين في إمامة الأئمة الطاهرين محمد طاهر بن محمد حسين الشيرازي/ ت١٠٩٨ هـ/ ط. مطبعة الأمير ـ قم.

الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد أبو عبدالله محمد بن النعمان العكبري، (الشيخ المفيد) ت٤١٣ هـ/ ط. مطبعة دار المفيد ـ فم.

أسد الغابة في معرفة الصحابة عزّ الدين أبو الحسن علي إبن أبي الكرم الشيباني، ابن الأثير/ ت٦٣٠ هـ/ ط. انتشارات إسماعيليان ـ طهران.

أضواء على السنّة المحمّدية محمود أبو رية/ معاصر/ ط. دار الكتاب الإسلامي ـ قم.

إعلام الورى بأعلام الهدى أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي/ ت٥٤٨ هـ/ ط. مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم.

إقبال الأعمال السيد رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس/ ت٦٦٤ هـ/ ط. مكتب الاعلام الإسلامي ـ قم.

الأمالي أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي/ ت ٤٦٠ هـ/ ط. دار الثقافة ـ قم.

أمالي المفيد أبو عبدالله محمد بن النعمان العكبري، الشيخ المفيد/ ت٤١٣ هـ/ ط. مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم.

الإمامة والسياسة أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري/ ت٢٧٦ هـ/ ط. انتشارات الشريف الرضي ـ قم.

.ب.

بحار الأنوار محمد باقر بن محمد تقي المجلسي/ ت١١١١ هـ/ ط. مؤسّسة الوفاء ـ بيروت.

البلد الأمين إبراهيم بن علي الكفعمي/ ت٩٠٥ هـ/

بيت الأحزان الشيخ عبّاس بن محمد رضا القمّي/ ت١٣٥٩ هـ/ ط. دار الحكمة ـ قم.

.ت.

تاريخ ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المالكي/ ت ٨٠٨ هـ/ ط. دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

تاريخ أسماء الثقات عمر بن أحمد بن عثمان بن شاهين/ ت٣٨٥ هـ/ ط. دار السلفية ـ كويت.

تاريخ بغداد أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي/ ت٤٦٣ هـ/ ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت.

تاريخ مدينة دمشق أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الشافعي، إبن عساكر/ ت٥٧١ هـ/ ط. دار الفكر ـ بيروت.

تاريخ الطبري أبو جعفر محمد بن جرير الطبري/ ت٣١٠/ ط. مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت.

تحف العقول أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني/ من أعلام القرن الرابع الهجري/ ط. مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم.

التحقيق في أحاديث الخلاف أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد، إبن الجوزي/ ت٥٩٧ هـ/ ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت.

تذكرة الفقهاء الحسن بن يوسف بن المطهر، العلاّمة الحلّي/ ت٧٢٦ هـ/ ط. مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم.

تفسير العيّاشي أبو النظر محمد بن مسعود بن عيّاش السلمي السمرقندي العيّاشي/ ت القرن الرابع الهجري/ ط. المكتبة العلمية الإسلامية ـ طهران.

تفسير القرطبي أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي/ ت٦٧١ هـ/ ط. دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

تفسير القمّي أبو الحسن علي بن إبراهيم القمّي/ ت٣٢٩/ ط. مؤسّسة دار الكتاب ـ قم.

التفسير الكبير «مفاتيح الغيب» فخر الدين محمدبن عمر الرازي/ ت٦٠٦ هـ/ ط. إحياء التراث العربي ـ بيروت.

تفسير مجمع البيان أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي/ ت٥٦٠ هـ/ ط. مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت.

التمحيص أبو علي محمد بن همام الإسكافي/ ت٣٣٦ هـ/ ط. مدرسة الإمام المهدي عليه السلام ـ قم.

تهذيب الأحكام أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي/ ت٤٦٠ هـ/ ط. دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

تهذيب الكمال جمال الدين أبو الحجّاج يوسف انمزّي/ ت ٧٤٢ هـ/ ط. مؤسّسة الرسالة ـ بيروت.

• ث •

ثواب الأعمال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي، الشيخ الصدوق/ ت ٣٨١ هـ/ ط. منشورات الرضي ـ قم.

• ج •

الجامع الصغير جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي/ ت٩١١ هـ/ ط. دار الفكر ـ بيروت.

جامع المقاصد علي بن الحسين الكركي/ ت٩٤٠ هـ/ ط. مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم.

الجواهر السنية في الأحاديث القدسيّة محمد بن الحسن بن علي بن الحسين الحرّ العاملي/ ت١١٠٤ هـ/ ط. مكتبة المفيد ـ قم.

جواهر العقدين في فضل الشرفين نور الدين أبو الحسن علي بن جمال الدين السمهودي/ ت٩١١ هـ/ ط. دار المعارف ـ بغداد.

جواهر الكلام محمدحسن بن باقر بن عبدالرحيم الجواهري/ ت١٢٦٦ هـ/ ط. دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

•ح•

الحدائق الناضرة يوسف بن أحمد بن إبراهيم الدرازي البحراني/ ت١١٨٦ هـ/ ط. مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم.

•خ•

الخصال أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابوية القمّي، الشيخ الصدوق/ ت ٣٨١ هـ/ ط. مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم.

•د•

الدراية في تخريج أحاديث الهداية أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني/ ت٨٥٢ هـ/ ط. دار المعرفة ـ بيروت.

الدعوات أبو الحسن سعيد بن هبة الله، المعروف بقطب الدين الراوندي/ ت٥٧٣ هـ/ ط. مدرسة الإمام المهدي ـ قم.

•ر•

رجال الخاقاني أبو الحسن علي بن حسن بن عبّاس بن سالم الخاقاني/ ت ١٣٣٤ هـ/ ط. مكتب الإعلام الإسلامي ـ قم.

رجال الكشي «إختيار معرفة الرجال» لشيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي/ ت ٤٦٠ هـ/ ط. مؤسّسة آل البيت ـ قم.

رسالة في العدالة للشهيد الثاني زين الدين بن علي بن أحمد الجبعي العاملي/ ت ٩٦٥ هـ/

روضة الواعظين أبو علي محمد بن أحمد بن علي الفتّال النيسابوري/ ت ٥٠٨ هـ/ ط. منشورات الرضي ـ قم.

•س•

سنن الدارقطني علي بن عمر بن أحمد البغدادي الدارقطني/ ت٣٨٥ هـ/ ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت.

. ش .

شجرة طوبى محمد مهدي بن عبدالهادي المازندراني الحائري/ ت ١٣٨٥ هـ/ ط. المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف.

شرح نهج البلاغة عزّ الدين عبدالحميد بن أبي الحديد المعتزلي/ ت٦٥٦ هـ/ ط. دار إحياء الكتب العربية ـ مصر.

الشفا بتعريف حقوق المصطفىﷺ أبو الفضل عياض بن موسى القاضي اليحصبي/ ت ٥٤٤ هـ/ ط. دار الفكر ـ بيروت.

. ص .

الصواعق المحرقة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي/ ت ٩٧٣ هـ/ ط. مكتبة القاهرة ـ مصر.

. ع .

عدّة الداعي أحمد بن محمد بن محمد بن فهد الأسدي الحلّي/ ت ٨٤١ هـ/ ط. مكتبة الوجداني ـ قم.

علل الدارقطني علي بن عمر بن أحمد البغدادي/ ت٣٨٥ هـ/ ط. دار طيبة ـ الرياض.

عوالي اللئالي العزيزية محمد بن علي بن إبراهيم الاحسائي، إبن أبي جمهور/ ت ٨٨٠ هـ/ ط. مطبعة سيد الشهداء ـ قم.

عيون أخبار الرضاعليه السلام أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابوية القمّي، الشيخ الصدوق/ ت ٣٨١ هـ/ ط. مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت.

عيون الحكم والمواعظ كافي الدين أبو الحسن علي بن محمد الليثي الواسطي/ من أعلام القرن السادس الهجري/ ط. دار الحديث ـ قم.

. غ .

غرر الحكم ودرر الكلم أبو الفتح عبدالواحد بن محمد بن عبدالواحد الآمدي/ ت ٥٥٠ هـ/ ط. مكتب الإعلام الإسلامي ـ قم.

. ف .

فرحة الغري السيد غياث الدين عبدالكريم بن طاووس/ ت ٦٩٣ هـ/ ط. مركز الغدير للدراسات الإسلامية ـ قم.

الفضائل أبو الفضل سديد الدين شاذان بن جبرائيل بن إسماعيل إبن أبي طالب

القمّي، إبن شاذان/ ت ٦٦٠ هـ/ ط. المكتبة الحيدرية ـ النجف الأشرف.
فضائل الأشهر الثلاثة محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابوية القمّي، الشيخ الصدوق/ ت ٣٨١ هـ/ ط. دار المحجّة البيضاء ـ بيروت.
فقه الرضا عليه السلام المنسوب للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، ط. مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم.
فقه القرآن أبوالحسن سعيد بن هبة الله، المعروف بقطب الدين الراوندي/ ت ٥٧٣ هـ/ ط. مطبعة الولاية ـ قم.
فوائد الأصول محمد علي الكاظمي الخراساني/ ت ١٣٥٥ هـ/ ط. مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم.
فيض القدير في شرح الجامع الصغير محمد عبدالرؤوف المنادي الشافعي/ ت ١٣٣١ هـ/ ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت.

• ق •

قرب الإسناد أبو العبّاس عبدالله بن جعفر الحميري البغدادي/ ت ٣٠٠ هـ/ ط. مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم.

• ك •

الكافي أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكلبني/ ت٣٢٨ هـ/ ط. دار الكتب الإسلامية ـ طهران.
كامل الزيارات أبو القاسم جعفر بن محمد بن قولوية القمّي/ ت٣٦٨ هـ/ ط. مؤسّسة نشر الفقاهة ـ قم.
كشف الغمّة عن جميع الأمّة عبدالوهاب بن أحمد الشعراني/ ت٩٧٣هـ/ ط. المطبعة الميمنية ـ مصر.
كشف الغمّة في معرفة الأئمه أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الإربلي/ ت٦٩٣ هـ/ ط. دار الأضواء ـ بيروت.
كشف اللثام بهاء الدين محمد بن الحسن بن محمد الأصفهاني، الفاضل الهندي/ ت١١٣٧هـ/ ط. مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم.
كنز العمّال علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي/ ت٩٧٥هـ/ ط. مؤسّسة الرسالة ـ بيروت.
كنز الفوائد أبو الفتح محمد بن الكراجكي/ ت٤٤٩هـ/ ط. مكتبة المصطفوي ـ

قم.

- ل -

لسان العرب أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري/ ت٧١١هـ/ ط. دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

اللهوف في قتلى الطفوف علي بن موسى بن طاووس الحسيني/ ت٦٦٤هـ/ ط. أنوار الهدى ـ قم.

- م -

مجمع الزوائد نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي/ ت٨٠٧ هـ/ ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت.

المحاسن أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي/ ت٢٧٤ هـ/ ط. دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

مدينة المعاجز السيد هاشم بن سلمان البحراني/ ت١١٠٧هـ/ ط. مؤسّسة المعارف الإسلامية ـ قم.

المزار الكبير محمد بن جعفر بن علي بن جعفر المشهدي/ ت٦١٠هـ/ ط. مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم.

مستدرك سفينة البحار علي بن محمد بن إسماعيل النمازي/ ت١٤٠٥هـ/ ط. مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم.

مستدرك الوسائل ميرزا حسين بن محمد تقي بن علي محمد النوري الطبرسي/ ت١٣٢٠هـ/ ط. مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم.

مسكّن الفؤاد زين الدين علي بن أحمد الجبعي العاملي، الشهيد الثاني/ ت٩٦٥هـ/ ط. مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم.

مشكاة الأنوار أبو الفضل علي بن رضي الدين الطبرسي/ ت٥٤٨ هـ/ ط. دار الحديث ـ قم.

مصباح الكفعمي تقي الدين إبراهيم بن علي الكفعمي/ ت٩٠٥هـ/ ط. دار الرضي ـ قم.

معجم الفروق اللغويّة الحسن بن عبدالله بن سهل بن مهران البغدادي، أبو هلال العسكري/ ت٣٩٥ هـ/ ط. مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم.

معجم المؤلفين د. عمر رضا كحالة/ معاصر/ ط. دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

مفاتيح الجنان الشيخ عبّاس بن محمد رضا القمّي/ ت١٣٥٩هـ/

مقاتل الطالبيين علي بن الحسين بن محمد القرشي الأموي الأصفهاني/ ت٣٥٦هـ/ ط. مؤسّسة دار الكتاب ـ قم.

المقنع محمد بن علي بن الحسين بن بابوية القمّي، الشيخ الصدوق/ ت٣٨١هـ/ ط. موسّسة الإمام الهادي ـ قم.

مكارم الأخلاق رضي الدين أبو نصر الحسن بن الفضل الطبرسي/ ت٥٤٨هـ/ ط. منشورات الشريف الرضي ـ قم.

مكاشفة القلوب أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي/ ت٥٠٥هـ/ ط. مصطفى إبراهيم تاج ـ القاهرة.

من لا يحضره الفقيه أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابوية القمّي، الشيخ الصدوق/ ت٣٨١هـ/ ط. مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم.

منازل الآخرة عبّاس بن محمد رضا القمّي/ ت١٣٥٩هـ/ ط. مؤسّسة النشر الإسلامي ـ قم.

ميزان الحكمة محمد الري شهري/ معاصر/ ط. دار الحديث ـ قم.

ـ ن ـ

نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية أبو محمد جمال الدين عبدالله يوسف الزيلعي/ ت٧٦٢هـ/ ط. دار الحديث ـ القاهرة.

نيل الأوطار محمد بن علي بن محمد الشوكاني/ ت١٢٥٥هـ/ ط. دار الجيل ـ بيروت.

ـ و ـ

وسائل الشيعة محمد بن الحسن العاملي/ ت١١٠٤هـ/ ط. مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم.

ـ ي ـ

ينابيع المودّة سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي/ ١٢٩٤هـ/ ط. دار الاسوة ـ قم.

فهرس المحتويات

واكفني ما يشغلني الاهتمام به، واستعملني بما تسألني غدا عنه

وأغنني وأوسع عليّ في رزقك... وهب لي معالي الأخلاق، واعصمني من الفخر

ولا ترفعني في النّاس درجةً إلاّ حططتني عند نفسي مثلها

ومتّعني بهدًى صالح لا أستبدل به، وطريقة حقّ لا أزيغ عنها

اللّهمّ لا تدع خصلةً تعاب منّي إلاّ أصلحتها

اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، وأبدلني من بغضة أهل الشّنآن المحبّة

واجعل لي يداً على من ظلمني، ولساناً على من خاصمني

وحلّني بحلية الصّالحين، وألبسني زينة المتّقين، في بسط العدل..

حلية الصالحين

في ظلال دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين سلام الله عليه

محاضرات سماحة المرجع الديني

آية الله العظمى السيّد صادق الحسيني الشيرازي دام ظله

الطبعة الثانية

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

مراكز التوزيع	
مكتبة الأمين العراق - كربلاء المقدسة هاتف ٣٣٥٢٦٢ / ٣٢٨٦١١	مكتبة الأمين إيران - قم - ص.ب: ٤٣٥٩ هاتف: ٧٧٤٢٥٩٩
مكتبة هيئة الأمين ﷺ الكويت - بنيد القار حسينية أحمد عاشور هاتف / ٢٥٤٤٢٠٢ - فاكس / ٢٥٢٩٦٤٠	دار الأمين لبنان - بيروت حارة حريك مقابل البنك الفرنسي قرب مستودع دار العلوم

